كشف شبهات المخالفين

القسم الثاني من الرد على كتابَي شفاء الفؤاد
والذخائر المحمدية كلاهما لمحمد بن علوي المالكي

بقلم

سمير بن خليل المالكي الحسني المكي

مقدمة

الحمد لله الذي رضي الإسلام للمؤمنين ديناً، ونصب الأدلة على صحته وبينها تبييناً، وغرس التوحيد في قلوبهم فأثمرت بإخلاصه فنوناً، وأعانهم على طاعته هداية منه، وكفى بربك هادياً ومعيناً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيْراً ﴾.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فهذا هو القسم الثاني من الرد على كتابي "الذخائر المحمدية" و "شفاء الفؤاد" كلاهما للدكتور محمد بن علوي المالكي، هداه الله وأصلحه، وجنب المسلمين شره وضرره.

وقد أفردت القسم الأول من الرد، والذي أسميته "جلاء البصائر"، بذكر مجمل ما اشتمل عليه الكتابان المذكوران من أخطاء جسيمة ناقضة لأصول الدين وأركان الإيمان، وقد ظهر بجلاء أن تلك الأخطاء لم تكن زلة قلم من المؤلف بل كانت عن عزيمة منه وإصرار، إذ تكررت في مواضع كثيرة وبألفاظ صريحة لا تقبل التأويل.

وقد تبين بجلاء أيضاً أن تلك الطامات التي ملأ بها كتابيه ليست من المسائل التي يسوغ فيها الخلاف بين المسلمين لمناقضتها لضرورة العقل والفطرة والدين،

وليس عليها أثارة من علم، بل هو الرأي المجرد وإلقاء الكلام على عواهنه، فكلما عنَّ له رأي أو بدا له قول قذف به ولم يبال.

وقد نقل جملة كثيرة من تلك الطامات من كلام أضرابه من المخالفين نثراً وشعراً ولم يحسن التأليف فيما نقل، فقد كرر النقل في أكثر من موضع، ووضع الكلام في غير موضعه اللائق به، ولم يقتصر على نقل الشاهد فقط، بل أطال في النقل بما لا طائل وراءه، تكثيراً للكلام ونفخاً للكتاب.

وهو على كل حال، مؤاخذ بكل ما كتب، سواء في ذلك ما نسبه إلى نفسه وزعم أنه من اختراعه، وما نقله عن غيره من المخالفين، فهو شريك لهم في الإثم والوزر، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً.

ولقد دأب المخالفون في كل زمان على اتباع أساليب المكر والخداع لينفقوا بدعهم وضلالاتهم على العامة، فعمدوا إلى نصوص الوحيين فحرفوا الكلم عن مواضعه واتبعوا المتشابهات لينقضوا بها المحكمات، واحتجوا بالآثار الواهية والموضوعة والأسانيد المجهولة والمنقطعة، فإن أعيتهم الحيلة وعجزوا عن الإتيان بحديث موضوع أو أثر مكذوب، لجأوا إلى الكذب الصريح فاختلقوا إفكاً من عندهم وجعلوه بمثابة الوحي المنزل من السماء.

ولقد شحن المخالف كتابيه "الذخائر" و "شفاء الفؤاد" بكل تلك الأساليب والحيل.

فمن أمثلة تحريفه لآيات الكتاب العزيز، قوله في معنى قول الله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾، نقلاً عن الشيخ عبد العزيز الدباغ قال "إن النبي ﷺ أمره الله تعالى أن يعفو وأن يصفح الصفح الجميل وأن يعاشر بالتي هي أحسن ويدفع بها ... فلما جاءه أهل النفاق واستأذنوه في التخلف وذكروا أعذارهم، أذن لهم في التخلف وهو يعلم نفاقهم

للرحمة التي فيه، ولما أمره الله به من المعاشرة بالتي هي أحسن وحضه عليها في غير ما آية فسلك معهم مسلك الظاهر، ثم تحدث في باطنه بنزول آية تفضحهم، وإنما منعه هو من أن يباشر فضيحتهم للرحمة التي فيه ووصية الله له فتحدث في باطنه بفضيحتهم على وجه يبين كونها من الله لا منه للحياء الذي فيه ﷺ ... فأحب أن تنزل الآية في صورة العتاب له لتكون أبعد عن التهمة وأدخل في محض النصيحة وأزجر لهم عن الاشتغال بالنفاق مع النبي ﷺ مرة أخرى فإن الله تعالى هو وكيله على من ينافقه وخصيمه وحجيجه فتضمنت صورة هذا العتاب مصالح شتى، وفي الباطن لا عتاب وإنما ناب الحبيب عن حبيبه في المخاصمة لا غير..." اهـ(١) باختصار .

قلت: فانظر رحمك الله إلى هذا التحريف الواضح لكلام الله عز وجل، حيث عكس المعنى الذي دلت عليه الآية، وأبدله بمعنى مغاير ولم يسند كلامه إلى قول من يعتبر قوله في تفسير كلام الله من الصحابة والتابعين، ولا إلى لغة العرب التي نزل بها الكتاب المبين.

وقد تضمن كلامه، سوى التحريف والتبديل، جملة من المخالفات والبلايا الطامات:

* فمن ذلك قوله "إنما منعه هو من أن يباشر فضيحتهم للرحمة التي فيه"، وهذا يقتضي تفضيل رحمة النبي ﷺ بهم على رحمة الله تعالى، لأن الله تعالى باشر فضيحتهم هو ولم يباشرها رسوله ﷺ، وإنما تحدث بفضيحتهم في باطنه على وجه يبين كونها من الله لا منه للحياء الذي كان عليه ﷺ، هكذا زعم هذا المخالف عليه من الله ما يستحق.

* ومن ذلك أيضاً قوله: "فأحب أن تنزل الآية في صورة العتاب له لتكون

(١) الذخائر [ص ١٩٠-١٩١].

أبعد عن التهمة". وهذا كذب محض وجرأة بالغة على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ إذ فيه أنه ﷺ فدى المنافقين بنفسه الشريفة، فعرضها لعتاب الله تعالى رحمة بهم ونصحاً لهم، وهذا يشبه ما يزعمه عباد الصليب أن الله تعالى فدى البشرية بابنه فصلبه ليكفّر عن خطيئتهم، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

* وله نظائر أخرى في تحريف كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ذكرها في "الذخائر" (١) نقلاً عن الشيخ عبد العزيز الدباغ، تركت ذكرها طلباً للاختصار.

* وأما احتجاج المخالف بالأحاديث الواهية والأسانيد المجهولة والمنقطعة، فحدث عن ذلك ولا حرج، فقد سود صحائف كتابيه بكل ما هو ضعيف ومنكر، هذا وهو يزعم أنه متخصص في علم الحديث والسنة ويحمل شهادة زور يتباهى بها في المجالس، وهي حجة عليه، لا له، يوم القيامة.

وماذا بعد اعترافه بذلك حيث قال "وقد ورد في هذا الباب أحاديث متعددة منها الضعيف ومنها ما هو أقل من ذلك لكنها تصلح للاستشهاد" (٢)!!

فقوله "ما هو أقل من ذلك" يشمل المنكر والواهي والموضوع وما لا أصل له، فمتى كانت تصلح للاستشهاد ؟

ومن أمثلة ذلك إيراده لحديث «أهبطني الله عز وجل إلى الأرض في ظهر آدم وحملني في السفينة في صلب نوح...» إلى قوله «ولم يزل الله عز وجل ينقلني من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية الفاخرة... » (٣) الحديث.

قلت: وهذا الحديث باطل موضوع، قال ابن الجوزي بعد أن أورده في كتابه "الموضوعات": "هذا حديث موضوع قد وضعه بعض القصاص" (٤).

(١) الذخائر [ص ١٨٩ : ٢٠٠].
(٢) شفاء الفؤاد [ص ١٧].
(٣) الذخائر [ص ٣١١].
(٤) الموضوعات [١/٢٨١].

* ومن ذلك أيضاً ذكره لحديث توسل آدم بالنبي ﷺ، فقال المخالف: "جاء في الحديث أن آدم قد توسل بالنبي ﷺ..." ثم ساق الحديث من طريق الحاكم بإسناده وفيه قال: «لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي...» الحديث (١).

قلت: والحديث قال عنه الإمام الذهبي مستدركاً على الحاكم تصحيحه لإسناده " قلت: بل موضوع، وعبد الرحمن واهٍ، رواه عبد الله بن مسلم الفهري ولا أدري من ذا ؟ عن إسماعيل بن مسلمة عنه" اهـ(٢).

ولم يكتف المخالفون بإيرادهم مثل هذه الموضوعات والمنكرات من الآثار، بل سلكوا مسلكاً أشنع فاختلقوا من عندهم روايات لا أصل لها، واقتفى المخالف أثرهم فذكر في كتابه "الذخائر" تحت عنوان "خلاصة مفيدة في الخصائص النبوية"، جملة من المخترعات، منها:

* زعمه أن النبي ﷺ "سمي من أسماء الله تعالى بنحو سبعين اسماً" (٣).

* وأنه ﷺ "أوتي علم كل شيء حتى الروح والخمس التي في آية ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾" (٤).

* وأن من أمته ﷺ "من يجري مجرى الملائكة في الاستغناء عن الطعام بالتسبيح" (٥).

وسرد في كتابه الآخر "شفاء الفؤاد" كذلك جملة من المخترعات التي لا أصل لها ولا ذكر لها حتى في المصنفات المختصة بذكر الموضوعات والواهيات.

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٥٦-١٥٧].
(٢) تلخيص المستدرك [٢/٦١٥].
(٣) الذخائر [ص ٢٠٢].
(٤) الذخائر [ص ٢٠٥].
(٥) الذخائر [ص ٢١٣].

* فمن ذلك قوله في صيغة السلام على النبي ﷺ عند زيارة قبره: " السلام عليك يا أول السلام عليك يا آخر السلام عليك يا باطن السلام عليك يا ظاهر" ثم قال: " ويقال إن ذلك من تحية جبريل للنبي ﷺ " (١).

قلت: فهاهنا بليتان، إحداهما: تسمية النبي ﷺ بأسماء الله تعالى: الأول والآخر والباطن والظاهر، والثانية: التقول على جبريل *عليه السلام* بأنه كان يحيي النبي ﷺ بذلك.

* ومن ذلك زعمه أن النبي ﷺ يرى من يزور قبره(٢)، ويعرف أحواله ونياته وعزائمه وخواطره (٣).

* ومن ذلك ما جاء في قصيدة البرعي (٤) قوله:

يا من نناديه فيسمعنا على ... بعد المسافة سمع أقرب أقرب

* وفي قصيدة الغرناطي(٥):

لسناك حين بدا بآدم أقبلت ... رعياً لسيماك الملائك تسجد

* وفي قصيدة الكتبي(٦):

كلما لحت للملائك خروا ... في السموات سجداً وبكياً

قلت: فهذه أمثلة مما أورده المخالف في كتابيه من الأباطيل المختلقة التي لا أصل لها وإنما هي محض كذب وافتراء على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ وعلى الملائكة الكرام، وقد سبق التنبيه عليها وعلى مثيلاتها في القسم الأول "جلاء البصائر".

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٢٠].
(٢) شفاء الفؤاد [ص ٢٧].
(٣) شفاء الفؤاد [ص ٩٧].
(٤) شفاء الفؤاد [ص ٢١٢].
(٥) شفاء الفؤاد [ص ٢١٦].
(٦) شفاء الفؤاد [ص ٢٣٥].

ثم إني تتبعت الشبهات التي أكثر المخالفون من إيرادها والاحتيال بها على الناس فوجدتها تدور حول زعمهم تعظيم قدر النبي ﷺ وادعائهم محبته وإجلاله وتوقيره.

فمن تلك الدعوى العريضة دخل هؤلاء المخالفون على الناس واحتالوا عليهم ولبسوا عليهم دينهم، فزعموا أن الأمة كلها ظلت مقصرة في حق نبيها ﷺ قروناً عديدة، وأنها لم تقدره حق قدره ولم تعظمه حق تعظيمه، حتى جاء هؤلاء المخالفون في القرون المتأخرة فأوفوه حقه من التعظيم والتوقير، وأحيوا له ما اندرس من المحبة والتقدير.

وزعموا أن الله ابتعثهم لإنقاذ البشرية كلها من عذاب الله المستحق عليهم وعقابه المحدق بهم، وهدايتهم إلى النعيم الأبدي المقيم، وأن ذلك لا يتأتى ولا يكون إلا بالمغالاة في تعظيم الرسول ﷺ وإطرائه ووصفه بصفات الألوهية والربوبية، والتقرب إليه ﷺ بالحج إلى قبره والعكوف عنده، والوقوف بين يديه والسجود له والخشوع والخضوع لمهابته وكثرة ذكره ودعائه وسؤاله والتضرع إليه لمغفرة الذنوب وستر العيوب ونيل المآرب وتحصيل المطالب الدنيوية والأخروية.

والمقصود أن هؤلاء المخالفين دخلوا على الناس من جهتين:

الأولى: دعوى المحبة والتعظيم لقدر الرسول ﷺ .

الثانية: إيهام العوام بأنه لا نجاة لهم من سخط الله وعذابه ولا سبيل إلى نيل مرضاته إلا باتخاذ الوسائل التي ابتدعها المخالفون، وزعموا أنها هي وحدها النافعة لا غيرها، أو أنها أنفع من غيرها لتحصيل المقاصد.

وتلك الوسائل المخترعة ترجع في حقيقتها إلى الوسيلة العظمى، وهي ذات الرسول ﷺ .

يقول المخالف: "اتفقت جميع الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع

والقياس على استحباب زيارة سيد المرسلين ﷺ من قرب ومن بعد، وعلى أن زيارته من أنجح الوسائل لنيل شفاعته.

أما الكتاب فمن أبينه في ذلك لذوي الفهم المستقيم والبصيرة النافذة قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.

ومعناه إن الناس عند ظلمهم أنفسهم، وسيلتهم إلى قبولهم والعفو عنهم وفوزهم برحمة الله إياهم وقبول توبتهم أن يأتوك تائبين مستغفرين، فإن جاءوك مستغفرين وتكرمت عليهم بالاستغفار لهم، فإنهم يجدون من الله ما أملوا ويظفرون منه عز وجل بما قصدوا" [١].

فزعم المخالف أن شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ من أنجح الوسائل إلى مغفرة الذنوب ونيل الشفاعة، وحرَّف معنى الآية الكريمة لتوافق مذهبه الفاسد، والآية لا علاقة لها بزيارة القبر لا من قريب ولا من بعيد، وسيأتي تفسيرها وبيان مدلولها وتفنيد دعوى المخالف، في مبحث الشفاعة، إن شاء الله تعالى.

* ولم يقف الأمر بالمخالفين عند حد الترغيب في زيارة القبر النبوي، وجعلها من المستحبات فحسب، بل غلوا أكثر من ذلك، فجعلوها من الواجبات:

قال المخالف "قال بعض الحنفية: إنها تقرب من درجة الواجبات. وقال بعض أئمة المالكية: إنها واجبة، قال غيره منهم: يعني من السنن الواجبة" [٢].

* ثم غلوا أكثر من ذلك فشبهوا الزيارة بالحج:

قال المخالف "ينبغي ضبط الزيارة بما ضبط به الأئمة الاستطاعة في الحج" [٣].

(١) شفاء الفؤاد [ص ٧].

(٢) شفاء الفؤاد [ص ٥٦].

(٣) شفاء الفؤاد [ص ١٣١].

* وجعلوها بمثابة الهجرة إلى الرسول ﷺ :

قال المخالف، نقلاً عن الهيتمي، في معنى قوله تعالى ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ الآية. قال: "ولاشك عند من له أدنى مسكة من ذوق العلم أن من خرج لزيارة رسول الله ﷺ يصدق عليه أنه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله، لما يأتي أن زيارته ﷺ بعد وفاته كزيارته في حياته" [١].

* ثم غلوا غلواً أفحش، فعدلوا زيارة القبر النبوي بالإيمان بالرسول ﷺ والشهادة له بالرسالة:

قال المخالف " الزيارة النبوية في الحقيقة توحيد خالص وإيمان صادق لا يشوبه شرك" إلى أن قال " وذلك لأنها إقرار لصاحب الرسالة محمد بن عبد الله بعظيم الفضل وكمال الإحسان وتمام المنة والمعروف وغاية الرتبة في الشرف والعبودية المحضة الصادقة، وهذا هو عين التوحيد" اهـ[٢].

قلت: وهكذا بلغ بهم الغلو في مسألة الزيارة إلى أن صيروها من أسس الإيمان وفضلوها على سائر العبادات، بما فيها الصلاة، مع أن غاية ما جاء في زيارة القبور الاستحباب، ومن ذلك زيارة قبر النبي ﷺ، عند من يقول بمشروعيتها.

وسيأتي بسط هذه المسألة وتفنيد مذهب المخالفين في مبحث الزيارة إن شاء الله تعالى.

* وإذا كان هذا شأنهم وصنيعهم في زيارة القبر، فما الظن بالقبر نفسه، وهو الوسيلة الأقرب إلى المقصود ؟

(١) شفاء الفؤاد [ص ٥٥].

(٢) شفاء الفؤاد [ص ٣١-٣٢].

لقد غلوا فيه غلواً فاحشاً، وفخموا أمره وعظموا شأنه حتى جعلوه وثناً يعبد من دون الأحد الصمد، وفضلوه على الكعبة والعرش وعلى جنة الخلد. وهاك البيان.

* فمن جملة الآداب المخترعة عند زيارة القبر، قول المخالف "ويديم النظر إلى الحجرة الشريفة فإنه عبادة قياساً على الكعبة، فإذا كان خارج المسجد أدام النظر إلى قبتها مع المهابة والحضور" [١].

* وذكر من خصائص النبي ﷺ ما نصه "والبقعة التي دفن فيها أفضل من الكعبة ومن العرش" [٢].

* ونقل عن ابن حجر الهيتمي قوله:

كذا اللحد الذي ضم الطوايا ... تشرف حين حل به التنزيل
وأفضل من سموات وأرض ... وأملاك بأفلاك تجول
ومن عرش ومن جنات عدن ... وفردوس بها خير جزيل [٣]

* ونقل عن المطري قوله:

فالآن ليس سوى قبر حللت به ... منجى الطريد وملجا كل معتصم
نقبل الترب إجلالاً لساكنه ... فكل موطئ أقدام مقر فم [٤]

قلت: وقد كان تعظيم القبور والغلو فيها، أعظم وسيلة اتخذها شياطين الإنس والجن لإضلال العباد وإقحامهم في الشرك بها، وهو سبب أول فتنة وقعت في الأرض من عهد قوم نوح *عليه السلام*، كما تقدم ذكره وتفصيله في "جلاء البصائر".

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٩٤].
(٢) الذخائر [ص ٢٠٦].
(٣) الذخائر [ص ٤٤].
(٤) شفاء الفؤاد [ص ١١٤].

* ومن المسائل التي أثارها المخالفون وشغبوا بها على العوام زعمهم أن الأنبياء *عليهم السلام* أحياء حياة كاملة قطعت عنهم اسم الموت، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك من قبلُ، وبهذه الفرية يكتمل نظام عقد التلبيس على الناس، فزيارة قبورهم وشد الرحال إليها إنما هي زيارة لهم، في زعمهم، لأنهم في قبورهم أحياء لا يحجبهم عن أعين الناس إلا ترابها وعرصتها، وهم من ورائها يسمعون ويبصرون ويعلمون، فمن ثم عظّمت وفخّمت واتخذت أعياداً وأوثاناً.

ومن أجل ذلك جوزوا التوسل بهم وسؤالهم الشفاعة، إذ هم أحياء قادرون على الدعاء، بل وعلى الإعانة والإغاثة والنفع والضر، زعموا !

فقد ذكر المخالف في فصل "الزيارة النبوية والتوسل" من كتابه "شفاء الفؤاد" ما نصه: "من أعظم القربات والطاعات التي يفرح بها الزائر، هي التوسل برسول الله ﷺ، إذ التوسل بالنبي ﷺ وغيره من الأنبياء والأولياء جائز بل مندوب، ... وهو بمعنى الدعاء والسؤال من الله تعالى بجاههم لديه والتوجه إليه بحرمتهم عنده" [١].

وذكر في فصل "الزيارة والشفاعة" في شرح حديث « من زار قبري وجبت له شفاعتي » ما نصه: " قال العلماء: معنى "وجبت له شفاعتي": أي تحققت وثبتت ولزمت له شفاعتي، أي سؤالي الله تعالى أن يتجاوز عنه" [٢].

ثم نقل المخالف قول السبكي في معنى هذه الشفاعة، ورجح أنها شفاعة خاصة للزائرين لا يشركهم فيها غيرهم.

قلت: فظهر الربط، الذي هو في حقيقته خبط وخلط، بين الوسائل الأربع: الزيارة والحياة الكاملة والتوسل والشفاعة، وكلها موصلة إلى المقصود الأعظم، وهو شخص الرسول ﷺ.

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٥٦].
(٢) السابق [ص ١٧٥].

وإذا كان ذلك موقف المخالفين من تلك الوسائل، من التعظيم والتفخيم والمغالاة، ما قدمت لك مثلاً منه في بعضها، فكيف الظن بموقفهم من المقصود الأعظم والمطلوب الأهم ؟!

وقد بينت موقفهم بجلاء بما سقته من كلامهم في الكتاب الأول "جلاء البصائر"، بما لا حاجة بي إلى إعادته وتكراره، فانظره إن رمت الوقوف عليه.

وإنما أفردت الكتاب الأول عن هذا، لأن المسائل المذكورة فيه لا تشتبه حتى على عوام الناس، فضلاً عن غيرهم، بخلاف مسائل هذا الكتاب التي قد يحصل فيها الاشتباه ويكتنف معانيها شيء من الخفاء، حتى على المشتغلين بالعلم الشرعي، كالتوسل بالنبي ﷺ والاستشفاع به بعد موته، وشد الرحال إلى قبره، ونحو ذلك من المسائل التي توسل بها المخالفون ليروجوا بها بدعهم وضلالاتهم.

ومن ثم، فقد خصصت هذا الجزء في كشف شبهات المخالفين الواردة في كتابي "شفاء الفؤاد" و "الذخائر المحمدية"، وقسمته إلى خمسة أبواب:

الباب الأول: في محبة النبي ﷺ وتعظيمه، بينت فيه أن محبته تابعة لمحبة الله، وأنها من أوجب واجبات الدين، وأن لها دلائل وعلامات، أظهرها طاعته واتباعه واجتناب مخالفة أمره.

وبينت أن هؤلاء المخلَّفين ليس لهم من محبته وتعظيمه إلا الدعوى، وأنهم قصدوا من ورائها تعظيم أنفسهم وتقديس أشخاصهم.

الباب الثاني: حياة الأنبياء في قبورهم، بينت فيه أن حياتهم في قبورهم هي حياة برزخية، ليست كحياة الأحياء في الدنيا ولا كحياتهم بعد البعث، وأنها لم تقطع عنهم صفة الموت الواقع عليهم، كما زعم المخالفون.

ثم كشفت عن شبهتهم في ذلك، وبينت وهاءها وبطلان ما احتجوا به من أدلة

على إثبات أن الأنبياء أحياء حياة كاملة حقيقية، نفت عنهم الموت، وأنه على فرض صحة دعواهم في ذلك، فإنه لا يجوز دعاؤهم ولا استغاثتهم من دون الله.

الباب الثالث: في زيارة القبور وشد الرحال إليها، والفرق بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية، وأطلت الكلام في زيارة القبر النبوي خاصة، وبينت أن الأحاديث الواردة في فضلها كلها ضعيفة، وأنها على ضعفها فلا تدل على ما ذهبوا إليه.

الباب الرابع: في التوسل، ذكرت فيه معناه وأقسامه وشبه المخالفين فيه، وضعف أدلتهم التي استدلوا بها على جواز التوسل بالنبي ﷺ بعد موته، وبينت أن توسلهم به من جنس توسل المشركين بآلهتهم.

الباب الخامس: في الشفاعة، ذكرت فيه أقسامها وشرائطها، وأوردت النصوص الدالة على إثبات شفاعة الأنبياء والصالحين وأنها خاصة بالمؤمنين، وأما غيرهم فلا تنفعهم شفاعة الشافعين.

وكشفت عن حقيقة مذهب المخالفين في الشفاعة، وأنهم شابهوا فيها فريقين: المشركين الأولين، والفلاسفة الدهريين.

هذا وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب وأن يجعله حجة لأهل التوحيد ضد خصومهم من أهل الأهواء المتبعين للمتشابه المحرفين للكلم عن مواضعه.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

المبحث الأول

محبة النبي ﷺ

لقد كثر ادعاء الناس محبة النبي ﷺ منذ عهد قديم. فأول من يعزى إليه تلك الدعوى، هم الشيعة، الذين تشيعوا لآل بيت الرسول ﷺ وادعوا محبتهم وتعظيمهم، وبلغ الحال بغلاتهم إلى تأليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فحرقهم بالنار.

وهؤلاء إنما اقتصروا في دعواهم على محبة آل البيت، دون دعوى محبة الرسول ﷺ ، التي هي الأصل وتلك فرع عنها، لتعذر ذلك وعدم إمكانه، إذ الصحابة رضوان الله عليهم متوافرون، وكذا أزواجه وأهل بيته. فمن تراه يزعم مع وجود هؤلاء أنه أحق به وبمحبته وتعظيمه ؟

وإنما أمكن أن يزعموا محبة آله ونصرتهم لما وقعت الفتنة وظهر الخوارج الذين تبرءوا من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكفّروه، وامتنع أهل الشام من مبايعته وانحازوا إلى معاوية رضي الله عنه، فكان ذلك وغيره مما أعان على ظهور بدعة التشيع، ثم لم تزل في ازدياد وتشعب حتى ظهرت الرافضة والفرق الباطنية كالدروز والإسماعيلية والنصيرية، الذين فارقوا دين الإسلام بالكلية.

ومن بين تلك الفرق نشأت فرقة التصوف. وهي أخلاط من عقائد شتى، فأسست طريقتها على دعوى محبة الله والفناء فيه وغلوا في ذلك غلواً فاحشاً حتى قالوا بوحدة الوجود والحلول والاتحاد، كما ادعوا محبة النبي ﷺ وتعظيمه، ومحبة آل بيته وغلوا في ذلك غلواً فاحشاً فاقوا به غلو النصارى في المسيح عليه السلام.

وقد راجت بدع هؤلاء في الأمة أكثر مما راج غيرها لعظم الدعوى التي

ادعاها أصحابها، وأعان على فشوها وانتشارها كرامات مختلقة فاقت معجزات الأنبياء نسبت زوراً وبهتاناً إلى شيوخ الطرق، وتفسير قرمطي لنصوص الوحيين قسموا به دلالات النصوص إلى ظاهر وباطن، فزعموا أن الظاهر هو ما يظهر من دلالات النصوص مما يدركه علماء الشريعة، وأما الباطن فهو ما بطن من المعاني والدلالات مما اختص بإدراكه ومعرفته علماء الحقيقة.

ولم ترزأ أمة الإسلام بمصيبة قط في دينها وعقيدتها بمثل ما رزئت بتلك الطرق الصوفية الباطنية، التي لم تدع أصلاً من أصول الدين إلا نقضته، حتى وجود الله تعالى كفروا به، بمذهبهم الباطل، "وحدة الوجود".

والمقصود أن دعوى المحبة للرسول ﷺ التي تزعمها هؤلاء الضالون المنتسبون إلى الفرق الباطنية الصوفية، وتوسلوا من خلالها إلى الطعن في أصل الدين وركنه الركين، وهو توحيد الخالق جل وعلا في أسمائه وصفاته وأفعاله وتوحيده بالقصد والدعاء والطلب، ليست حديثة عهد، بل أصلها قديم يرجع إلى القرون الأولى من عمر هذه الأمة.

وقد وجد في الأمم السالفة دعاوى مثيلة لهذه الدعوى، فقد ادعت النصارى محبة المسيح عليه السلام وتعظيمه وغلوا في ذلك حتى جعلوه ابناً لله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن ذلك، وادعت اليهود محبة عزير وتعظيمه فقالوا: ابن الله، فكذبهم الله في دعواهم، ولعنهم بغلوهم.

قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال سبحانه ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال تعالى ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣].

وأخبر سبحانه عن غلو أهل الكتاب في أنبيائهم وصالحيهم، في أكثر من موضع من كتابه العزيز، خاصة النصارى، وهم أشهر من غلا من الأمم في نبيهم وفي صالحيهم، واضطربوا في ذلك، كما مر معنا في مبحث الغلو في الكتاب الأول [1].

وقد سلكوا في دعواهم فيهم مسلكين:

الأول: وصفهم إياهم بصفات الإله.

الثاني: قصدهم بالدعاء والطلب.

وقد ظهر الغلو في المحبة والتعظيم في غير اليهود والنصارى، كالمجوس والصابئة عبدة الكواكب العلوية ومشركي العرب عبدة الأصنام وغيرهم، ممن غلوا في الملائكة والصالحين، كما أخبر القرآن عنهم وعن عبادتهم إياهم ومغالاتهم في تعظيمهم.

قال تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وقال ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧].

وقال ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۞ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

فهؤلاء عظموا الملائكة فنسبوهم إلى الله تعالى، وعبدوهم من دونه واتخذوهم شفعاء ووسطاء وتوسلوا بهم ليقربوهم إلى الله زلفى، كما حكى القرآن عنهم ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣].

وقد أبطل الله دعواهم من كل وجه، فنفى عنهم صفتي الألوهية والبنوة

(١) انظر "جلاء البصائر" [ص ٦٧].

وغيرهما من الصفات المزعومة، فقال ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾، وقال ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۞ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩، ٢٠].

وقال ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥].

وقال عن عيسى *عليه السلام* ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ٥٩]. أي ليس ابناً ولا إلهاً ولا ثالث ثلاثة، بل هو عبد لله أنعم عليه بالرسالة. وقد تواتر في القرآن الحكيم نفي الولد عن الله سبحانه، كقوله تعالى ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وكقوله ﴿ أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٢].

وقال ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ [مريم: ٨٨، ٨٩].

وورد في القرآن نفي الألوهية عمن سوى الله، نفياً عاماً وخاصاً، في آيات كثيرة تجل عن الحصر، كقوله تعالى ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وكقوله ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦٢]. وكقوله في بيان دعوة الرسل لأقوامهم ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣ ...].

وقال سبحانه ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا

بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]، فنفى سبحانه في هذه الآية عن المسيح *عليه السلام* صفة الألوهية والربوبية والبنوة وغيرها من الصفات المزعومة، بقول المسيح ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾، قال ابن جرير "يقول: اجعلوا العبادة والتذلل للذي له يذل كل شيء، وله يخضع كل موجود ﴿ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾، يقول: مالكي ومالككم، وسيدي وسيدكم، الذي خلقني وإياكم..." [١].

وقال سبحانه ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥]. قال ابن جرير "وهذا خبر من الله تعالى ذكره احتجاجاً لنبيه محمد ﷺ على فرق النصارى في قولهم في المسيح.

يقول مكذباً لليعقوبية في قيلهم: "هو الله" والآخرين في قيلهم: "هو ابن الله" ليس القول كما قال هؤلاء الكفرة في المسيح، ولكنه ابن مريم ولدته ولادة الأمهات أبناءهن، وذلك من صفة البشر لا من صفة خالق البشر، وإنما هو لله رسول كسائر رسله الذين كانوا قبله فمضوا وخلوا...".

إلى أن قال "وقوله ﴿ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ خبر من الله تعالى ذكره عن المسيح وأمه: أنهما كانا أهل حاجة إلى ما يغذوهما وتقوم به أبدانهما من المطاعم والمشارب كسائر البشر من بني آدم، فإن من كان كذلك فغير كائن إلهاً، لأن المحتاج إلى الغذاء قوامه بغيره. وفي قوامه بغيره وحاجته إلى ما يقيمه دليل واضح على عجزه، والعاجز لا يكون إلا مربوباً لا رباً" [٢].

(١) تفسير ابن جرير [١٠/٤٨١].

(٢) تفسير ابن جرير [١٠/٤٨٤-٤٨٥].

قلت: وفي هذه الآية رد على طائفتين مختلفتين من الناس:

الأولى: الذين غلوا في تعظيم المسيح وأمه فألهوهما، وهم النصارى.

والثانية: الذين آذوه وكذبوه وهموا بقتله وصلبه وآذوا أمه فقذفوها، وهم اليهود. فقوله سبحانه ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ ﴾، أي ليس هو بإله ولا ابن إله كما زعم الغلاة من النصارى، وليس كاذباً على الله كما زعم الغلاة من اليهود عليهم لعائن الله، ووصفه لمريم بأنها صديقة، يرد على الطائفتين الغاليتين كذلك.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

فصــــل:

الغلو في الصالحين

وأقدم من ذلك كله غلو قوم نوح عليه السلام في الصالحين، ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وكانوا رجالاً صالحين فيهم فلما ماتوا نصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم، تبركاً بهم، فلما هلك هؤلاء وتنسَّخ العلم عبدوا من دون الله.

ثم صارت عبادة تلك الأسماء سنة في العرب في الجاهلية، سنها لهم ودعاهم إليها عمرو بن لحي، كما مر ذكره من قبل. (١)

فتبين أن الغلو في الأنبياء والملائكة والصالحين هو أصل الشرك والضلال في الأمم من قبل، ومن ثم تواترت نصوص الكتاب والسنة على ذمه والتحذير منه وسد ذرائعه المفضية إليه، كقوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوْا فِيْ دِيْنِكُمْ وَلاَ تَقُوْلُوْا عَلَىْ اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ [النساء: ١٧١].

وكقوله ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوْا فِيْ دِيْنِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوْا أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوْا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوْا كَثِيْرًا وَضَلُّوْا عَنْ سَوَآءِ السَّبِيْلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

قال القرطبي " قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوْا فِيْ دِيْنِكُمْ ﴾ نهى عن الغلو، والغلو التجاوز في الحد، ويعني بذلك غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم وغلو النصارى فيه حتى جعلوه رباً، فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر. قال الشاعر:

---

(١) انظر "جلاء البصائر" [ص ٥٥].

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد   كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقال آخر:

عليك بأوساط الأمور فإنها   نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعباً

وفي صحيح البخاري عنه عليه الصلاة والسلام «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى، وقولوا: عبد الله ورسوله».

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أي لا تقولوا: إن له شريكاً وابناً"[1].

وفي وصف الله عز وجل لعيسى عليه السلام وسائر الرسل والأنبياء بأنهم بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويولدون ويموتون ويسقمون ويضعفون ويهرمون ويجهلون إلا ما علمهم الله، ويجوز عليهم الخطأ والمخالفة والنسيان، ولا يقرون على ذلك بل ينبهون ويذكرون، إلى غير ذلك مما وصف به الأنبياء في القرآن، تنبيه على منع الغلو فيهم والتجاوز في تعظيمهم.

وكذا وصفهم بالعبودية في مواضع كثيرة من القرآن، وبالخوف والخشية والضراعة إلى الله والتوبة والإنابة والاستغفار، والأدلة على ذلك لا تخفى على من تتبعها.

بل ورد في حقهم الوعيد الشديد لمن خالف أو عصى، كقوله تعالى ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣].

(١) تفسير القرطبي [٦/٢١].

وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القلم: ٤٨، ٥٠].

وقال سبحانه على لسان عبده صالح ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود: ٦٣].

وقال سبحانه ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

والآيات في شأن النبي ﷺ خاصة كثيرة، منها:

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

قال ابن جرير في تفسيره: " أعلمه تعالى ذكره أنه إذا قصر عن إبلاغ شيء مما أنزل إليه إليهم، فهو في تركه تبليغ ذلك، وإن قل ما لم يبلغ منه، فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذنب بمنزلته لو لم يبلغ من تنزيله شيئاً"[1].

(١) تفسير الطبري [١٠/٤٦٧].

وقال القرطبي في تفسيره: "وهذا تأديب للنبي ﷺ وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته، وقد علم الله تعالى من أمر نبيه أنه لا يكتم شيئاً من وحيه"(١).

ومنها قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنِّيْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥، الزمر: ١٣].

وقوله ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِيْنَ ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وقوله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِيْ الْأَرْضِ تُرِيْدُوْنَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيْدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ۞ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيْمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وقوله ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيْلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِيْنِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِيْنَ ۞ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِيْنَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ -٤٧].

وقوله ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيْلاً ۞ إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيْراً ﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥].

قال القرطبي في تفسيره: " أي لو ركنت لأذقناك مثلَي عذاب الحياة في الدنيا ومثلَي عذاب الممات في الآخرة. وهذا غاية الوعيد. وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم" (٢) .

وقال الله سبحانه في حق الملائكة المقربين أيضاً ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيْ إِلَهٌ مِنْ دُوْنِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيْهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِيْ الظَّالِمِيْنَ ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

(١) تفسير القرطبي [٦/٢٤٢].

(٢) تفسير القرطبي [١٠/٣٠١].

وفيما سقناه من الآيات أبلغ دليل على نفي دعاوى الغلاة في المخلوقين، ولو كانوا من المقربين، وأن مرد الأمور إلى الله في الأمر والنهي والتشريع، لا يشركه في شيء من ذلك أحد، لا الرسل ولا غيرهم، بل هم عبيد له مأمورون بتبليغ الرسالة، وليسوا له بشركاء، وليس لهم من الأمر شيء.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

عرض الشبهة

تقدم أن المخالفين دخلوا على الناس من باب المحبة للرسول ﷺ وتعظيمه، وشبهوا عليهم بها، وأنهم غلوا في ذلك غلواً فاحشاً ضاهوا به غلو النصارى في المسيح، والمشركين في أصنامهم وأوثانهم.

وتقدم أن الفرق الباطنية المنتسبة إلى الإسلام من هذه الأمة هي التي تزعمت تلك الدعوى العريضة، ليفشوا في الناس بدعهم وأهواءهم ومذاهبهم الباطلة.

وقد راج في الناس كثير من تلك البدع والأهواء، لعظم الدعوى التي استتر وراءها المخالفون المنتسبون إلى تلك الفرق الضالة، وخفاء حقيقة أمرهم ودعوتهم، وقلة العلم وفشو الجهل بأحكام الدين، ولتقاعس كثير من أهل الحق عن تبليغه للخلق، وتواصي بعضهم على غلّه وكتمانه.

وأعان على ذلك تقصير كثير من ولاة الأمر في واجبهم تجاه المخالفين الغلاة، وعدم الأخذ على أيديهم بما أمر الله[1]، والله ناصر دينه ومعز جنده ولو كره المشركون.

ولم يأت هؤلاء المخالفون المتأخرون بجديد، فهم على آثار أسلافهم مقتدون، وعلى كتبهم ومؤلفاتهم معولون، بل زادوا عليهم بأن جمعوا شتات ما تفرق في مؤلفاتهم من بدع وضلالات وطامات، كما فعل هذا الدكتور العلوي في "ذخائره" التي هي بواقر، و "شفائه" الذي هو شقاء وبلاء.

وقد تبين بجلاء حقيقة ما يدعو إليه هذا المخالف وأضرابه من شرك في الألوهية والربوبية، بما نقلته عنهم في "جلاء البصائر" ، ما أغنى عن إعادته هنا. ومنها يعرف بطلان دعواهم التي ادعوها من أنهم أولى الناس بحب

(١) بل ربما أعانوهم وجاروا على دعاة الحق.

الرسول ﷺ وتعظيمه، والحق أنهم في دعواهم كاذبون، فما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون.

وكيف يكون من أوليائه من دأبه وديدنه مخالفة أمره ومعارضة سنته والاعتراض على حكمه؟

وكيف يكون من أوليائه من جهد جهده في السعي لهدم شريعته ونقض دعائم دعوته التي ترجع إلى أصل واحد أساس، هو توحيد الله بالعبادة، وترك كل ما يعبد من سواه؟

أما بلغك قول المخالف: "فيقف – يعني أمام القبر – بخضوع ووقار وذلة وانكسار غاض الطرف مكفوف الجوارح واضعاً يمينه على شماله كما في الصلاة" [(١)]؟

وقوله:

نقبل الترب إجلالاً لساكنه فكل موطئ أقدام مقر فم [(٢)] ؟

* وأمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يقول للناس ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وأمره بقوله ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ [الجن: ٢١].

فبلّغ رسول الله ﷺ ما أوحي إليه من كلام ربه، وقال لأقرب الناس إليه «يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً» [(٣)].

فكبُر على المخالفين ذلك وقالوا: بل يملك النفع والضر والخير والشر !

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٨٩–١٩٠].

(٢) شفاء الفؤاد [ص ١١٤].

(٣) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [١/٥٢].

قال المخالف:

يا رسول الله عجل سيدي بزوال البؤس عنا والضرر
وارحم الأمة جمعاً إنهم لم يزالوا في عناء وكدر [(١)]

وقال في وصف الرسول ﷺ " الخليفة الأكبر الممد لكل موجود" [(٢)].

وقال:

فلأنت في الدنيا وفي الأخرى وفي كل المواطن عدتي وندائي [(٣)]

* ونهاه ربه عز وجل أن يدعو أحداً من دونه، فقال ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

ونهى العباد كلهم أن يدعوا أحداً سواه، فقال عز من قائل ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]. فبلّغ الرسول ﷺ للناس وحي ربه، ونصح أمته فقال فيما رواه عنه ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» [(٤)].

فاعترض المخالفون على ذلك وأبوه أشد الإباء، وبالغوا في دعاء الرسول ﷺ وسؤاله واستغاثته من دون الله، حتى لم يتركوا لله شيئاً من ذلك !

قال المخالف:

فلذ به من كل ما تشتكي فهو شفيع دائماً يقبل

(١) شفاء الفؤاد [ص ٢٣١].

(٢) الذخائر [ص ٢٣٣].

(٣) شفاء الفؤاد [ص ٢٣٤].

(٤) رواه الترمذي [٤/٦٦٧].

ولـذ بـه في كـل مـا ترتجـي ... فإنـه المـأمن والمعقـل
ونـاده إن أزمـة أنشبـت ... أظفارهـا واستحكم المعضـل[١]

وقال أيضاً:

يا غياث الخلق يـا ذا الفضل والـ ... جـود والإحسان في بحـر وبـر [٢]

وقال:

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي ... مالي سواك ولا ألوي على أحد
إني إذا سامني ضيم يروعني ... أقول يا سيد السادات ياسندي [٣]

وقال:

توجه رسول الله في كل حاجة ... لنا ومهم في المعاش وفي القلب [٤]

وقال " فمن توسل به – يعني النبي ﷺ – أو استغاث به أو طلب حوائجه منه فلا يرد ولا يخيب" [٥].

* وأمره المولى جل وعلا أن يُعْلِم المتعنتين الذين أكثروا من سؤاله عن الساعة، بأن مرد علم الساعة إلى الله وحده، فقال ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤].

وكذا مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

(١) الذخائر [ص ١٥٨].
(٢) شفاء الفؤاد [ص ٢٣٠].
(٣) شفاء الفؤاد [ص ٢٠٣].
(٤) شفاء الفؤاد [ص ٢٠٨].
(٥) شفاء الفؤاد [ص ٩٧].

فبلَّغ رسول الله ﷺ للناس ما أوحي إليه، وأكد ذلك فقال لمن سأله عن الساعة: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» [١].

وقال ﷺ «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله» [٢].

فأعرض المخالفون عن ذلك، واتخذوه وراءهم ظهرياً !

فذكر المخالف من خصائص النبي ﷺ أنه " أوتي علم كل شيء حتى الروح والخمس التي في آية ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾" [٣].

فأي محبة تلك التي يزعمها أولئك المخالفون ؟

وانظر إلى سوء الأدب الذي التزموه وتواصوا به في حق النبي ﷺ، وجرأتهم البالغة على مخالفته، فقد نهى أمته عن إطرائه وأرشدهم إلى ما يجوز من مدحه ووصفه، فقال: «لا تطروني كما أطري عيسى بن مريم وقولوا: عبد الله ورسوله» [٤].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، حيث كان ﷺ ينهى أصحابه ويحذرهم من الغلو فيه وتجاوز الحد في مدحه ووصفه، كما مر ذكر ذلك وتفصيله من قبل[٥].

فضرب المخالفون بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض الحائط، وصرحوا، ولم يكنوا، بمخالفته ومعارضة حكمه !

يقول المخالف " ثم اعلم أن كل ما مال إلى تعظيم رسول الله ﷺ لا ينبغي لأحد البحث فيه ولا المطالبة بدليل خاص فيه، فإن ذلك سوء أدب، فقل ما شئت

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [١/٢].
(٢) رواه البخاري [٨/٣٧٥].
(٣) الذخائر [ص ٢٠٥].
(٤) أخرجه البخاري [١٢/١٤٤].
(٥) انظر جلاء البصائر [ص ٧٠ – ٧٦]

يقول المخالف " ثم اعلم أن كل ما مال إلى تعظيم رسول الله ﷺ لا ينبغي لأحد البحث فيه ولا المطالبة بدليل خاص فيه، فإن ذلك سوء أدب، فقل ما شئت في رسول الله ﷺ على سبيل المدح ولا حرج" (١) .

قلت: أرأيت سوء أدب كهذا، مع رسول الله ﷺ ؟

قال ﷺ « لا تطروني» ، وأنكر على الذين قالوا «أنت سيدنا، وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً» ، وعلى من قال: «ما شاء الله وشئت» ، وعلى الجارية الصغيرة لما قالت: "وفينا نبي يعلم ما في غد".

ويعترض المخالف على ذلك كله ويقول بكل وقاحة: "قل ما شئت في رسول الله ﷺ على سبيل المدح ولا حرج"!!

بل يصف المتأدبين مع رسول الله ﷺ ، الطائعين له ولأمره، الواقفين عند حدوده، يصفهم بسوء الأدب معه !!

إذا وَصَف الطائيَّ بالبخل مادرٌ　　وعيَّر قساً بالفهاهة باقل
وقال السهى للشمس أنت ضئيلة　　وفاخرت الشهبَ الحصا والجنادل
وطاولت الأرض السماء سفاهة　　وقال الدجى يا صبح لونك حائل
فيا موت زر إن الحياة ذميمة　　ويا نفس جدي إن دهرك هازل

* وللقوم تأويل غريب لحديث «لا تطروني...» ، هو في حقيقته تحريف لمعناه وصرف لدلالته ومقتضاه، تواصوا على ذكره وإشاعته صاغراً عن صاغر، وأشهر من يعزى إليه ذلك التأويل شاعرهم البوصيري صاحب " البردة " ، حيث قال:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم　　واحكم بما شئت قولاً فيه واحتكم

(١) الذخائر [ص ٢٠١].

وقد نقل المخالف هذه الأبيات ثم شرحها بقوله "والمعنى يخاطب كل من قصد مدح تلك الحضرة المصطفوية والسدة المحمدية بالرخصة له في سلوك أي أسلوب أراده من أساليب المدح النبوي، غير ما ادعته النصارى في عيسى *عليه السلام* فإنه لا يجوز الإقدام عليه لاستلزامه الشرك، بل قل عبد الله ورسوله، واحكم بما شئت مدحاً فيه من صفات الكمال ونعوت الجلال وسمات الجمال فإنك ذو رخصة فيه، ليس عليك من حرج.

بل لو بذلت في ذلك جل طاقتك وجهدك وجدت في تحصيله بنفسك، لم تحط إلا بالقليل من معاني كماله ونعوت جماله، فإن عظمته ﷺ عظمة قد طاعت لها أعناق الجبابرة، وعلو شأنه مرتبة قد خضعت لها جباه القياصرة، واركب في طريق الإطراء عليه جادة الأنصار لا النصارى، واسلك في الثناء عليه مسلك المهتدين لا الحيارى" (١).

قلت: فانظر رحمك الله إلى مبلغ سفه القوم وسوء أدبهم مع الله ومع الرسول ﷺ ، يعمدون إلى نص محكم صريح من حديث رسول الله ﷺ ، فيسلطون عليه سهام التحريف والتبديل والتعطيل، ويقدمون عليه زبالة أذهانهم ونخالة أوهامهم، ثم يتبجحون بمحبته وتعظيمه، زعموا !

يقول «لا تطروني» ، فيعارضه شاعرهم بقوله "واحكم بما شئت قولاً فيه واحتكم" !

ويؤكده أشقاهم فيقول "واحكم بما شئت مدحاً فيه من صفات الكمال ونعوت الجلال" !

واعجب لتلك الفلسفة القرمطية التي حرفوا بها الحديث، إذ جعلوا النهي محصوراً في لفظ أو ألفاظ معينة لا يجوز إطلاقها على الرسول ﷺ ، كأن يقال: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، وأما ما سوى ذلك فليس داخلاً في النهي، بل

(١) شفاء الفؤاد [ص ٣٧].

الأمر فيه واسع، والرخصة فيه مباحة لأن يقول القائل ما عنَّ له من صفات التعظيم والتقديس والإجلال !

وعلى هذا، فلو قال القائل في وصف الرسول ﷺ : إنه (فاطر السموات والأرض ومبدع الكون وخالق الأفلاك ورازق الكائنات ومحيي الأموات، وأنه يعلم ما كان وما يكون، لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء، وأنه الحي القيوم، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذو الطول، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء...) إلى غير ذلك من صفات الكمال ونعوت الجلال، فهو صادق في ذلك كله، بزعمهم، طالما أنه لم يقل إنه: الله، أو ابن الله!

ولو وصفه الواصفون بصفات الإله وسموه بأسمائه، ودعوه من دون الله وحجوا لقبره ونسكوا له النسك ونذروا له النذور وعفروا له الجباه، لكانوا في رخصة من ذلك، إذا اجتنبوا أن يقولوا: هو الله، أو ابن الله !

ولا يظن ظان أن هذا من باب الإلزام فقط، فالقوم قد قالوا مثله وأكثر منه في حق الرسول ﷺ ، كما قد سقت لك من مُثل في "جلاء البصائر" وفي مباحث هذا الكتاب.

ولا ريب أن هؤلاء الغلاة المحرفين لكلام رسول الله ﷺ ، لم يؤتوا من قبل الجهل بمعنى كلامه، وسوء الفهم لمدلوله ومرامه، بل أتوا من سوء القصد، وحرفوا كلامه عن عمد، كما أخبر الله تعالى عن أسلافهم من المحرّفين ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]. إذ الحديث لا يخفى معناه حتى على العوام، فضلاً عن غيرهم ممن ينتسب إلى العلم والفهم، ويعتزي إلى المشيخة والتحقيق !

فقوله ﷺ في أول الحديث «لا تطروني» صريح في النهي عن الغلو في مدحه ووصفه بما لا ينبغي في حقه، وقد أكده بقوله في آخره «فقولوا عبد الله ورسوله» فأرشد مادحيه إلى ما ينبغي أن يصفوه به في مدحهم إياه، من كونه عبداً لله

ورسولاً من رسله اجتباه، وهما أبلغ صفاته وأعظمها وأرفعها لمقامه، وتواتر وصفه بهما في مواضع كثيرة في القرآن والسنة.

كقوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [الكهف: ١]. وقوله ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣]. وقوله ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وقوله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وورد وصفه بالعبودية والرسالة في حديث عبادة بن الصامت ﷺ عن النبي ﷺ قال «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» [1].

وجاء في صفة التشهد في الصلاة من حديث ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قوله: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» [2].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وقد وصف الله نبيه محمداً ﷺ في مواضع كثيرة من القرآن بالبشرية والرسالة. هو وسائر الرسل من قبل، إعلاماً منه سبحانه بحقيقة أمرهم ووظيفتهم، ورداً على المتعنتين المكذبين بالرسل المعترضين على أمر الله تعالى وحكمه وقضائه الذين كبر عليهم أن يأتيهم بشر مثلهم يدعونهم إلى الهدى، واقترحوا خلقاً أكبر وأعظم في نفوسهم، كالملائكة ونحوهم ممن لهم قوة وشأن مغاير لما عليه البشر.

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [١/٧].

(٢) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [١/٨٢].

قال تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَنْ قَالُوٓا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۞ قُلْ لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

وقال تعالى ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢].

وأخبر سبحانه عن حال كفار قريش وتعنتهم واقتراحهم على النبي ﷺ أن يأتيهم بالآيات وخوارق العادات، فقال ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ إلى آخر الآيات، فأمر نبيه أن يجيبهم بجواب واحد كافٍ، فقال ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وفي هذه الآيات ونحوها رد كذلك على الغلاة الذين غلوا في الرسل ووصفوهم بصفات الرب سبحانه أو بغيرها من الصفات التي لا تنبغي لهم فهم في حقيقة أمرهم وفيما يظهرونه من اعتقاد في الرسل، حالهم كحال أولئك المكذبين لهم المعاندين لدعوتهم الكافرين ببعثتهم ونبوتهم، والفرق أن أولئك أظهروا الكفر والتكذيب، وهؤلاء الغلاة أبطنوه وأخفوه وأظهروا الإيمان والتصديق وادعوا المحبة والتعظيم.

وقد أوضح القرآن ذلك في شأن عيسى عليه السلام، وانقسام الناس فيه إلى فرقتين كافرتين: المكذبين له، الطاعنين في نبوته، والغلاة فيه، المدعين حبه وتعظيمه، ورد على الفريقين وحكم عليهم بالكفر والضلال، كما تقدم.

وأما الفرقة الثالثة فهم المؤمنون به عليه السلام، الذين امتدحهم القرآن

وأثنى عليهم في غير موضع، وأمر المؤمنين من هذه الأمة بالاقتداء بهم في نصرتهم لنبيهم ودعوته، كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوٓا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ [الصف: ١٤].

وكذا الشأن في النبي ﷺ وانقسام الناس فيه إلى الفرق الثلاث، المؤمنين والمكذبين والغلاة، كهؤلاء المخالفين الذين كبر عليهم أن يكون رسول الله ﷺ عبداً لله مخلوقاً مربوباً كسائر العباد، فأضفوا عليه من صفات الألوهية والربوبية وجعلوه نداً لله، كقولهم فيه ﷺ: " أوتي علم كل شيء، وهو الأول والآخر والباطن والظاهر، والخليفة الأكبر الممد لكل موجود، وأنه يملك الأرض كلها وأرض الجنة، وأن رحمته شملت كل مخلوق في السماء والأرض، وإحسانه عم الخلق في البر والبحر، لجا اللاجين، وغياث المستغيثين، وغوث من في الخافقين، وله من الأسماء الإلهية الحسنى سبعون اسماً، بل له كل الأسماء، وأنه حي على الدوام، كائن قبل الأنام، وأن سمعه يخترق السبع الطباق إلى سدرة المنتهى، وأنه يجير من العذاب، وبيده مقاليد الثواب والعقاب، يتوب على التائبين، ويغفر للمذنبين، ويرحم الخلق أجمعين..." إلى آخر ما هنالك مما سقته لك قبل من أقوالهم[1].

وقد أكده المخالف هنا بقوله "واحكم بما شئت مدحاً فيه من صفات الكمال ونعوت الجلال وسمات الجمال" وقوله "بل لو بذلت في ذلك جل طاقتك وجهدك، وجدت في تحصيله بنفسك لم تحط إلا بالقليل من معاني كماله ونعوت جماله، فإن عظمته ﷺ عظمة قد طاعت لها أعناق الجبابرة، وعلو شأنه مرتبة قد خضعت لها جباه القياصرة..."

قلت: فلم يبق لله عز وجل صفة يختص بها عن الرسول ﷺ. وقد سبقه

(١) انظر، إن شئت تفصيل أقوالهم والرد عليها، القسم الأول من هذا الرد "جلاء البصائر".

إلى ذلك الغلو، صاحب البردة نفسه، بقوله في وصف النبي ﷺ :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا شرك صريح في الربوبية، إذ جعل الدنيا وضرتها، وهي الآخرة مما جاد به النبي ﷺ على الخلق، ومن علومه علم اللوح والقلم، فماذا أبقى لله تعالى ؟

وقال البوصيري أيضاً:

لو ناسبت قدره آياته عظماً أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

وهذا شرك آخر في الربوبية، يقول: إن قدر النبي ﷺ وعظمته أعظم من آياته التي أوتيها، ومنها القرآن العظيم، وأنها لم تكن وافية بقدره ولا مناسبة لمقامه وعظمته، ولو كانت كذلك لأحيا ذكر اسمه رفات الأموات.

قلت: وإنما وقع المخالفون فيما وقعوا فيه من الشرك الأكبر في الربوبية والألوهية، عقوبة من الله عز وجل لمخالفتهم أمر رسوله ﷺ .

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قال ابن كثير في تفسيره " أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، أي: في قلوبهم، من كفر ونفاق أو بدعة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي في الدنيا، بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك" [١].

قلت: وهؤلاء لم يخالفوا أمره فحسب، بل حرفوا قوله وعكسوا معناه فعاقبهم الله تعالى على سوء صنيعهم وأضلهم وأعمى أبصارهم.

وقوله ﷺ «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم» صريح في

(١) تفسير القرآن العظيم [٩٧/٦]. طبعة الشعب.

النهي عن الغلو في مدحه، ومجاوزة الحد في وصفه، فيفضي بهم إلى ما أفضى بالنصارى في إطرائهم في المسيح عليه السلام وغلوهم فيه حتى أوصلهم ذلك إلى الكفر والشرك.

وهذا المعنى هو المتبادر من لفظ الحديث، وهو الذي ذكره شُرَّاح الحديث.

قال البغوي في شرح السنة "الإطراء: مجاوزة الحد في المدح، والكذب فيه، وذلك أن النصارى أفرطوا في مدح عيسى وإطرائه بالباطل وجعلوه ولداً، فمنعهم النبي ﷺ من أن يطروه بالباطل" اهـ[١].

وقال ابن الأثير في جامع الأصول " الإطراء: المبالغة في المدح والإسراف فيه بما ليس في الممدوح" اهـ[٢] .

وقال الحافظ في الفتح " الإطراء المدح بالباطل، تقول: أطريت فلاناً: مدحته فأفرطت في مدحه، «كما أطرت النصارى ابن مريم» أي في دعواهم فيه الإلهية وغير ذلك" اهـ[٣].

وقال صديق حسن خان في عون الباري « لا تطروني، أي: لا تمدحوني بالباطل أو لا تجاوزوا الحد في مدحي. «كما أطرت النصارى ابن مريم» ، أي: في دعواهم فيه الإلهية وغير ذلك.

وقد بالغ الشعراء في قصائدهم في مدحه ﷺ بما لا يجوز شرعاً بل ولا عقلاً، وهو من باب الإطراء المنهي عنه، وابتلي به أكثر أهل العلم قديماً وحديثاً إلا من عصمه الله تعالى.

فليحذر المسلم التابع للسنة أن يمدح رسول الله ﷺ بما لا يرضى به الله ولا

(١) شرح السنة [٢٤٦/١٣]. (٣) فتح الباري [٤٩٠/٦].

(٢) جامع الأصول [٩٧/٤].

وهو من باب الإطراء المنهي عنه، وابتلي به أكثر أهل العلم قديماً وحديثاً إلا من عصمه الله تعالى.

فليحذر المسلم التابع للسنة أن يمدح رسول الله ﷺ بما لا يرضى به الله ولا رسوله بل نهى عنه، ولكن أنى لهم التناوش من مكان بعيد.

قال الشوكاني رحمه الله في " الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد": وقد وقع في البردة والهمزية شيء كثير من هذا الجنس، ووقع أيضاً لمن تصدى لمدح نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولمدح الصالحين والأئمة الهادين ما لا يأتي عليه الحصر.

قال: وانظر رحمك الله ما وقع من كثير من هذه الأمة من الغلو المنهي عنه المخالف لما في كتاب الله وسنة رسوله، كما يقوله صاحب البردة:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العَمم

فانظر كيف نفى كلَّ ملاذ ما عدا عبد الله ورسوله ﷺ وغفل عن ذكر ربه ورب رسول الله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وهذا باب واسع قد تلاعب الشيطان بجماعة من أهل الإسلام حتى ترقوا إلى خطاب غير الأنبياء بمثل هذا الخطاب، ودخلوا من الشرك في أبواب بكثير من الأسباب » اهـ(١) .

قلت: ومما يؤكد ما قاله الشرَّاح في معنى الحديث، تواتر الأحاديث الأخرى على معناه ، كقوله ﷺ لمن قال له: «أنت سيدنا، وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً» فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان» (٢).

(١) عون الباري [١٥٩/٤].

(٢) أخرجه أبو داود [١٥٤/٥].

لهم المبالغة في المدح ونهاهم عن ذلك" (١).

وجاء في حديث آخر نحوه، وفيه قال: «أنا محمد بن عبد الله، أنا عبد الله ورسوله وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله» (٢) .

وفي حديث الربيِّع بنت معوذ، لما قالت الجارية في غنائها «وفينا نبي يعلم ما في غد» أنكر عليها النبي ﷺ وقال «دعي هذه وقولي ما كنت تقولين» (٣) .

قال الحافظ في الفتح " أي: اتركي ما يتعلق بمدحي الذي فيه الإطراء المنهي عنه" اهـ(٤).

قلت: فهؤلاء لم يقولوا فيه كقول النصارى في المسيح، ومع ذلك أنكر عليهم قولهم ونهاهم عن إطرائه والمجاوزة في مدحه، مما يدل على بطلان ما قاله المخالفون الغلاة من أن النهي مخصوص في لفظ بعينه، أو صفة بعينها، وأنه إذا اجتنب المرء أن يقول في الرسول ﷺ : هو الله أو الرب، أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، فلا حرج عليه أن يقول ما سوى ذلك من صفات الكمال ونعوت الجلال.

وصيغة النهي الواردة في قوله «لا تطروني كما أطرت النصارى» لو فرض أنها مخصوصة، فلا تدل على أن النهي عن إطرائه مخصوص بالألفاظ المذكورة، لأن العبرة بالمعاني لا بالألفاظ والمباني، فهؤلاء النصارى الضلال لم يقتصر غلوهم على إطلاق اللفظ، بل اعتقدوا في المسيح الألوهية لما عاينوا ما أجراه الله على يديه من الآيات كإحياء الموتى وإبراء الكمه والبرص وغير ذلك، ولم يقتصروا أيضاً على ذلك. بل عبدوه من دون الله، واستغاثوا به، كما فعل غلاة المشركين مع الصالحين حين اتخذوهم أولياء وشفعاء يتوسلون بهم إلى الله،

(١) جامع الأصول [٥١/١١].

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند [١٥٣/٣] والنسائي في عمل اليوم والليلة [ح ٢٤٨، ٢٤٩].

(٣) رواه البخاري [٣١٥/٧].

(٤) فتح الباري [٢٠٣/٩].

ويدعونهم من دونه ويستغيثون بهم، وربما نحتوا التماثيل على صورهم، فعبدوها أو عكفوا على قبورهم فعبدوها واتخذوها أوثاناً، كما اتخذوا الأحجار والأشجار الدالة على آثارهم، آلهة.

وكذا فعل المشركون مع الملائكة، وصفوهم بأنهم بنات الله، جهلاً وغلواً. وصوروا الصور على أشكال تدل عليهم، بزعمهم، وهم لم يروهم أصلاً، ثم عبدوهم من دون الله واتخذوهم شفعاء وأولياء يقربونهم إلى الله زلفى.

وقد فعل النصارى مثل ذلك فاتخذوا الصليب وعبدوه من دون الله، وكذا فعل المشركون الغلاة من هذه الأمة مع الرسول ﷺ، غلوا فيه ووصفوه بكل صفات الإله، من الحياة والعلم والرحمة والمغفرة والسمع والبصر والعلو والقرب، وغير ذلك مما تقدم، وعبدوه من دون الله، فاستغاثوا به واستجاروا وسألوه كل شيء، وصرفوا له كل الدعاء والرجاء واتخذوه شفيعاً وولياً يتوسلون به إلى الله.

واتخذوا قبره وثناً يعبدونه ويلجأون إليه في الشدائد والملمات، كما قالوا:

فالآن ليس سوى قبر حللت به ... منجى الطريد وملجا كل معتصم

نقبل الترب إجلالاً لساكنه ... فكل موطئ أقدام مقر فم[1]

وجعلوه منسكاً يحجون إليه، كما يحج إلى البيت الحرام، وجعلوا النظر إليه قربة يتقربون بها إليه، وفضلوه على الكعبة والعرش وجنة عدن كما تقدم.

ثم نقول أيضاً إن التشبيه في قوله ﷺ «كما أطرت النصارى» لا يقتضي التشبيه في القدر والكيفية، بل التشبيه المذكور إنما هو في أصل الإطراء، وهو المجاوزة في المدح، وهذا كما تقول للرجل: لا تفعل كما فعل فلان، تنهاه عن فعل قبيح، ولا تقصد بذلك نهيه عن قدر الفعل، وإنما تريد نهيه عن أصل الفعل. وهذا ظاهر.

(١) شفاء الفؤاد [ص ١١٤].

وقد ورد في القرآن نظير ذلك، كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقد جاء تفسير أذى بني إسرائيل لموسى عليه السلام في حديث أبي هريرة[1] رضي الله عنه، أنهم قالوا عنه إنه آدر، فبرأه الله من ذلك فأراهم إياه عرياناً ليس به أدرة.

فنهى الله عز وجل المؤمنين أن يؤذوا رسول الله ﷺ بأي نوع من أنواع الأذى ولم يقل أحد إن النهي مخصوص بما قاله بنو إسرائيل في نبيهم، وأما ماعداه فليس داخلاً في النهي.

ومثله قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

فنهاهم سبحانه عن أصل الاختلاف والتفرق، لا عن عين الاختلاف الواقع في أهل الكتاب من قبل فقط.

ونظير ذلك في القرآن أيضاً في صيغة الأمر، قوله تعالى ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

والمراد به أصل الإحسان، لا قدره، لأنه لا يمكن لأحد أن يحسن كإحسان الله إلى الخلق.

ونظيره في صيغة الخبر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والتشبيه إنما هو في أصل الصوم، لا في عينه وقدره وكيفيته. ومن ذلك

(١) رواه البخاري ومسلم. انظر جامع الأصول [٣٢٣/٢].

قول النبي ﷺ «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» (١).

والتشبيه هنا في أصل الرزق، لا في قدره، ولا في كيفيته.

فبطل قول الغلاة من كل وجه، وبالله التوفيق.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(١) رواه أحمد [١/ ٣٠] والترمذي [٢٣٤٤].

كيف تكون محبة الرسول ﷺ

قال ابن رجب رحمه الله ((محبة النبي ﷺ من أصول الإيمان، وهي مقارنة لمحبة الله عز وجل، وقد قرنها الله بها، وتوعد من قدم عليهما محبة شيء من الأمور المحبوبة طبعاً من الأقارب والأموال والأوطان وغير ذلك، فقال تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [التوبة: ٢٤].

ولما قال عمر للنبي ﷺ : «أنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي»، فقال: «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال عمر: والله أنت الآن أحب إليَّ من نفسي، قال: «الآن يا عمر» (١).

وإنما تتم المحبة بالطاعة، كما قال تعالى:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وسئل بعضهم عن المحبة، فقال: الموافقة في جميع الأحوال. فعلامة تقديم محبة الرسول على محبة كل مخلوق: أنه إذا تعارض طاعة الرسول ﷺ في أوامره وداع آخر يدعو إلى غيرها من هذه الأشياء المحبوبة، فإن قدم المرء طاعة الرسول وامتثال أوامره على ذلك الداعي، كان دليلاً على صحة محبته للرسول ﷺ وتقديمها على كل شيء.

وإن قدم على طاعته وامتثال أوامره شيئاً من هذه الأشياء المحبوبة طبعاً، دل ذلك على عدم إتيانه بالإيمان التام الواجب عليه. وكذلك القول في تعارض محبة

(١) رواه البخاري [١١/ ٥٢٣].

الله ومحبة داعي الهوى والنفس فإن محبة الرسول تبع لمحبة مرسله عز وجل. هذا كله في امتثال الواجبات وترك المحرمات.

فإن تعارض داعي النفس ومندوبات الشريعة، فإن بلغت المحبة إلى تقديم المندوبات على دواعي النفس، كان ذلك علامة كمال الإيمان وبلوغه إلى درجة المقربين المحبوبين المتقربين بالنوافل بعد الفرائض.

وإن لم تبلغ هذه المحبة إلى هذه الدرجة، فهي درجة المقتصدين أصحاب اليمين الذين كملت محبتهم الواجبة ولم يزيدوا عليها » اهـ[1] باختصار.

قال ابن القيم "لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخليّ حرقة الشجي، فقيل: لا تقبل الدعوى إلا ببينة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾" [آل عمران: ٣١].

وقال " إذا غرست شجرة المحبة في القلب وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدرة المنتهى" [2].

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» [3].

وفي لفظ لمسلم: «حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين» .

قال النووي في شرحه لمسلم « قال الإمام أبو سليمان الخطابي: لم يرد به حب الطبع بل أراد به حب الاختيار، لأن حب الإنسان نفسه طبع، ولا سبيل إلى قلبه، قال: فمعناه: لا تصدق في حبي حتى تفنى في طاعتي نفسك وتؤثر رضاي على هواك، وإن كان فيه هلاكك. هذا كلام الخطابي.

(١) فتح الباري لابن رجب الحنبلي [١/ ٤٨ – ٤٩]. (٣) اللؤلؤ والمرجان [١/ ٩].
(٢) مدارج السالكين [٣/ ٨ – ٩].

وقال ابن بطال والقاضي عياض وغيرهما، رحمة الله عليهم: المحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام، كمحبة الوالد. ومحبة شفقة ورحمة، كمحبة الولد. ومحبة مشاكلة واستحسان، كمحبة سائر الناس. فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته.

قال ابن بطال، رحمه الله: ومعنى الحديث: أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين، لأن به ﷺ استنقذنا من النار، وهدينا من الضلال.

قال القاضي عياض، رحمه الله: ومن محبته ﷺ نصرة سنته والذب عن شريعته وتمني حضور حياته فيبذل ماله ونفسه دونه... » اهـ[1].

وقال الحافظ في الفتح " إن من علامات محبته، نصرة سنته والذب عن شريعته وقمع مخالفيها، ويدخل فيه باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" [2].

قلت: ومن هنا يتبين أن هؤلاء المخالفين ليس لهم من محبة النبي ﷺ وتعظيمه إلا الدعوى، ولو كانوا صادقين في دعواهم لاتبعوا سنته واهتدوا بهديه واتبعوا أثره، ولما آثروا أهواءهم وبدعهم ومخالفاتهم وأقوال مشايخهم وساداتهم وعرافيهم على هديه وسنته وشريعته.

ولو كانوا صادقين في دعواهم لما دأبوا على عصيانه ومخالفة أمره ومعارضة حكمه، ولما كانوا للبدع والضلالة منتصرين، ولأهلها معظمين، وعلى مذاهبهم الباطلة معولين وعلى آثارهم مقتدين.

قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨١].

(١) شرح مسلم [٢/ ١٥].
(٢) فتح الباري [١/ ٥٩].

* وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[١].

قال البيضاوي "وإنما جعل هذه الأمور الثلاثة عنواناً لكمال الإيمان، لأن المرء إذا تأمل أن المنعم بالذات هو الله تعالى، وأنه لا مانح ولا مانع في الحقيقة سواه، وأن ما عداه وسائط، وأن الرسول هو الذي يبين له مراد ربه، اقتضى ذلك أن يتوجه بكليته نحوه، فلا يحب إلا ما يحب، ولا يحب من يحب إلا لأجله" [٢].

ونقل الحافظ عن بعض أهل العلم قوله "محبة الله على قسمين فرض وندب.

فالفرض: المحبة التي تبعث على امتثال أوامره والانتهاء عن معاصيه، والرضا بما يقدره، فمن وقع في معصية من فعل محرم أو ترك واجب، فلتقصيره في محبة الله، حيث قدم هوى نفسه.

والندب: أن يواظب على النوافل ويتجنب الوقوع في الشبهات، والمتصف عموماً بذلك نادر.

وكذلك محبة الرسول على قسمين، كما تقدم، ويزاد: أن لا يتلقى شيئاً من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته، ولا يسلك إلا طريقته، ويرضى بما شرعه، حتى لا يجد في نفسه حرجاً مما قضاه، ويتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار والحلم والتواضع وغيرها، فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان وتتفاوت مراتب المؤمنين بحسب ذلك" اهـ[٣] باختصار.

---

(١) اللؤلؤ والمرجان [٩/١].

(٢) الفتح [٦١/١].

(٣) الفتح [٦١/١].

قلت: والكلام عن محبة الرسول ﷺ وعلاماتها ومقتضياتها لا تسعه هذه الورقات، والمقصود التنبيه على بعضها، وبيان كذب المخالفين في دعواهم.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

كيف يكون تعظيم الرسول ﷺ

لقد وفي القرآن الكريم حق الرسول ﷺ من التوقير والتعظيم، وتواترت آياته في بيان علو قدره ورفعة شأنه وما ينبغي على أمته تجاهه من التوقير والتعزيز والإجلال.

قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾.

قال ابن كثير " قال مجاهد: لا أُذكر إلا ذُكرت معي، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقال آخرون: رفع الله ذكره في الأولين والآخرين، ونوه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به وأن يأمروا أممهم بالإيمان به، ثم شهر ذكره في أمته فلا يذكر الله إلا ذكر معه" اهـ[1] باختصار.

وقال تعالى ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾.

قال ابن كثير في تفسيره " قوله تعالى ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾، أي: في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته وفيما أعده له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف وطينه مسك أذفر، كما سيأتي" اهـ[2].

(١) تفسير القرآن العظيم [٥٢٥/٤].

(٢) تفسير القرآن العظيم [٥٢٢/٤].

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]. قيل في معنى الآية: وإنك لعلى دين عظيم، وهو الإسلام. قيل: وإنك لعلى أدب عظيم(١). وكلا المعنيين حق وصدق.

وقال عز وجل ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

وفي هذه الآيات تنويه بقدر الرسول ﷺ، فقد امتن المولى عز وجل عليه بغفران ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر، وقد فرح بها الرسول ﷺ واستبشر، كما في الصحيح من حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال «لقد أنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ من الدنيا جميعاً» (٢).

وفي لفظ من طريق آخر قال «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ »(٣).

ومما يدل على عظم تلك المنة وعلو قدرها، ما جاء في حديث الشفاعة الطويل حيث يذكر لكل نبي ما اختص به من فضائل، فيقال لآدم «أنت أبو البشر، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك»، ويقال لنوح «أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً» ، إلى أن يأتوا محمداً ﷺ فيقولون له: «وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر» (٤).

وفي لفظ من حديث أنس، أن عيسى عليه السلام يقول «ائتوا محمداً ﷺ فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» (٥) .

(١) انظر تفسير ابن كثير [٤٠٢/٤].

(٢) رواه مسلم [ح ١٧٨٦].

(٣) رواه البخاري [٤٥٢/٧].

(٤) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [٤٩/١-٥١].

(٥) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [٤٨/١].

فدل ذلك على شرف تلك الصفة وعظم قدرها، وهي كونه ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بلزوم الأدب مع رسول الله ﷺ وتوقيره وتعظيمه وإجلاله، وإنزاله منزلته التي أنزله الله إياها.

قال تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ٨ - ١٠].

قال ابن كثير في تفسيره « ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد: تعظموه. ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام. ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾، أي: تسبحون الله. ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي: أول النهار وآخره.

ثم قال عز وجل لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾، كقوله جل وعلا ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾» اهـ(١) .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات: ١].

وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

وقال: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم [١٨٥/٤].

(٢) [النور: ٦٣]

وقال ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقال ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وأعظم من ذلك كله أمره سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعة الرسول ﷺ واتباعه في عشرات المواضع من كتابه الكريم، وفرض عليهم التحاكم إليه فيما شجر بينهم، وتمام الرضا بحكمه والتسليم بقضائه.

وقد امتثل الصحب الكرام رضوان الله عليهم بما أدبهم به ربهم تجاه نبيهم ﷺ فكانوا مثلاً يحتذى في الطاعة له والاتباع والتعظيم والإجلال.

وقد شهد الله تعالى لهم بذلك في غير ما موضع من كتابه، فقال ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

وقال ﴿ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقال ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية [الحشر: ٨، ٩].

* وقد شهد لهم بذلك الفضل أيضاً أعداؤهم، فهذا عروة بن مسعود وافد قريش في صلح الحديبية يقول: «أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً. والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك

بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إليه النظر تعظيماً له»[1] .

ومن أمثلة تعظيمهم له ﷺ وإيثارهم طاعته ومحابه على رغبتهم ومحابهم ما رواه أنس رضي الله عنه قال: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك»[2] .

قلت: فهذا هو التعظيم الحق، لا ما يدعيه الغلاة المخلفون، الذين آثروا أهواءهم ورغباتهم على محبته ومرضاته، ورغبوا بآرائهم عن هديه وسنته وأطاعوا شياطينهم في معصيته، وسارعوا إلى كل أمر يكرهه ويبغضه. ولم يكن أبغض إلى نفسه وأتعب لقلبه ﷺ من الشرك والغلو.

روى البخاري ومسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي قال: قال لي رسول الله ﷺ «ألا تريحني من ذي الخلصة» ؟ وكان بيتاً في خثعم يسمى كعبة اليمانية ... الحديث[3]، وفيه أنه انطلق في خمسين ومائة فارس فحرقها بالنار وكسرها، فدعا لهم الرسول ﷺ .

قال الحافظ في الفتح "وما كان شيء أتعب لقلب النبي ﷺ من بقاء ما يُشرك به من دون الله تعالى"[4].

قلت: فما استراح قلبه ﷺ حتى حُرِّق ذلك الوثن وكسر، وما فارق الدنيا حتى كسرت كل الأصنام والأوثان التي كانت تعبد من دون الله في جزيرة العرب.

فعمد الغلاة المخالفون إلى أبغض شيء إلى قلب النبي ﷺ فاقترفوه، وتتابعوا عليه وتواصوا به، وعمدوا إلى أقرب مكان إليه فاتخذوه وثناً يعبد من دون الله وكعبة يحج إليها كما يحج إلى بيت الله.

---

(١) رواه البخاري [٥/٣٣٠].
(٢) رواه الترمذي [ح ٢٧٥٥].
(٣) اللؤلؤ والمرجان [٣/١٦١].
(٤) فتح الباري [٨/٧٢].

قالوا "والبقعة التي دفن فيها أفضل من الكعبة ومن العرش" (١).

وقالوا:

وأفضـل مـن سمـوات وأرض ... وأمـلاك بـأفلاك تجـول

ومـن عـرش ومـن جنـات عـدن ... وفـردوس بهـا خـير جزيـل(٢)

وقالوا "ويديم النظر إلى الحجرة الشريفة فإنه عبادة قياساً على الكعبة، فإذا كان خارج المسجد أدام النظر إلى قبتها مع المهابة والحضور" (٣).

فهل يُغضب رسول الله ﷺ ويُتعب قلبه، كعبة خثعم ونُصُبها، ويرضيه ويريح قلبه اتخاذ بيته وقبره كعبة وقبلة ووثناً يعبد ؟

وهل بعث رسول الله ﷺ ليقول للناس: اتركوا هذه الأصنام والأوثان والأنداد التي تعبدونها من دون الله وتدعونها مع الله وتستشفعون بها عنده وتتوسلون بها إليه، واتخذوني وقبري بدلاً عنها هو أنفع لكم وأنجع لمطلوبكم ؟

وهل جاء لينهى الناس عن الغلو في تعظيم المخلوقين ومحبتهم كحب الله، ثم يأمرهم بالغلو في تعظيمه وتقديسه ومحبته ؟

وهل بعث إلى عبَّاد المسيح والصليب ليقول لهم: لا تغلوا في دينكم، ولا تطروا المسيح واتركوا عبادته وتقديس الصليب، فإنه لا ينفعكم ولا يضركم، واغلوا فيَّ وأطروني بما شئتم، واتخذوا قبري ملجأ ومعتصماً ومأمناً ومعقلاً ؟

حاشا رسول الله ﷺ من ذلك كله، بل أمرهم بعبادة الله وحده وتعظيمه وتقديسه وإجلاله، ونهى عن الغلو في شخصه ﷺ وعن إطرائه، وعن اتخاذ قبره عيداً ومسجداً، فكيف باتخاذه وثناً ؟

(١) الذخائر [ص ٢٠٦]. (٣) شفاء الفؤاد [ص ١٩٤].

(٢) الذخائر [ص ٤٤].

قال «لا تطروني»، وقال «إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين» (١)، ونهاهم عن قولهم «أنت سيدنا» (٢) و«فينا نبي يعلم ما في غد» (٣) و «ما شاء الله وشئت» (٤).

* ونهاهم عن القيام والسجود والانحناء له أو لغيره (٥)، وأنكر عليهم قيامهم في الصلاة خلفه وهو جالس، مع أن قيامهم عبادة لله وتعظيم له، وهو من أركان الصلاة، وقال «إن كدتم آنفاً لتفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا» الحديث (٦).

* ونهاهم عن تفضيله على موسى عليه السلام وعلى غيره من الأنبياء(٧)، ولما قيل له «يا خير البرية» قال «ذلك إبراهيم خليل الله» (٨). ولما سُئل «من أكرم الناس» ؟ قال «يوسف نبي الله» (٩).

* ولم يقل لأصحابه يوماً من الدهر امدحوني، فضلاً عن أن يأمرهم بإطرائه والغلو فيه، بل أمرهم بمدح الله وتعظيمه، وقال لهم: «لا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى، من أجل ذلك مدح نفسه» (١٠).

وظل يتعهدهم بذلك إلى آخر أيام حياته، حيث نهاهم وهو على فراش الموت، أن يتخذوا قبره مسجداً، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور

(١) رواه أحمد [١/٢١٥] والنسائي [٥/٢٦٨]. (٢) رواه أبو داود [٥/١٥٤].

(٣) رواه البخاري [٩/٢٠٢]. (٤) رواه أحمد [ح ١٨٣٩].

(٥) أما النهي عن القيام فيؤخذ من عدة أحاديث، منها حديث أنس المتقدم، وأما السجود له فقد نهى عنه في حديث معاذ، رواه أحمد [٤/٣٨١]، وأما الانحناء ففيه حديث حنظلة عند أحمد [٣/١٩٨].

(٦) رواه مسلم [ح ٤١٣]. (٧) متفق عليه. جامع الأصول [٨/٥١٣].

(٨) رواه مسلم [ح ٢٣٦٩]. (٩) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [٣/١١٩].

(١٠) متفق عليه. جامع الأصول [٨/٤٣١].

أنبيائهم مساجد» قالت: فلولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً[(١)] .

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال، قبل موته بخمس «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»[(٢)] .

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري [٣/٢٠٠]، ومسلم [٥٢٩].

(٢) رواه مسلم [٥٣٢].

فصل:

﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾

فمحبة النبي ﷺ إذاً، وتعظيمه، له حد معين لا يجوز الزيادة عليه ولا الغلو فيه، وإلا أفضى إلى الشرك.

قال تعالى ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢]. قال ابن جرير في تفسيره "الأنداد جمع ند، والند: العدل والمثل، وكل شيء كان نظيراً لشيء وله شبيهاً فهو له ند" اهـ[(١)] باختصار.

وقال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. قال ابن القيم رحمه الله: "فأخبر أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم.

وقوله ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

والثاني: والذين آمنوا أشد حباً لله من محبة المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة.

(١) تفسير الطبري [١/٣٦٨].

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى، حكاية عنهم وهم في النار، يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم.

وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾. أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم. وهذا أصح القولين" اهـ[1] باختصار.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله "فأصل الدين وقاعدته يتضمن أن يكون الله هو المعبود الذي تحبه القلوب وتخشاه، ولا يكون لها إله سواه. والإله ما تألهه القلوب بالمحبة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والإعظام، ونحو ذلك.

والله سبحانه أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو، فتخلو القلوب عن محبة ما سواه بمحبته، وعن رجاء ما سواه برجائه، وعن سؤال ما سواه بسؤاله وعن العمل لما سواه بالعمل له، وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به. فينبغي أن يفرق بين محبة المؤمنين ودينهم، ومحبة النصارى والمشركين ودينهم.

فالمشركون اتخذوا مع الله أنداداً يحبونهم كحب الله، واتخذوا شفعاء لهم عند الله، ففيهم محبة لهم وإشراك بهم، وفيهم من جنس ما في النصارى من حب المسيح وإشراك به.

والمؤمنون أشد حباً لله، فلا يعبدون إلا الله وحده، ولا يجعلون معه شيئاً يحبونه كمحبته، لا أنبياءه ولا غيرهم. فأحبّوا عبد الله ورسوله محمداً ﷺ لحب

(١) مدارج السالكين [٣/٢٠-٢٢].

الله، وعلموا أنه عبد الله المبلّغ عن الله، فأطاعوه فيما أمر، وصدقوه فيما أخبر، ولم يرجوا إلا الله، ولم يخافوا إلا ا لله، ولم يسألوا إلا ا لله" اهـ[1] باختصار.

وقد فرق القرآن بين ما ينبغي تجاه المخلوق من حقوق في المحبة والتعظيم، وما لا ينبغي إلا للخالق وحده.

قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩].

فذكر الرضا بما آتاه الله ورسوله، لأن الرسول هو الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ أمره ونهيه، وتحليله وتحريمه، ووعده ووعيده.

ثم قال تعالى ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ ولم يقل ورسوله، فإن الحسب هو الكافي، والله وحده كافٍ عباده المؤمنين.

ثم قال ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ ، فذكر الإيتاء لله ورسوله، لكن وسطه بذكر الفضل، فإن الفضل لله وحده.

ثم قال ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾، فجعل الرغبة إلى الله وحده، دون الرسول وغيره من المخلوقين[2] .

وقال تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢]. فجعل الطاعة لله والرسول، وجعل الخشية والتقوى لله وحده، كما قال ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ وقال ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾[3] .

(١) مجموع الفتاوى [١١ / ٥٢٣ – ٥٣٠].
(٢) انظر مجموع الفتاوى [١/٢٩٢-٢٩٣].
(٣) انظر مجموع الفتاوى [١/٦٨].

ومثله قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٣]. فجعل الطاعة للرسول، لأنه مبلغ عن الله، فطاعته طاعة لله، وكذا اتباعه والإيمان بما جاء به، أما التقوى والعبادة فهي حق خالص لله لا يشركه فيه أحد.

وكذلك التوكل والاستعانة والإنابة والاستغفار والتوبة ونحوها، هي من حقوق الخالق وحده، لا يشركه فيها ملك ولا نبي ولا صالح ولا غيرهم من الخلق. قال تعالى ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]. وقال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. وقال ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٣].

وقد ضل الغلاة المخالفون فخلطوا بين حقوق الخالق وحقوق المخلوق وجعلوا ما لهذا لهذا، وزادوا على ذلك الإثم إثماً آخر، فرموا غيرهم ممن هداهم الله إلى الحق، بالجهل وسوء الأدب.

يقول المخالف: " ثم اعلم أن كل ما مال إلى تعظيم رسول الله ﷺ لا ينبغي لأحد البحث فيه ولا المطالبة بدليل خاص فيه، فإن ذلك سوء أدب، فقل ما شئت في رسول الله ﷺ على سبيل المدح ولا حرج" [1].

فحكم على من فرق بين تعظيم الله تعالى وتعظيم رسوله ﷺ، اتباعاً للدليل وطاعة لله وللرسول، بسوء الأدب !

فدخل تحت ذلك الحكم الجائر الصحابة والتابعون والأئمة المتبوعون وسائر المؤمنين، الذين رضوا بالله رباً وبمحمد رسولاً، ولم يخلطوا بين حق الله وحق الرسول ﷺ.

وقوله "كل ما مال إلى تعظيم رسول الله ﷺ" وقوله "فقل ما شئت في رسول الله ﷺ على سبيل المدح"، صيغة عموم تشمل كل أنواع المدح والتعظيم، فلم يبق لله شئ يختص به.

(١) الذخائر [ص ٢٠١].

ويقال لهذا المخالف وأشباهه: أتبيحون كل تعظيم للرسول ﷺ أو نوعاً خاصاً من التعظيم ؟

فإن أبحتم كل تعظيم له، لزمكم أن تبيحوا السجود والركوع له والطواف به وبقبره والحلف به، بل وتسبيحه وتحميده وتكبيره والتوكل عليه والذبح له وباسمه، فكل ذلك داخل في التعظيم.

ولزمكم كذلك أن تسموه بكل أسماء الله وتصفوه بكل صفاته وتنسبوا إليه كل أفعاله، فإن ذلك تعظيم.

وإن قلتم بالتخصيص، طولبتم بالدليل عليه، والبحث فيه، لمعرفة ما يجوز ومالا يجوز، وصرتم ممن أساء الأدب، كما زعمتم.

والحق أنكم، معشر المخالفين، أسأتم الأدب للغاية بغلوكم وإطرائكم الرسول ﷺ بما لا ينبغي في حقه، وقلتم بما لم يقله أحد قبلكم من الغالين.

فمن قولكم فيه "هو الأول والآخر والباطن والظاهر[1]، وسمي من أسماء الله سبعين اسماً[2]، بل له كل الأسماء الحسنى[3]، وأنه يعلم عزائم القلوب ونياتها وخطراتها[4]، وبنوره أشرقت الدنا[5]، وأنه معنى الوجود [6]، المنعم على كل الوجود [7]". وقلتم فيه "واعطف عليَّ بعفو منك يشملني[8]، فأقل عثار عبيدك الداعي[9]، واكتب له ولوالديه براءة من النار[9]، واقمع بحولك باغضيه[9]، وها عبيدك يحيى قد أتاك مستسلماً خاضعاً مستأنساً وجلاً [10]، فامنن عليَّ بنظرة وبتوبة وصيانة وسلامة وشفاء[11]، وارحم الأمة جمعاً وأرحهم من عنا هذا الوبا [12]".

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٢٠].
(٢) الذخائر [ص ٢٠٢].
(٣) شفاء الفؤاد [ص ١٢٦].
(٤) شفاء الفؤاد [ص ٧٩].
(٥) شفاء الفؤاد [ص ٢٠٥].
(٦) شفاء الفؤاد [ص ١١٣].
(٧) شفاء الفؤاد [ص ٢١٢].
(٨) شفاء الفؤاد [ص ٢٠٣].
(٩) شفاء الفؤاد [ص ٢١٣].
(١٠) شفاء الفؤاد [ص ٢٢٨].
(١١) شفاء الفؤاد [ص ٢٣٤].
(١٢) شفاء الفؤاد [ص ٢٣١].

وقلتم فيه مثل ذلك الشيء الكثير، وما أبقيتم لله سبحانه صفة ولا اسماً ولا فعلاً يختص به، وأسلمتم وجوهكم إلى المخلوق وصرفتم له كل دعاء ورجاء فلم يَعد ذلك شركاً، إذ الشرك هو إشراك المخلوق مع الخالق في التعظيم والمحبة والعبادة، وهؤلاء لم يدعوا للخالق شيئاً من ذلك[1].

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(١) انظر إن شئت تفصيل ذلك في "جلاء البصائر".

فصــــل:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ﴾

وهاهنا يرد السؤال الملِح: ما قصد المخالفين من ذلك الغلو والإطراء لشخص الرسول ﷺ والتمادي فيه والإصرار عليه؟

والجواب: إن قصدهم من وراء ذلك هو طلب الرئاسة على الخلق والسيادة فيهم، ونيل الحظوة والجاه والمنزلة، وتحصيل المنافع الدنيوية، وطلب تعظيم الناس لهم وتقديسهم والغلو فيهم.

ولا أظن ذلك يحتاج إلى دليل، أو يفتقر إلى برهان، فحال القوم أبلغ دليل على ذلك، وطرقهم ومذاهبهم مبنية على الغلو في التعظيم والتقديس لأنفسهم. وحسبك دليلاً على ذلك تلك الألقاب التي أضفوها على أشخاصهم، والتي صارت سمة على شيوخهم وساداتهم لا يكاد يشركهم فيها أحد غيرهم.

* فمنها، وهو أشهرها، لقب "العارف" وله عندهم معنىً غير المعنى الذي يظنه الجاهل بحقيقة مذهبهم القائم على وحدة الوجود، فالعارف في عرفهم هو من عرف أن الله هو الكون، فكل شيء تراه أو تسمع به في العالم العلوي أو السفلي فهو الله، تعالى الله عما يقولون.

هذا هو العارف عندهم، فما هي صفاته؟

قال بعضهم: العارف هو من أشهده الله تعالى ذاته وصفاته وأفعاله[1].

وقال آخر: معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى، يحتملك ويحلم عنك، تخلقاً بأخلاق الله عز وجل[2].

(١) حاشية العروسي [١/٨]. (٢) الرسالة القشيرية [ص ١٤٢].

وقال آخر: إذا بلغ العبد إلى مقام المعرفة أوصى الله تعالى إليه بخواطره وحرس سره أن يسنح فيه غير خاطر الحق[1].

* ومنها لقب "الولي" ، وهو من ألقابهم الخاصة، لا يقصدون به اللفظ العام الذي يفهمه المسلمون.

ومقام الولاية عندهم أعلى من مقام النبوة والرسالة كما قال قائلهم:

مقـــام النبـــوة في بـــــرزخ فويـــق الرســـول ودون الـــولي

* ومنها "القطب" و "الغوث" و "الوتد" و "البدل" ونحوها من الألقاب التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي يزعمون أن أصحابها يغيثون الخلق ويعينونهم من دون الله، وأنهم يتصرفون في الكون بما يشاءون.

* وأسوق إليك بعض كراماتهم المختلقة وأحوالهم المزعومة لتعلم صدق ما أقول:

١ – يقول عبد القادر الجيلاني، وهو من كبار أقطابهم، " من الأولياء من تسجد الملائكة له" [2].

٢ – ويذكر الشعراني من كرامات الشويمي: أنه وهب رجلاً من عمره عشر سنين، ثم مات والشويمي غائب، فجاءه وهو يغسَّل فقال: كيف مت ؟ وعزة ربي لو كنتُ حاضراً ما خليتك تموت" [3].

٣ – وذكر النبهاني عن الشيخ جاكير الكردي أنه قال: "ما أخذت العهد قط على مريد حتى رأيت اسمه مكتوباً في اللوح المحفوظ" [4].

(١) الرسالة القشيرية [ص ١٤٢].
(٢) الفتح الرباني [٣٧٠].
(٣) الطبقات الكبرى [٢/ ١٠٣].
(٤) جامع الكرامات [٢/ ٤].

٤ – وذكر النبهاني من كرامات عبد الرحمن الجامي: " أنه جلس في زمن الربيع على شاطئ نهر ملآن وإذا بقنفذة ميتة قد أقبلت على وجه الماء، فأخذها مولانا الجامي، ومسح بيده ظهرها، فظهر أثر الحياة فيها" [1].

٥ – وذكر النبهاني كذلك من كرامات أحد أصحاب الشيخ حسين: " أنه كان يأمر السحاب أن يمطر فيمطر لوقته، وكل من تعرض له بسوء قتله بالحال في الحال.

قال: ودخل مرة الجعفرية، فتبعه نحو خمسين طفلاً يضحكون عليه، فقال: يا عزرائيل إن لم تقبض أرواحهم لأعزلنك من ديوان الملائكة، فأصبحوا موتى أجمعين.

وقال له بعض القضاة: اسكت، فقال له: اسكت أنت، فخرس وعمي وصم.

وسافر في سفينة فوحلت ولم يمكن تعويمها، فقال: اربطوها بخيط في بيضي، ففعلوا، فجرها حتى خلصها من الوحل" [2].

قلت: ولهم من هذا الهذيان الذي يزعمونه زوراً كرامات، وهو محض الكذب والاختلاق، الشيء الكثير، ومنها ما تقشعر منه القلوب المؤمنة وتكذبه العقول السليمة، ومنها ما ينبو القلم عن ذكره لفرط فحشه[3] .

فغلوهم في تعظيم الرسول ﷺ إنما هو وسيلة إلى الغلو في أشخاصهم فهي المقصودة بالتعظيم، ومن ثم أضفوا عليها من صفات الربوبية والإلهية ما لم يقولوا مثله ولا نصفه في شخص الرسول ﷺ .

يؤيده أنهم صرحوا بأن الولي أفضل من النبي والرسول، كما تقدم، وابتدعوا ما يسمى "خاتم الأولياء"، وزعموا انه أفضل من خاتم الأنبياء[4].

(١) جامع الكرامات [٢/ ١٥٤].
(٢) جامع الكرامات [٢/ ٢٨٦].
(٣) راجع إن شئت المزيد من هذا الهذيان الطبقات الكبرى للشعراني، وجامع كرامات الأولياء ليوسف النبهاني.
(٤) انظر مجموع الفتاوى [١١/ ٤٤٤].

وقد ذكر المخالف في "الذخائر" من خصائص هذه الأمة أن منهم: أقطاباً وأوتاداً ونجباء وأبدالاً، وقال: "ومنهم من يجري مجرى الملائكة في الاستغناء عن الطعام بالتسبيح" (١).

ومما يؤكد لك قصدهم تعظيم أنفسهم والغلو في أشخاصهم، ما أورده المخالف في "شفاء الفؤاد" من صيغ الدعاء التي تقال عند زيارة القبر النبوي، فقال "اللهم أفض على روحي ما أفضته على روح الكامل من هذه الأمة..." إلى أن قال: "وهب لي زهداً كزهد الكامل، وورعاً كورعه وعلماً كعلمه، ونوراً كنوره، وفهماً كفهمه، وإقبالاً كإقباله" (٢).

ولا ريب أن هذا من الاعتداء في الدعاء، وفيه من سوء الأدب مع الله عز وجل ومع رسوله ﷺ، إذ يسأل ما لا يحل له ولا ينبغي له، ولا يمكن حصوله، وهو يتضمن سؤال النبوة، إذ هي العلم والنور الذي أوتيه الرسول ﷺ. هذا وقد صرحوا مراراً وأكدوا على أن الدعاء عند القبر حقيق بالإجابة، فما من أحد يدعو بمثل هذا الدعاء عند القبر، إلا حصل له نور كنوره وعلم كعلمه وفهم كفهمه وإقبال كإقباله، فما بقي للنبي ﷺ إذاً ما يمتاز به عن سائر البشر.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

---

(١) الذخائر [ص ٢١٣].

(٢) شفاء الفؤاد [ص ١١٨ - ١١٩].

فصل:

التعلق بالنسب الشريف

ومما احتالوا به على الناس أيضاً دعواهم حب آل بيت الرسول ﷺ وتعظيمهم، وهي دعوى كسابقتها، الغرض منها تعظيم أنفسهم والغلو في أشخاصهم، بل هذه الدعوى أقرب لحصول المطلوب، إذ منهم من ينتسب حقيقة إلى النسب الشريف، ومنهم من يدعي ذلك وهو كاذب في دعواه.

وقد سبقهم إلى هذه الدعوى إخوانهم من الشيعة والرافضة، كما سبق ذكره، فهم على آثارهم مقتدون.

ومحبة آل البيت وموالاتهم وتعظيمهم، من غير غلو ولا إطراء، من جملة العقائد المتفق عليها بين أهل السنة، وإنما خالف في ذلك فرقتان:

إحداهما: فرقة غلت فيهم فادعت فيهم العصمة وغير ذلك، وهم الشيعة.

والأخرى: فرقة ناصبتهم العداء واتخذت بغضهم ديناً وقربى، وهم الناصبة.

وأما الفرقة الناجية، أهل السنة والجماعة، فمذهبهم وسط بين الفريقين، لم يغلوا فيهم، ولم يقصروا في حقهم، وهو مذهبهم في سائر الأمور، المذهب الوسط العدل، كما أخبر الله تعالى عنهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وذكر شيخ الإسلام من أصول اعتقاد أهل السنة، قال: «ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ، حيث قال، يوم غدير خم «أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي».

وقال أيضاً للعباس عمه، وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم،

وهذه إرادة شرعية أمرية، بمعنى أن الله يأمرهن بذلك ويحضهن عليه، كما قال سبحانه في عموم المؤمنين ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: ٢٦]، ونحوها من الآيات وقال تعالى محذراً إياهن من اقتراف الفواحش ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وقد صح أن النبي ﷺ أنذر أقرب الناس إليه فقال«يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً »[١].

وصح عنه ﷺ أنه قال: « وأيم الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها »[٢].

فأعلمهم أن قرابتهم لا تغني عنهم من الله شيئاً إن عصوه وتعدوا حدوده.

وصح عنه أيضاً أنه قال « إن آل أبي، يعني فلاناً، ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين »[٣].

زاد البخاري «ولكن لهم رحم أبلها ببلالها» يعني أصلها بصلتها.

وقد أطال الحافظ في الفتح[٤] في تعيين المبهم في قوله: « آل أبي» ورجح أنه « آل أبي طالب » كما قاله ابن العربي، وأن الراوي تعمد إبهامه.

قال النووي في شرح مسلم "معناه: إنما وليي من كان صالحاً، وإن بعد نسبه مني، وليس وليي من كان غير صالح، وإن كان نسبه قريباً"[٥].

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [١/٥٢].
(٢) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [٢/١٨٦].
(٣) رواه البخاري [١٠/٤١٩] ومسلم [٢١٥].
(٤) فتح الباري [١٠/٤٢٠]
(٥) شرح مسلم [٣/٨٨]

وقال الحافظ "وقد وقع في شرح المشكاة: المعنى: أني لا أوالي أحداً بالقرابة، وإنما أحب الله تعالى لما له من الحق الواجب على العباد، وأحب صالح المؤمنين لوجه الله تعالى، وأوالي من أوالي بالإيمان والصلاح سواء كان من ذوي رحم أو لا، ولكن أرعى لذوي الرحم حقهم لصلة الرحم. انتهى وهو كلام منقح" اهـ.

وقد دل القرآن على أن الولاية إنما تحصل بالإيمان والاتباع، كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

قال ابن جرير في تفسيره "إن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته ﴿ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾، يعني: الذين سلكوا طريقه ومنهاجه، فوحدوا الله مخلصين له الدين، وسنوا سنته، وشرعوا شرائعه، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به"(١).

ولما شفع نوح عليه السلام في ابنه، وقال ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾، رد الله تعالى شفاعته وقال ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي "ليس هو من أهل ولايتك، ولا ممن وعدتك أن أنجي من أهلك" (٢).

(١) تفسير الطبري [٤٩٧/٦].

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره [٣٤٥/١٥] بإسناده عن الضحاك، وروى نحوه عن سعيد بن جبير وعكرمة، واختاره ابن جرير.

قلت: وآل بيت الرسول ﷺ فيهم الصالحون الأتقياء من العلماء والعباد، فهؤلاء أولياؤه وأحباؤه، وفيهم العصاة المذنبون المقارفون للبدع والكبائر، بل فيهم من تدنس ببدع الرفض والاعتزال والقدر والتصوف ونحوها، وهؤلاء ليسوا له بأولياء ولا أحباء.

والأحاديث الواردة في بيان فضلهم والتنويه بذكرهم والوصاية بهم لا تعني هؤلاء وأضرابهم من المخالفين.

* وأصحها حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خماً، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال« أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به»، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال«وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي».ثم عيَّن زيد بن أرقم المراد بأهل بيته، فقال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس(١).

ورواه الترمذي من وجه آخر من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» (٢).

* ومنها حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول « يا أيها الناس، إني

(١) رواه مسلم [٢٤٠٨].

(٢) سنن الترمذي [٦٦٣/٥]. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي »[١].

قال شيخ الإسلام، بعد أن ذكر حديث زيد بن أرقم "وهذا مما انفرد به مسلم، ولم يروه البخاري، وقد رواه الترمذي وزاد فيه « وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ». وقد طعن غير واحد من الحفاظ في هذه الزيادة، وقال: إنها ليست من الحديث والذين اعتقدوا صحتها قالوا: إنما يدل على أن مجموع العترة الذين هم بنو هاشم لا يتفقون على ضلالة.

والحديث الذي في مسلم، إذا كان النبي ﷺ قد قاله، فليس فيه إلا الوصية باتباع كتاب الله، وهو لم يأمر باتباع العترة، ولكن قال: أذكركم الله في أهل بيتي. وتذكير الأمة بهم يقتضي أن يذكروا ما تقدم الأمر به قبل ذلك من إعطائهم حقوقهم، والامتناع من ظلمهم، وهذا أمر قد تقدم بيانه قبل غدير خم"[٢].

قلت: وللإمام العلامة، صديق حسن خان القنوجي، وهو من السادة العترة المنتمين إلى النسب الشريف، كلام نفيس في بيان معنى هذه الأحاديث، ومن هم آل البيت المعنيون، قال رحمه الله ما نصه ((والمراد بالتذكير فيهم، حفظ رتبتهم في الإسلام، وتعظيمهم وحبهم في الدين وصون عظيم عزهم في الأمة، وتقديمهم على غيرهم في المجلس والكلام والخطاب والمشي والقعود والقيام، وبذل الأموال لهم، ونصرتهم في مقابلة أعدائهم، والتمسك بهم إن كانوا أهل العلم والتقوى. ويكفي العلماء الأتقياء كونهم عالمين متقين لله، وليست فضيلة العلم والتقوى بأقل من فضيلة أخرى)).

(١) رواه الترمذي [٦٦٢/٥] وحسنه، وفي إسناده زيد بن الحسن الأنماطي، قال عنه أبو حاتم: منكر الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات. انظر التهذيب [٤٠٦/٣].

(٢) انظر مختصر منهاج السنة [٧٤٣].

وقال أيضاً في شرح حديث جابر رضي الله عنه في الوصاية بأهل البيت ((والمراد بهم من هو على طريقة الرسول ﷺ وسمته ودله وهديه، وأما من عاد منهم مبتدعاً في الدين، فالحديث لا يشمله.

وكم من رجال ينسبونهم إليه ﷺ في اتحاد الطين، قد خرجوا من نسبة الدين، ودخلوا في عداد المنتحلين والغالين والجاهلين، وسلكوا سبيل المبتدعين المشركين، كالسادة الرافضة، والخارجة والمبتدعة ونحوهم.

فليسوا هؤلاء مصداق هذا الحديث أصلاً، وإن صحت نسبتهم الطينية إليه ﷺ، فقد فارقوه في النسبة الدينية)).

إلى أن قال: ((بقي هنا الكلام في أن المراد بالعترة وأهل البيت، وما في معناهما، هل الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، أم من يكون منهم إلى قيام الساعة من بني فاطمة عليها السلام ؟

فالجمهور على أن المراد جميع أولاده ﷺ إلى آخر الدهر.

وعندي أن المراد بهم: الموجودون منهم في عصر النبوة أولاً بالذات، ولكن يدخل فيهم أيضاً من وجد بعدهم من السادة القادة إلى العلم والعبادة، كالأئمة الاثني عشر من العترة، وبعض العلماء الصلحاء الأتقياء، الماشين على طريقة النبي ﷺ تبعاً وبالعرض، ورحمة الله تعالى أوسع من ذلك.

وليس الحديث مطلقاً في كل من هو من نسل فاطمة رضي الله عنها، سواء كان رافضياً أو خارجياً أو معتزلياً أو زيدياً أو إمامياً أو قدرياً أو مرجياً أو مبتدعاً أو مشركاً أو ملحداً أو داعية إلى بدعة من البدع.

وأما قول بعض الصوفية: إن السادات كلهم ناجون، فقول لا يساعده نقل ولا عقل، بل حالهم حال سائر الأمة في العذاب والثواب، بل لهم العذاب المضاعف على فعل المنكرات، لأن التعزير على قدر الشرافة.

قال العلامة الشوكاني رحمه الله في " الفتح الرباني"، في جواب ما قيل، من أن العصاة من أهل البيت لا يعاقبون على ما يرتكبونه من الذنوب، بل هم من أهل الجنة على كل حال تكريماً وتشريفاً، هل ذلك صحيح أم لا ؟

أقول: لاشك ولا ريب، أن أهل هذا البيت المطهر لهم من المزايا والخصائص والمناقب ما ليس لغيرهم. وقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية شاهدة لهم بما خصهم الله به من التشريف والتكريم، والتبجيل والتعظيم.

وأما القول برفع العقوبات عن عصاتهم، وأنهم لا يخاطبون بما اقترفوه من المآثم، ولا يطالبون بما جنوه من العظائم، فهذه مقالة باطلة، ليس عليها أثارة من علم، ولم يصح في ذلك عن الله، ولا عن رسوله ﷺ حرف واحد.

وجميع ما أورده علماء السوء، المتقربون إلى المتعلقين بالرياسات من أهل هذا البيت الشريف، فهو إما باطل موضوع، أو خارج عن محل النزاع. بل القرآن أعدل شاهد، وأصدق دليل على رد قول كل مكابر جاحد، فإنه قال عز وجل في نساء النبي ﷺ ﴿ يَا نِسَآءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾.

وليس ذلك إلا لما لهن من رفعة القدر وشرافة المحل، بالقرب من رسول الله ﷺ .

وذريته الأطهار هم أحق منهن بهذا المضمار، فإنهم أقرب إلى رسول الله ﷺ وأشرف قدراً وأعلى محلاً وأكرم عنصراً وأفخم ذكراً.

ولو كان الأمر كما زعمه هذا الزاعم، لم يكن لقوله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ ﴾ معنى، ولا كثير فائدة.

وإذا كان المصطفى ﷺ يقول لفاطمة البتول، التي هي بضعة منه يغضبه ما

يغضبها، ويرضيه ما يرضيها: يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً. فليت شعري من هذا من أولادها الذي خصه الله بما لم يخصها به ورفعه إلى درجة قصرت هي عنها ؟

فأبعد الله علماء السوء وقلل عددهم. فإن العاصين من أهل البيت الشريف إذا لم يكونوا مستحقين على معصية مضاعفة العقوبة، فأقل الأحوال أن يكونوا كسائر الناس. فيا من شرفه الله بهذا النسب، إياك أن تغتر بما ينمقه لك أهل التبديل والتحريف.

انتهى كلامه الشريف، وهو الذي وافقه الكتاب والسنة الصحيحة ولا حجة في غيرهما.

وإنما استرسل في هذا جمع من السادة الجهلة، الذين لهم صحبة من الروافض والشيعة، أو الذين تصوفوا بغير علم، واعتقدوا فيهم ما لم يكن لهم أن يعتقدوه، غلواً منهم في محبة أهل البيت، وسكراً بمودتهم، وأحاديث السكارى تطوى ولا تروى.

اللهم إنك جعلتنا من ذرية نبيك ﷺ ، فارحم علينا[1]، واستر عوراتنا وآمن روعاتنا واغفر لنا إنك أنت التواب الرحيم» اهـ[2].

قلت: وما ذكره هذا السيد الإمام هو قول كافة أهل العلم من العترة وغيرهم، من المتبعين لمذهب السلف الصالح، وهم أحق بمحبة الرسول ﷺ وتعظيمه وولايته، وأما من شذ عنهم من المخالفين، من العترة وغيرهم، فليسوا من ذلك في ورد ولا صدر.

---

(١) كذا في النسخة المطبوعة.

(٢) انظر الدين الخالص [٣/٥٠٩– ٥١٦].

والعجب ممن يدعي محبة آل البيت وتعظيمهم وولايتهم، ثم يقصر ذلك على المخالفين منهم دون غيرهم، فما الذي تراه أوجب تخصيص هؤلاء بالمحبة والتعظيم والتقليد، دون الآخرين ؟

ثم لا يكتفون بذلك، بل قد يعادونهم ويبغضونهم ويتبرءون منهم، فأين المحبة والتعظيم للرسول، ولآل بيت الرسول ﷺ ؟

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

المبحث الثاني

حياة الأنبياء في البرزخ

من أعظم شبهات المخالفين التي احتالوا بها على الناس وشبهوا بها عليهم، حياة الأنبياء في قبورهم، حيث زعموا أنها حياة كاملة لم تنقطع إلا بموت عارض ثم عادت إليهم كما كانت، فهم أحياء ليسوا أمواتاً، ورتبوا على ذلك الزعم جملة من الأحكام.

منها: أن زيارة قبورهم زيارة لهم في الحقيقة.

ومنها: استحباب، بل وجوب، شد الرحل إليهم وقصدهم بالسفر، وأنه من أعظم القربات.

ومنها: تبليغهم السلام مشافهة لأنهم يسمعونه ويعقلونه ويعلمون بمجيء الزائرين إليهم ووقوفهم وأنهم يعلمون أكثر من علم الأحياء، خاصة النبي ﷺ الذي يعلم النيات والعزائم والخطرات.

ومنها: وهو المقصود الأعظم من ذلك الزعم: مشروعية الاستشفاع بهم والتوسل بهم واستغاثتهم ودعائهم وسؤالهم سائر الحاجات والمطالب، حتى العفو عن الذنوب ومغفرة العيوب والعتق من النيران ودخول الجنان.

* قال المخالف " إن أرواح الأنبياء لا تفارقهم بعد موتهم فهي مردودة عليهم، ولا تخرج عن أجسادهم التي لا تبلى"[1].

* وقال: "معنى «رد الله عليَّ روحي» يعني: رد عليَّ نطقي لأنه ﷺ حي على الدوام وروحه لا تفارقه أبداً، لما صح أن الأنبياء أحياء في قبورهم.

---

(١) شفاء الفؤاد [ص ٢٨].

وقوله ﷺ «حتى أرد عليه السلام»: هذا ظاهر في استمرار حياته لاستحالة أن يخلو الوجود كله من أحد يسلم عليه" اهـ[1].

* وقال: "وعلم من تلك الأحاديث أيضاً أنه ﷺ حي على الدوام، إذ من المحال العادي أن يخلو الوجود كله عن واحد يسلم عليه في ليل أو نهار"[2].

* وقال: "وقد نظر بعض أئمتنا إلى أن حياته ﷺ امتازت بأنها تقتضي إثباتها حتى في بعض أحكام الدنيا..." إلى أن قال: "والموت الواقع له غير مستمر، لعود الحياة الكاملة له واستمرارها" [3].

* وقال: "وإنما أطلت الكلام في هذا المبحث لأن فيه إتحافاً عظيماً للزائر الذي يقف بين يدي رسول الله ﷺ وهو يعلم أنه حي يسمع صوته وتوسله وشغفه به وسؤاله منه أن يشفع له إلى ربه حتى يرضى عنه ويعطيه ما يحب من خيري الدنيا والآخرة" [4].

* وقال: "لا فرق بين موته ﷺ وحياته في مشاهدته لأمته ومعرفة أحوالهم ونياتهم وعزائمهم وخواطرهم، وذلك عندي جلي لا خفاء فيه" [5].

* وقال في زيارة قبور الأنبياء: "فإذا جاء إليهم فليتصف بالذل والانكسار والمسكنة ... ثم يتوسل إلى الله بهم في قضاء مآربه ومغفرة ذنوبه ويستغيث بهم ويطلب حوائجه منهم ويجزم بالإجابة ببركتهم، ويقوى حسن ظنه في ذلك... فإنهم السادة الكرام، والكرام لا يردون من سألهم ولا من توسل بهم ولا من قصدهم ولا من لجأ إليهم ...

وأما في زيارة سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وسلامه فكل ما ذكر

(١) الذخائر [ص ١٣٤].
(٢) شفاء الفؤاد [ص ١٣٩].
(٣) شفاء الفؤاد [ص ١٤٠].
(٤) شفاء الفؤاد [ص ١٤٤].
(٥) شفاء الفؤاد [ص ٧٩].

يزيد أضعافه أعني في الانكسار والذلة والمسكنة... فمن توسل به أو استغاث به أو طلب حوائجه منه فلا يرد ولا يخيب لما شهدت به المعاينة والآثار..." إلى أن قال: "ومن اعتقد خلاف ذلك فهو محروم" اهـ[1].

قلت: والأمر كما ترى، بدأوا بشبهة الحياة الكاملة للأنبياء واستمرارها في قبورهم، ثم وصل بهم الحال إلى دعائهم واستغاثتهم وسؤالهم من دون الله، إذ هو المقصود الأساس من كثرة القيل والقال وتطويل الكلام وتكراره، وحشد النصوص والإكثار من النقول، وهي مع تحريفها ولي أعناقها لا تدل بحال من الأحوال على ما ذهبوا إليه وقصدوه، كما سترى.

ومن جملة ما استدلوا به على تلك الحياة الكاملة المزعومة:

١ - حديث « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »[2].

٢ - وحديث « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون »[3].

٣ - وحديث « مررت بموسى ليلة أسرى بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره »[3].

٤ - وحديث «رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي... وإذا عيسى قائم يصلي... وإذا إبراهيم قائم يصلي»[3].

٥ - وحديث «ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام»[4].

٦ - وحديث « من صلى عليَّ عند قبري سمعته، ومن صلى عليَّ من بعيد أعلمته »[5].

(١) شفاء الفؤاد [ص ٩٧-٩٨].
(٢) شفاء الفؤاد [ص ١٣٦].
(٣) شفاء الفؤاد [ص ١٤٠].
(٤) شفاء الفؤاد [ص ١٣٥].
(٥) شفاء الفؤاد [ص ١٣٤].

٧ – واستدلوا بالقياس على حياة الشهداء الذين قال الله عز وجل فيهم ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].(١)

قلت: هذا أكثر ما استدلوا به وأكبر ما عوَّلوا عليه في شبهتهم التي شغبوا بها، وقد تتابع المخالفون على إيرادها خلفاً عن سلف وصاغراً عن صاغر، وهي مع التسليم بالمعنى الذي حرَّفوه وصرفوها إليه، ليس فيها أدنى إشارة، ولو من بعيد، إلى إباحة سؤالهم واستغاثتهم والتوسل بهم وطلب الشفاعة منهم، كما هو ظاهر.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(١) شفاء الفؤاد [ص ٢٨].

كشف الشبهة

قلت: ولنشرع الآن في مناقشة شبهات المخالفين وتفنيدها، والكلام على ذلك ينتظم في ست مسائل:

الأولى: تعلق أرواح بني آدم بأبدانها في البرزخ.

الثانية: مستقر الأرواح في الحياة البرزخية:

أ – أرواح الشهداء.

ب– أرواح سائر المؤمنين.

ج– أرواح الأنبياء *عليهم السلام*.

الثالثة: تخريج الأحاديث الواردة في الباب.

الرابعة: شرح الأحاديث الواردة في الباب.

الخامسة: بيان معنى النصوص المتقدمة في ضوء أدلة الشرع المحكمة.

السادسة: تحريم دعاء الأنبياء واستغاثتهم بعد موتهم، ولو فرض أنهم أحياء حياة كاملة.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

المسألة الأولى:

تعلق أرواح بني آدم بأبدانها في البرزخ

ذكر ابن القيم رحمه الله أن لأرواح بني آدم مع أبدانها أنواعاً من التعلق متغايرة الأحوال فقال:

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً[١].

قلت: والذي يعنينا، هنا، النوع الرابع، وهو تعلق الروح بالبدن في البرزخ.

قال ابن القيم "مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين" اهـ[٢].

---

(١) الروح [ص ٦٥].

(٢) الروح [ص ٧٦].

وقال ابن رجب: "حياة البرزخ ليست حياة تامة مستقلة كحياة الدنيا وكالحياة الآخرة بعد البعث، وإنما فيها نوع اتصال، بحيث يحصل بذلك شعور البدن وإحساس بالنعيم والعذاب وغيرهما، وليست هي حياة تامة حتى يكون انفصال الروح به موتاً تاماً، وإنما هو شبيه بانفصال روح النائم عنه ورجوعها إليه، فإن ذلك يسمى موتاً وحياة كما كان النبي ﷺ يقول إذا استيقظ من منامه « الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور »[1]، وسماه الله تعالى وفاة، لقوله تعالى ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ ﴾ [الزمر: ٤٢]، مع هذا فلا ينافي ذلك أن يكون النائم حياً، وكذلك اتصال روح الميت ببدنه وانفصالها عنه لا يوجب أن يصير للميت حياة مطلقة" اهـ[2].

قلت: والمتحصل أن الموت هو مفارقة الروح للبدن، وهي مفارقة لا تمنع الاتصال في بعض الأحيان بكيفية لا نعلمها، ثم يكون النعيم أو العذاب، وهذه هي حياة البرزخ، وهي ليست حياة مطلقة كحياة الدنيا ولا كالحياة بعد البعث. وسيأتي تفصيل هذا الإجمال في المسألة التالية.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(١) رواه البخاري [ح ٦٣١٢].

(٢) أهوال القبور [ص ١٠٥-١٠٦].

المسألة الثانية:

مستقر الأرواح في الحياة البرزخية

قال ابن القيم "هذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس واختلفوا فيها، وهي إنما تتلقى من السمع فقط، واختلف في ذلك:

فقال قائلون: أرواح المؤمنين عند الله في الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء، إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين..."[1] ثم استطرد ابن القيم في ذكر الأقوال والمذاهب في مصير الأرواح ومستقرها بعد الموت، وأنا ألخص هنا ما ذكره هو وابن رجب رحمهما الله تعالى:

أ – أرواح الشهداء:

* وهي في الجنة في جوف طير خضر، ما لم يحبسهم عنها كبيرة أو دَيْن، والدليل على ذلك:

١ – حديث ابن مسعود ﵁: أن أصحاب النبي ﷺ سألوه عن هذه الآية ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. فقال ﷺ « أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا ».[2]

(١) الروح [ص ١٣٣].

(٢) أخرجه مسلم [ح ١٨٨٧].

٢ – حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ عنا إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا ينكلوا عن الحرب ولا يزهدوا في الجهاد ؟ قال: فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا ﴾ الآية »[1].

٣ – حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال « أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة »[2].

* وروي عن مجاهد أنه قال: ليس الشهداء في الجنة ولكنهم يرزقون منها. ويستدل عليه بحديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً »[3].

قال ابن القيم: "وهذا لا ينافي كونهم في الجنة فإن ذلك النهر من الجنة، ورزقهم يخرج عليهم من الجنة، فهم في الجنة وإن لم يصيروا إلى مقاعدهم منها. فمجاهد نفى الدخول الكامل من كل وجه"[4].

وقال ابن رجب: "لعل المراد بالشهداء هنا من هو شهيد من غير قتل في سبيل الله"[5].

ب – أرواح سائر المؤمنين، سوى الشهداء:

* وهي في الجنة، على قول الجمهور، ما لم يحبسهم عنها كبيرة أو دين، بدليل:

(١) رواه أحمد [١/٢٦٦]، وأبو داود [٢٥٢٠].

(٢) رواه البخاري [٦/٢٥٨/ح٣١٥٩].

(٣) رواه أحمد [١/٢٦٦] ، والحاكم [٢/٧٤].

(٤) الروح [ص ١٤٤].

(٥) أهوال القبور [ص ١٣٠].

١ – قول الله تعالى ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ إلى قوله ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٣–٨٩]. حيث جعل الله تعالى كل ذلك متعقباً للاحتضار والموت.

٢ – قوله تعالى ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧–٣٠]. وهذا على تأويل من تأول ذلك عند الاحتضار.

٣ – حديث كعب بن مالك عن النبي ﷺ قال: « نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه »[1]. والنسمة هنا أي: الروح، يدل عليه قوله: « حتى يرجعه الله إلى جسده ».

ومعنى "يعلق"، بالفتح والضم، أي: يأكل العلقة. والعلوق هو الأكل والرعي، وأصل اللفظة من التعلق، وهو ما يعلق القلب والنفس من الغذاء.

فإن قيل: ما الفرق بين أرواح الشهداء وأرواح غيرهم من المؤمنين ؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن أرواح الشهداء تخلق لها أجساد، وهي الطير التي تكون هذه الأرواح في حواصلها ليكمل بذلك نعيمها ويكون أكمل من نعيم الأرواح المجردة عن الأجساد فإن الشهداء بذلوا أجسادهم للقتل في سبيل الله فعوضوا عنها بهذه الأجساد في البرزخ.

الثاني: أنه لا يلزم من دخول الجميع الجنة وتنعمهم فيها بالأكل ونحوه المساواة في النعيم، بل نعيم الشهداء أكمل، كما يدل عليه قوله ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾،

(١) رواه مالك [١/٢٤٠] ، وأحمد [٣/٤٥٥]، والنسائي [٤/١٠٨].

بخلاف غيرهم حيث جاء أنهم يعلقون في شجر الجنة [1].

قلت: الوجه الثالث: أن أرواح الشهداء امتازت بخصوصية القرب من العرش، حيث تأوي طيورها إلى تلك القناديل المعلقة به، وأعظم من ذلك اطلاع ذي العرش المجيد عليهم وخطابه لهم وتخييرهم ما يشتهون من النعيم. والله أعلم.

* وذهب بعض السلف إلى أن أرواح المؤمنين على أفنية القبور، واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

١ – حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، في صفة قبض روح المؤمن، وجاء فيه قوله ﷺ « فيكتب كتابه في عليين ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فيرد إلى الأرض وتعاد روحه في جسده... » الحديث[2].

٢ – حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة »[3].

٣ – أحاديث السلام على القبور، حيث شرع للزائر أن يقول «السلام عليكم دار قوم مؤمنين»[4] فهي تدل على أن الأرواح بأفنية القبور وإلا لما خوطب الأموات بالسلام.

(١) الروح [ص ١٤٣] ، وأهوال القبور [ص ١٦٥].

(٢) أخرجه أحمد [٤/٢٨٧] وغيره.

(٣) رواه البخاري [ح ١٣٧٩]، ومسلم [ح٢٨٦٦].

(٤) رواه مسلم [ح ٩٧٤] من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومن انتصر لهذا القول ابن عبد البر رحمه الله في كتابه التمهيد[1] واعترض عليه ابن القيم رحمه الله فقال: "وأما من قال: الأرواح على أفنية قبورها، فإن أراد أن هذا أمر لازم لها لا تفارق أفنية القبور أبداً فهذا خطأ ترده نصوص الكتاب والسنة من وجوه كثيرة.

وإن أراد أنها تكون على أفنية القبور وقتاً، أو لها إشراف على قبورها وهي في مقرها، فهذا حق، ولكن لا يقال مستقرها أفنية القبور، فإن عرض مقعد الميت عليه من الجنة أو النار لا يدل على أن الروح مستقرة في فناء القبر دائماً، بل لها إشراف واتصال بالقبر وفنائه، وذلك القدر منها يعرض عليه مقعده، فإن للروح شأناً آخر، تكون في الرفيق الأعلى في أعلى عليين، ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهي في الملأ الأعلى.

وإنما يغلط أكثر الناس في هذا الموضع حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون في غيره ، وهذا غلط محض، فروح رسول الله ﷺ في الرفيق الأعلى دائماً ويردها الله سبحانه إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه.

ودخول روح المؤمن الجنة في البرزخ وتنعمها فيها. ليس هو المقعد الذي أعد له يوم القيامة، فذاك نعيم آخر ومستقر آخر، فإن دخول الجنة التام الكامل إنما يكون بعد البرزخ، ويدل عليه أن منازل الشهداء ودورهم وقصورهم التي أعد الله لهم ليست هي تلك القناديل التي تأوي إليها أرواحهم في البرزخ قطعاً، فهذه مستقرها في البرزخ دون يوم القيامة. ويؤيد ذلك حديث البراء بن عازب رضي الله عنه حيث قال فيه « إن المؤمن إذا فتح له في قبره باب إلى الجنة وقيل له: هذا منزلك فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي »" اهـ[2].

(١) التمهيد [١٤/ ١٠٩].

(٢) الروح [ص ١٤٦ – ١٤٧].

قال ابن القيم: "وأما السلام على أهل القبور وخطابهم فلا يدل على أن أرواحهم ليست في الجنة وأنها على أفنية القبور، فهذا سيد ولد آدم الذي روحه في أعلى عليين مع الرفيق الأعلى ﷺ يُسلّم عليه عند قبره ويرد سلام المسلم عليه" (١). ثم ذكر أن الشهداء كذلك يسلم عليهم مع كون أرواحهم في الجنة تسرح حيث شاءت.

قلت: فقد تبين مما تقدم أن حياة الشهداء في البرزخ لا تنافي موتهم وانقطاعهم عن الحياة الدنيا، وأن بقاء أرواحهم منعمة في الجنة في أجواف طير تسرح فيها حيث شاءت، كما جاء في الآثار الماضية، لا يمنع اتصالها بالبدن وتعلقها به تعلقاً خاصاً لا كتعلقها به قبل الموت، ولا يوم البعث، حين تعاد الأرواح إلى أجسادها.

* والحياة المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، قد جاء تفسيرها بالوحي أيضاً، وهو الحديث المتقدم وفيه قال ﷺ « أرواحهم في جوف طير خضر» فهي ليست في الأجساد بل قد فارقتها وأبدلت أجساداً أخرى في البرزخ، ولذا جاء في آخر الحديث قولهم «نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى».

فهذا هو التفسير المعتمد للآية، إذ هو تفسير الوحي بالوحي، وهو مقدم – بلا شك – على كل قول ورأي سواه من أقوال البشر، وقد جاء من طرق عن ابن مسعود ﵁، أخرج بعضها الإمام مسلم في صحيحه، وفيه أن ابن مسعود ﵁ أجاب من سأله عن هذه الآية بالحديث قال مسروق: سألنا عبد الله – ابن مسعود – عن هذه الآية ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا ﴾ الآية. قال: أما إنا قد سألنا

(١) الروح [ص ١٤٨].

عن ذلك فقال (١) « أرواحهم في جوف طير خضر ...» وساق الحديث (٢). وابن مسعود من أشهر من روي عنه التفسير من الصحابة، واحتج بالحديث في تفسير الآية واكتفى به في جواب السائل.

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله في مقدمة تفسيره أن أحسن طرق التفسير وأصحها أن يفسر القرآن بالقرآن ثم بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، فإذا لم نجد في القرآن ولا في السنة تفسير ما أشكل رجعنا إلى أقوال الصحابة، قال: "فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين وعبد الله بن مسعود ﵁..." اهـ(٣) ويشهد له حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقد تقدم.

قلت: وإنما أطلت في هذا الموضع لأن المخالفين بنوا شبهتهم على هذه الحياة المذكورة في الآية، فزعموا أنها حياة كاملة قاطعة للموت، ثم ركبوا على ذلك جملة من الأقوال الفاسدة والعقائد الزائفة ... وتفسير الآية ينقض ذلك كله ويعارضه من وجوه:

الأول: أنه قال « أرواحهم في جوف طير » فهي إذاً ليست في الأجساد المدفونة في الأرض.

الثاني: أنهم سألوا ربهم أن ترد أرواحهم في أجسادهم، وهذا صريح في أنها قد فارقتها بالموت.

(١) يعني رسول الله ﷺ.

(٢) رواه مسلم [ح ١٨٨٧] وقد تقدم.

(٣) مقدمة تفسير ابن كثير [١/١٢-١٣] ط الشعب. وبنحوه قال ابن تيمية رحمه الله. انظر مجموع الفتاوى [١٤/٣٦٨].

الثالث: انهم تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليقاتلوا في سبيل الله لما رأوا من عظيم ثواب الشهادة، فمنعوا من ذلك، فقد انقطع التكليف وانقطع العمل وما بقي إلا الجزاء، فإذا لم يملكوا هم لأنفسهم نفعاً ولا حياة ولا تصرفاً، مع كرامتهم عند ربهم ووجاهتهم عنده، فكيف يملكون لغيرهم من الخلق جلب منفعة أو دفع مضرة ؟! ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ﴾ [الفرقان: ٣].

ج – أرواح الأنبياء عليهم السلام :

قال ابن رجب رحمه الله: " أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فليس فيهم شك أن أرواحهم عند الله في أعلى عليين.

وقد ثبت في " الصحيح" أن آخر كلمة تكلم بها النبي ﷺ عند موته أن قال: « اللهم الرفيق الأعلى وكررها حتى قبض »[1].

وقال رجل لابن مسعود: قبض رسول الله ﷺ، فأين هو ؟ قال: في الجنة " اهـ[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: "الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت:

فمنها: أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء"[3].

قلت: قد أخبر النبي ﷺ – في حديث الإسراء– عن منازل الأنبياء عليهم السلام، فذكر آدم في السماء الدنيا، ويحي وعيسى في الثانية، ويوسف في

(١) رواه البخاري [٨/١٥٠/ح ٤٤٦٣] ومسلم [٢٤٤٤].

(٢) أهوال القبور [ص ١٢٤]. (٣) الروح [ص ١٦٤].

الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة[1]، هذا هو أصح ما ورد في ذكر منازلهم.

* ويقال في أرواح الأنبياء ما قيل في أرواح المؤمنين والشهداء، أنها في الجنة تنعم فيها، وأنها مع مفارقتها لأبدانها، إلا أن لها اتصالاً بها وتعلقاً لا يعلم كنهه وكيفيته إلا الله سبحانه، وتعاد إلى الأجساد في بعض الأوقات، وهي إعادة لا تنفي عنها الموت ولا توجب لها حياة مماثلة لحياتها قبل الموت، وكذا القول في انفصالها عن أجسادها في البرزخ، ليس هو كمفارقتها لها قبل الموت...

مع الجزم أن حياتهم في البرزخ ونعيمهم أكمل من حياة سائر الشهداء والمؤمنين ونعيمهم. هذا هو الحق الذي ينطق به الوحي والعقل والفطرة، بخلاف ما يزعمه المخالفون من أن حياة الأنبياء في البرزخ من جنس الحياة المعهودة في الدنيا وأنها قطعت عنهم الموت، وشبهوا على الناس بالنصوص السابقة وزعموها أدلة تنصر شبهتهم وتقوي مذهبهم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري [٦/٣٠٢/ح ٣٢٠٧]، ومسلم ح ١٦٤ من حديث مالك بن صعصعة.

المسألة الثالثة:

تخريج الأحاديث الواردة في الباب

الحديث الأول: « إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ».

رواه أحمد [٨/٤] وأبو داود [٦٣٥/١] والنسائي [٩١/٣] وابن ماجه [٣٤٥/١] وابن خزيمة [١١٨/٣] وابن حبان [موارد: ح ٥٥٠] والحاكم [٢٧٨/١].

كلهم من طريق حسين الجعفي عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ .

والحديث رجاله ثقات، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم والنووي في الأذكار [ص٩٧] وابن القيم في جلاء الأفهام [ص٣٢-٣٨] وابن عبد الهادي في الصارم المنكي [ص١٩٩] والألباني في الإرواء [٣٤/١].

وأعله الإمام البخاري في تاريخه [٣٦٥/٥] وأبو حاتم، كما في العلل لابن أبي حاتم [١٩٧/١] والمنذري في الترغيب [٤٩١/١].

قلت: والكلام عن الحديث يطول، والمقصود الإشارة فقط إلى ما قيل فيه، ويمكن الرجوع إلى المصادر المذكورة لمن أراد التفصيل.

الحديث الثاني: « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون ».

رواه البزار [كشف الأستار ١٠١/٣] وأبو يعلى [١٤٧/٦] وابن عدي في الكامل [٧٣٩/٢].

كلهم من طريق المستلم بن سعيد عن الحجاج بن أبي زياد عن ثابت البناني عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ.

قال البزار: "لا نعلم رواه عن ثابت عن أنس إلا الحجاج، ولا عن الحجاج إلا المستلم ولا نعلم روى الحجاج عن ثابت إلا هذا". وقال عنه الذهبي في الميزان [٤٦٠/١] "منكر".

وصححه البيهقي كما ذكر ذلك الحافظ في الفتح [٤٨٧/٦] وسكت هو عليه، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير وصححه المناوي في شرحه. انظر فيض القدير [١٨٤/٣]. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة [ح ٦٢١]. وقال الهيثمي في المجمع [٢١٤/٨]: "رجال أبي يعلى ثقات".

الحديث الثالث: «مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره».

رواه مسلم [ح٢٣٧٥] من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ.

الحديث الرابع: « رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى عليه السلام قائم يصلي، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي، أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم » الحديث.

رواه مسلم [ح١٧٢] من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

الحديث الخامس: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام ».

رواه أحمد [٥٢٧/٢] وأبو داود [٥٣٤/٢]. كلاهما من طريق أبي صخر حميد بن زياد عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ.

وهذا إسناد مقارب، كما قال ابن عبد الهادي في الصارم المنكي [ص١٨٥]، وضعفه المنذري في مختصر السنن [٤٤٧/٢]. وصححه النووي في الأذكار [ص٩٧] وابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم [٦٥٨/٢] وحسنه الألباني في السلسلة الضعيفة [٢٣٧/١].

الحديث السادس: « من صلى عليَّ عند قبري سمعته، ومن صلى عليَّ نائياً أبلغته ».

رواه العقيلي في الضعفاء [١٣٦/٤] من طريق محمد بن مروان السدي عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً.

وهذا إسناد واهٍ. وعلته محمد بن مروان السدي، قال عنه الذهبي في الميزان [٣٢/٤] " تركوه، واتهمه بعضهم بالكذب" ثم ذكر هذا الحديث من منكراته.

وقال العقيلي عن الحديث: لا أصل له. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات [٣٠٢/١]، وتبعه الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة [رقم ١٠١٠].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

المسألة الرابعة:

شرح الأحاديث الواردة في الباب

احتج المخالفون بأحاديث الباب لتقرير بدعتهم، بعد أن سلطوا عليها سهام التحريف والتبديل، وحكموا فيها أفهامهم السقيمة وزعموا أنها توافق مذهبهم الباطل، وليست كذلك، بل ما صح منها فهو موافق للنصوص المحكمة.

* فقوله ﷺ: « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »، هو من إكرام الله تعالى لأنبيائه عليهم السلام بحفظ أجسادهم من البلى بعد موتهم، وهذا لا ينافي موتها الحاصل بمفارقة أرواحها لها، كما أن بقاء الأرواح منعمة في أعلى عليين لا ينفي عن أصحابها الموت، وليس ذلك خاصاً بالأنبياء عليهم السلام.

فقد ذكر جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، حين استخرج أباه عبد الله بن حرام، بعد ستة أشهر من استشهاده في أحد، قال جابر: "فإذا هو كيوم وضعته هُنيَّةً غير أذنه".

وفي رواية قال: "فما أنكرت منه شيئاً إلا شعيرات كن في لحيته مما يلي الأرض"[1]. فبقاء أجساد الشهداء طرية[2] لا ينافي موتهم وانتقالهم من هذه الحياة إلى غيرها، كما تقدم بيانه وتفصيله، وكذا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولذا شرع دفن أجسادهم ومواراتها تحت التراب.

* وقوله ﷺ: « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون » إنما يعني به حياة البرزخ، كما تقدم، فالأرواح في أعلى عليين، ولها اتصال بأجسادها المدفونة تحت الثرى.

---

(١) رواه البخاري [٢١٤/٣] وأبو داود [٥٥٦/٣].

(٢) وأبدى بعض أهل العلم احتمالاً آخر، وهو بلاء أجساد الشهداء بعد مدة، وأن بقاءها يتفاوت حسب حال الشهيد. انظر شرح العقيدة الطحاوية [ص٤٦٣].

قال ابن رجب: "وبعض الأبدان باقية كأجساد الأنبياء، وإنما تفارق أرواحها أجسادها".

وقال ابن القيم: "ومعلوم بالضرورة أن جسده ﷺ في الأرض طري مُطَرّاً... مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى في أعلى عليين مع أرواح الأنبياء". فهذه هي الحياة المعنية لا كما قال المخالف: "إن أرواح الأنبياء لا تفارقهم بعد موتهم فهي مردودة عليهم ولا تخرج عن أجسادها التي لا تبلى".

وهذا القول ظاهر البطلان والسقوط، وهو مع مخالفته الصريحة لمقتضى العقل والنقل، فيه سوء أدب مع مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إذ معناه – كما هو ظاهر – أن أرواحهم تركت منازلها العلية في الرفيق الأعلى لتتحد بالأجساد المدفونة تحت الثرى، ويلزم منه تفضيل آحاد المؤمنين عليهم، إذ ثبت أن أرواحهم طير تعلق في شجر الجنة، وصح أن أرواح شهدائهم في أجواف طير خضر تسرح في الجنة ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، كما تقدم. وحسب هذا القول قبحاً وفساداً أن يؤدي إلى هذا المحذور عقلاً وشرعاً.

* ورؤيته ﷺ للأنبياء ليلة المعراج في منازلهم في السموات ونعته لهم نعت الأشباح هي رؤية أرواحهم، وأما أجسادهم فهي مدفونة في الأرض – بلا شك – ولها اتصال بها، وصلاتهم في قبورهم أثر من ذلك الاتصال، فإما أن يقال إن الأرواح الشريفة في مكانها الدائم هناك في الرفيق الأعلى، إلى يوم البعث، وهي مع ذلك تتصل بالأجساد في القبور فتصلي وترد سلام المسلمين كما قال ابن القيم رحمه الله: "فإن للروح شأناً آخر، تكون في الرفيق الأعلى في أعلى عليين ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام، وهي في الملأ الأعلى.

وإنما يغلط أكثر الناس في هذا الموضع حيث يعتقد أن الروح من جنس ما

يعهد من الأجساد، التي إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون في غيره، وهذا غلط محض..."[١].

ثم قال: "وروح رسول الله ﷺ في الرفيق الأعلى دائماً، ويردها الله سبحانه إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه" اهـ[٢].

وإما أن يقال: إن الأرواح الشريفة في الرفيق الأعلى فإذا سلم المسلم نزلت فاتصلت بأجسادها، ثم عادت إلى مكانها، في لحظة، كما ينزل الملك ويصعد في لحظة، وكذا القول في نزولها للصلاة، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله: "ولا منافاة بين رؤيته – ﷺ – لموسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره، ورؤيته في السماء، لأن أمر الأرواح من جنس أمر الملائكة، في اللحظة الواحدة تصعد وتهبط كالملك، ليست في ذلك كالبدن"[٣].

قلت: والقولان متقاربان ولا تعارض بينهما، "وهذه أمور لا يستطاع على تكييفها"، "وليس هذا موضع نظر ولا قياس، وإنما نسلم فيه لما صح من الخبر" كما قال ابن عبد البر[٤].

وقال ابن رجب رحمه الله: "فإنه يسلم على قبور الأنبياء والشهداء، وأرواحهم في أعلى عليين، ولكن لها مع ذلك اتصال سريع بالجسد، ولا يعلم كنه ذلك وكيفيته على الحقيقة إلا الله عز وجل. ويشهد لذلك الأحاديث المرفوعة والموقوفة على الصحابة، كأبي الدرداء وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، في أن النائم يعرج بروحه إلى العرش مع تعلقها ببدنه وسرعة عودها إليه عند استيقاظه. فروح الموتى المتجردة عن أبدانهم أولى بعروجها إلى السماء وعودها إلى القبر في مثل تلك السرعة، والله أعلم" اهـ[٥].

(١) الروح [ص ١٤٧].

(٢) الروح [ص ١٤٧].

(٣) مجموع الفتاوى [٤/٣٢٩].

(٤) التمهيد [٢٠/٢٤٠]، [١١/٦٤].

(٥) أحوال القبور [ص ١٥٠].

فهذه أقوال الأئمة – كما رأيت – متفقة على أن أرواح الأنبياء قد فارقت أبدانها بالموت وأنها في منازلها ثم في أعلى عليين، وأنها تتصل بأبدانها بما لا يدرك كنهه الأحياء.

* وأما صلاة الأنبياء في القبور، فهي كما قال شيخ الإسلام: "وهذه الصلاة ونحوها مما يتمتع بها الميت ويتنعم بها كما يتنعم أهل الجنة بالتسبيح، فإنهم يلهمون التسبيح كما يلهم الناس في الدنيا النفس، فهذا ليس من عمل التكليف الذي يطلب له ثواب منفصل، بل نفس هذا العمل هو من النعيم الذي تتنعم به الأنفس وتتلذذ به" اهـ(١).

وقوله ﷺ: « ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام» هو من هذا الباب، فروحه الشريفة في الرفيق الأعلى فوق منازل الأنبياء والمرسلين، وهي مع ذلك ترد سلام المسلّمين.

وقوله ﷺ: « رد الله عليَّ روحي » لا يلزم منه انقطاع الموت والعود إلى الحياة المعهودة، كما زعم المخالف، بل هو مثل قوله ﷺ في حديث البراء بن عازب الطويل، في وصف الموت وقبض الروح، قال: « فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟...» الحديث(٢)، فهذه الإعادة لم تقطع الموت عن الميت ولم توجب له العود إلى الحياة، فكذلك ردها عند السلام.

وقد تقدم قول ابن القيم – رحمه الله – عن إعادة الروح إلى الميت في قبره، وأنها إعادة، غير الإعادة المألوفة في الدنيا، ليسأل ويمتحن في قبره، قال: "وهذا لا يدل على حياة مستقرة، وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن وتعلق به" (٣).

وتقدم قوله – أيضاً – عن روح النبي ﷺ بأنها – قطعاً – في الرفيق الأعلى

(١) مجموع الفتاوى [٤/٣٣٠].

(٢) رواه أحمد والنسائي وأبو داود. وقد تقدم.

(٣) الروح [ص ٦٤–٦٥].

في أعلى عليين مع أرواح الأنبياء، وأن لها اتصالاً بالبدن في القبر وإشرافاً عليه وتعلقاً به بحيث يصلي في قبره ويرد سلام من يسلم عليه، وهي في الرفيق الأعلى، قال: "ولا تنافي بين الأمرين، فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان" (١).

وقال أيضاً: "فإن للروح شأناً آخر، تكون في الرفيق الأعلى في أعلى عليين، ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام، وهي في الملأ الأعلى. وإنما يغلط أكثر الناس في هذا الموضع حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجساد التي إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون في غيره، وهذا غلط محض، بل الروح تكون فوق السموات في أعلى عليين وترد إلى القبر فترد السلام وتعلم بالمسلّم وهي في مكانها هناك. وروح رسول الله ﷺ في الرفيق الأعلى دائماً ويردها الله سبحانه إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه" اهـ(٢).

إذاً فالقول بأن روحه ﷺ تركت مكانها في الرفيق الأعلى واتحدت بالبدن الشريف في القبر واستمرت على ذلك في غاية الفساد، وهو مخالف للحس والعقل مع مخالفته الصريحة للنص. وفيه من التنقص لمقام النبي ﷺ، كما سبق بيانه، إذ يلزم منه تفضيل الأنبياء والشهداء وسائر المؤمنين المنعمين في الجنة عليه ﷺ، وعلو أرواحهم على روحه، وهو باطل شرعاً وقدراً، بل روحه الشريفة في الرفيق الأعلى دائماً ويردها الله سبحانه وتعالى إلى القبر فترد السلام على المسلّمين عليه، كما قال المحققون من أهل العلم، لا أنها مستقرة في القبر.

* وقوله ﷺ: « إلا رد الله عليَّ روحي » يتعارض مع قول المخالف: "وروحه لا تفارقه أبداً"، إذ معناه أن الروح مفارقة وإنما ترد وقت السلام، كما

(١) الروح [ص ٦٦–٦٧].

(٢) الروح [ص ١٤٧].

هو ظاهر. وأما تأويله لفظ "الروح" في قوله: « رد الله عليَّ روحي » إلى "النطق"، فقد ذهب إليه فراراً من الإشكال الوارد عليه من فهمه لحديث « أحياء في قبورهم » حيث زعم أن الحياة المذكورة هنا هي الحياة المعهودة، واستلزم ذلك عنده رد الروح إليه ﷺ واستمرارها في جسده كما كان في الدنيا، فلما أورد عليه حديث « رد عليَّ روحي » اضطر إلى تحريفه إلى معنى: "رد عليَّ نطقي" لكنه لم يثبت على هذا التحريف، إذ جعل رد الروح إليه وقت السلام مستلزماً لاستمرار حياته، وعلل ذلك بقوله: "لاستحالة أن يخلو الوجود كله من أحد يسلم عليه". وهذا يعني أن الروح هنا على معناها الظاهر، لا بمعنى النطق، كما زعم أولاً.

ومما يدل على سقوط هذا القول وتناقضه، قولهم: "إن النطق من لازمه وجود الروح، كما أن الروح من لازمه وجود النطق" (١) ، فإذا كانا متلازمين وجوداً وعدماً، بطل التأويل من أصله، لأن المخالفين لم يلجأوا إليه إلا فراراً من الإشكال.

وقد نبه الحافظ – رحمه الله – إلى بعض الإشكالات الواردة على هذا القول، فبعد أن ذكر الأدلة التي استندوا إليها، كحديث « الأنبياء أحياء في قبورهم » والأحاديث في رؤيته ﷺ لبعض الأنبياء يصلون في قبورهم ورؤيتهم في السموات... قال: "ومما يشكل على ما تقدم ما أخرجه أبو داود..." فذكر حديث رد عليَّ روحي، ثم قال: "ووجه الإشكال فيه أن ظاهره أن عود الروح إلى الجسد يقتضي انفصالها عنه، وهو الموت، وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة:

أحدها: أن المرد بقوله: « رد الله عليَّ روحي » أن رد روحه كانت سابقة عقب دفنه، لا أنها تعاد ثم تنزع ثم تعاد.

(١) انظر فيض القدير [٥/٤٦٧].

الثاني: سلمنا، لكن ليس هو نزع موت، بل لا مشقة فيه.

الثالث: أن المراد بالروح، الملك الموكل بذلك.

الرابع: المراد بالروح، النطق، فتجوز فيه من جهة خطابنا بما نفهمه.

الخامس: أنه يستغرق في أمور الملأ الأعلى، فإذا سلم عليه رجع إليه فهمه ليجيب من سلم عليه".

قال الحافظ: "وقد استشكل ذلك من جهة أخرى، وهو أنه يستلزم استغراق الزمان كله في ذلك، لاتصال الصلاة والسلام عليه في أقطار الأرض ممن لا يحصى كثرة.

وأجيب بأن أمور الآخرة لا تدرك بالعقل، وأحوال البرزخ أشبه بأحوال الآخرة، والله أعلم" اهـ(١).

قلت: وفي هذه الأجوبة الخمسة نظر، ولا يخلو واحد منها من معارضة للنص أو العقل:

فالأول مضمونه رد روحه ﷺ بعد موته إلى جسده واستمرارها فيه قبل سلام المسلِّم عليه، وهو مخالف لظاهره المقتضي رد الروح بعد السلام لا قبله. ثم هو يتعارض مع النصوص الأخرى المصرحة بكون روحه ﷺ في الرفيق الأعلى فوق أرواح الأنبياء وفوق أرواح المؤمنين والشهداء.

فإن قيل إن رد روحه إلى جسده في القبر واستمرارها يعني عود الحياة الكاملة له، وإن ذلك مقام أرفع ودرجة أعلى ومنزلة أسمى من منازل الآخرين.

فالجواب أن يقال: إن في هذا تنقصاً لمقام سيد البشر ﷺ ، إذ كيف يعقل أن تعود إليه الحياة الكاملة المعهودة التي كان عليها قبل الموت ثم يقر تحت التراب

(١) فتح الباري [٦/٤٨٨].

بينما يتمتع سائر الأحياء بالسير في الأرض والمشي في مناكبها، ويباشر الحكم فيهم والولاية عليهم خلفاؤهم وملوكهم وحكامهم، ورسول الله ﷺ في معزل عن مباشرة شيء من ذلك، مع كونه حياً حياة كحياتهم ؟!

ومعارضة هذا القول لسائر النصوص المصرحة بموت الرسول ﷺ ومفارقة روحه الشريفة ولحوقها بالرفيق الأعلى وتنعمها بالجنة وبقربها من الرب جل وعلا، ظاهرة جلية.

وأما القول الثاني، فهو كالأول في ظهور بطلانه.

والثالث بعيد، لأن التعبير بالروح عن الملك لا دليل عليه، خاصة وقد أضافها إليه فقال « روحي ».

والرابع تقدم الجواب عليه قريباً، وذكرنا أنهم لم يثبتوا عليه.

والخامس، وهو أن معنى الروح: الفهم، لا دليل عليه، ولا يعرف في اللغة إطلاق الروح على الفهم.

والمقصود: أن كلام المخالفين في معنى هذه الأحاديث الواردة في حياة الأنبياء في البرزخ، هو من أفسد ما قيل، والتعارض الذي أوردوه والإشكالات التي أثاروها سببها إجراء القياس فيما لا يعقل كنهه ولا تدرك حقيقته من أمور الغيب، إذ قاسوا حياة البرزخ على الحياة المعهودة في الدنيا، مع اختلاف الحياتين وتباين الدارين، ولو تأملوا في مثل مشاهد محسوس، وهو النوم، وكيف يحصل فيه من العجائب، حيث يعرج بالروح وتنعم أو تعذب، والجسد باقٍ على حاله لم يتأثر ولم يتغير، هذا مع اتحاد الدار، وكذا ما يحصل للميت عند الاحتضار، حيث يرى، وهو بعد في الدنيا، من أمور الغيب، والملائكة وجلوسهم منه على مد البصر ثم تقبض الروح وتوضع في الحنوط وتكفن، ولا يرى أقرب الجالسين من الميت شيئاً من ذلك، ثم ترد الروح إليه في القبر لإقعاده وسؤاله، ثم يفسح قبره

مد البصر، أو يضيق عليه حتى تختلف أضلاعه، ولو كشف قبره لرؤي على حاله الأول كما وضع، لو تأملوا ذلك كله، لتبين لهم فساد قياسهم الذي قاسوه.

ويقبر عشرات من الناس، في قبر واحد، وهم متفاوتون في الثواب والعقاب، بين موسع له في روضة من الجنان، ومضيق عليه في حفرة من النيران، هذا والقبر على حاله لم يتغير منه شيء، فيما يظهر للعيان !!

فكما أننا آمنا بذلك كله وأيقنا به، ونحن لم نره ولم نشعر به، فكذلك يلزمنا في سائر الأخبار، أن نجريها مُجرىً واحداً، بالإيمان واليقين وترك القياس والتخمين.

* فقول المخالف: " إذ من المحال العادي أن يخلو الوجود كله عن واحد يسلم عليه في ليل أو نهار" وجعل ذلك دليلاً على ديمومة حياته ﷺ، إنما بني على ذلك القياس الفاسد، المبني على الفهم السقيم.

فقاس أولاً، رد الروح إليه في قبره عند السلام، على المعهود في هذه الحياة، وجعل ذلك دليلاً على "عود الحياة الكاملة له".

ثم قاس قياساً آخر، فزعم أن تكرار السلام عليه واستغراق الزمان في ذلك، لكثرة المسلّمين عليه واختلافهم في الأقطار، مستلزم لبقاء الروح في الجسد واستمرارها فيه، إذ لا يكاد يفرغ من رد السلام على المسلِّم الأول حتى يصله سلام الآخر فيرد عليه... وهكذا على الدوام، وهذا القياس مبني على المعهود من سنن هذه الحياة الدنيا.

قلت: وليس أدل على فساد هذا القياس وسقوط اعتباره من استلزامه لوازم باطلة لا تخفى على العقلاء، إذ يلزم منه اشتغاله ﷺ برد السلام على المسلمين عليه واستغراق الزمان كله في ذلك، وهو يتعارض صراحة مع قوله ﷺ « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون »، فروحه ﷺ مشغولة أبداً برد السلام عن الصلاة وعن الرفيق الأعلى وعن التنعم بسائر أنواع النعيم الذي أعد له في البرزخ !!

وقد أشار الحافظ ابن حجر من قبل إلى هذا الإشكال حين قال: "وقد استشكل ذلك من جهة أخرى، وهو أنه يستلزم استغراق الزمان كله في ذلك، لاتصال الصلاة والسلام عليه في أقطار الأرض ممن لا يحصى كثرة".

فقوله: "استغراق الزمان كله في ذلك" أي في رد السلام، لا في رد الروح عليه ﷺ، فحسب.

ولعل كثيراً ممن ذهب إلى ذلك القول قد غفل عن هذا الإشكال الذي أشار إليه الحافظ، مع ظهوره ووضوحه، إذ علة رد الروح هو رد السلام كما هو منصوص عليه في الحديث «حتى أرد عليه السلام»، فالقول بأحدهما - وهو رد الروح واستمرارها في الجسد - دون الآخر وهو رد السلام واستمراره على الدوام - تقصير واضح.

وقد أحسن الحافظ - رحمه الله - حين أجاب عن هذا الإشكال بقوله: "وأجيب بأن أمور الآخرة لا تدرك بالعقل، وأحوال البرزخ أشبه بأحوال الآخرة" [1].

قلت: وسبق نحو هذا القول عن ابن عبد البر - رحمه الله - فقال عقب ذكره حديث سماع الميت خفق نعال مشيعيه إذا ولوا عنه،"وهذه أمور لا يستطاع على تكييفها، وإنما فيها الاتباع والتسليم"[2].

وقال أيضاً، بعد أن ذكر الآثار في مصير أرواح الشهداء وأنها في أجواف طير أو كطير "وليس هذا موضع نظر ولا قياس لأن القياس إنما يكون فيما يسوغ فيه الاجتهاد، ولا مدخل للاجتهاد في هذا الباب، وإنما نسلم فيه لما صح من الخبر عمن يجب التسليم له" [3].

---

(١) الفتح [٤٨٨/٦].
(٢) التمهيد [٢٤٠/٢٠].
(٣) التمهيد [٦٤/١١].

وتقدم قول الحافظ ابن رجب - رحمه الله -: "وأما السلام على أهل القبور فلا يدل على استقرار أرواحهم على أفنية قبورهم، فإنه يسلم على قبور الأنبياء والشهداء، وأرواحهم في أعلى عليين، ولكن لها مع ذلك اتصال سريع بالجسد، ولا يعلم كنه ذلك وكيفيته على الحقيقة إلا الله عز وجل" اهـ[1].

* والخلاصة: أن الحياة المذكورة في قوله ﷺ: « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون » إنما هي حياة أرواحهم في البرزخ، وأن مستقرها في أعلى عليين في الرفيق الأعلى، وأنها تنعم بأفضل ما يتنعم به سائر المؤمنين، وبينها تفاضل بحسب منازلها.

وأما الأجساد الشريفة فهي في قبورها، طرية لا تبلى، قد فارقتها الأرواح بالموت، وهي مع ذلك لها اتصال بها، بحيث تصلي في القبور وترد سلام المسلِّم، والله أعلم بكيفية هذه الصلاة وكيفية رد السلام.

وبهذا التحقيق تجتمع النصوص المذكورة كلها ويتفق معناها ولا يختلف، ويزول عنها الإشكال والتعارض.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) أهوال القبور [ص ١٥٠].

المسألة الخامسة:

بيان معنى النصوص المتقدمة في ضوء أدلة الشرع المحكمة

ومما يدل على صحة المعنى الذي اختاره المحققون، دون سائر الأقوال الأخرى، موافقته للنصوص الشرعية المحكمة من الكتاب والسنة.

فقد تواترت الأدلة الشرعية، وضرورات الحس والعقل، على أن الموت حتم واقع على كل البشر بما فيهم الأنبياء والرسل، *عليهم السلام*.

١ – فأما الأدلة من الكتاب العزيز، فهي أكثر من أن تحصى، ومنها العام، كقوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦].

وقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِيْ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [الحج: ٦٦].

ومنها الخاص، كقوله تعالى ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ [البقرة: ١٣٣]. وقوله على لسان مؤمن آل فرعون ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِيْ شَكٍّ مِمَّا جَآءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُوْلاً ﴾ [غافر: ٣٤]. وقوله على لسان خليله إبراهيم *عليه السلام* ﴿ وَالَّذِيْ يُمِيْتُنِيْ ثُمَّ يُحْيِيْنِ ﴾ [الشعراء: ٨١]. وقال سبحانه عن نبيه سليمان *عليه السلام* ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ [سبأ: ١٤]. وقال عن نبيه يحيى *عليه السلام* ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوْتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم: ١٥]

وقال عيسى عليه السلام ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٣] وقال سبحانه لعبده وخاتم رسله نبينا محمد ﷺ ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]. وقال أيضاً ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۞ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥]. وقال ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. إلى غير ذلك من الآيات .

وتأمل قوله سبحانه عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ كيف ذكر الإحياء بعد الموت، ولا يكون إلا يوم البعث كما في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾. وكذا قوله سبحانه عن يحيى عليه السلام ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ ومثله على لسان عيسى عليه السلام، وهو صريح في تنقل الأنبياء في الأطوار الثلاثة، كسائر البشر، وتغاير أحوالهم فيها، حياة ثم موت ثم حياة يوم البعث الآخر. فالقول بأن الأنبياء أحياء في قبورهم حياة كاملة قطعت عنهم الموت، يناقض هذه الآيات مناقضة صريحة ويعارضها معارضة ظاهرة.

* وتدبر قول الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ فقد رد به سبحانه على كفار قريش حين قالوا في رسول الله ﷺ : شاعر نتربص به ريب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بني فلان ؛ فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، فإذا مت فهم ميتون أيضاً فلا شماتة في الإماتة [1].

(١) انظر تفسير القرطبي [٢٨٧/١١].

فلو كان النبي ﷺ باقياً مخلداً، وحياته مستمرة، كما زعم المخالفون، لناسب ذكره في هذا المقام، الذي هو مقام الرد على هؤلاء المشركين المكذبين الشامتين بموته ﷺ ، القائلين: شاعر نتربص به ريب المنون.

لكنه سبحانه عزى نبيه بأمرين: الأول: وقوع الموت على كل من سبقه من البشر، ومنهم الأنبياء والمرسلون، فليس هو ﷺ ببدع من الرسل وسائر البشر بوقوع الموت عليه، فالمعنى كما قال القرطبي رحمه الله " قد مات الأنبياء من قبلك وتولى الله دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك".

الثاني: وقوع الموت على هؤلاء المشركين المكذبين الشامتين، فعلامَ يشمتون ؟ وبم يتربصون ؟ قال ابن كثير رحمه الله "يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى فناء" [1] .وأكده سبحانه وتعالى بقوله في الآية التالية ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾.

* ثم تدبر قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾، واليقين: الموت، فأمره سبحانه بعبادته والاستمرار عليها إلى أن يأتيه الموت.

قال القرطبي – رحمه الله –"والمراد استمرار العبادة مدة حياته، كما قال العبد الصالح ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾" [2] .

قلت: وهو يقتضي التفريق بين حال الأنبياء عليهم السلام قبل الموت، فهم مأمورون بالصلاة وغيرها من العبادات، وحالهم بعد الموت، وقد انقطع عنهم التكليف. ومن ثم كانت صلاتهم في القبور صلاة تنعم لا صلاة عبادة وتكليف، كما تقدم نقله عن شيخ الإسلام [3]. وأما المخالفون فما ثم فرق عندهم بين

(١) تفسير القرآن العظيم [٣٣٥/٥] طبعة الشعب.

(٢) تفسير القرطبي [٦٤/١٠]. (٣) انظر المجموع [٣٣٠/٤].

الحالين، إذ جعلوا حياة الأنبياء مستمرة أبداً لم يطرأ عليها إلا موت عارض. ومن ثم زعموا أن النبي ﷺ يصلي في قبره الصلوات الخمس ويتطهر لها، ويصوم أيضاً ويحج.

قال الهيتمي:

وصوم ثم حج كل عام ... يجوز عليه بل لا يستحيل
ويطهر للصلاة بماء غيب ... ويقضيها بذا ورد الدليل
يصلي في الضريح صلاة خمس ... دواماً لا يمل ولا يميل [1]

٢ – وقد دلت السنة المحكمة على ما دل عليه القرآن:

* ففي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول: « اللهم أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت، أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون » [2].

قلت: فدخل في عموم قوله " الإنس" الأنبياء والمرسلون، ولم يُستثنَ منهم أحد، وهؤلاء المخالفون يزعمون أن الأنبياء لا يزالون أحياء.

* وفي الصحيحين أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون... » الحديث[3]. وهذا صريح في وقوع الموت على الأنبياء عليهم السلام ومن ثم خلف الحي منهم الميت.

---

(١) الذخائر [ص ٤٣-٤٤].

(٢) رواه البخاري [٣٦٨/١٣] ومسلم [ح٢٧١٧].

(٣) رواه البخاري [٤٩٥/٦] ومسلم [ح ١٨٤٢].

* وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إن الله عز وجل إذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي فأهلكها وهو ينظر فأقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره »[1].

قلت: تأمل – رحمك الله –كيف فرق بين الحالين، فقال في الأولى: « قبض نبيها » أي بالموت، وقال في الأخرى « ونبيها حي » يعني الحياة الدنيوية المعهودة، فهذه مقابل تلك، لاكما زعم المخالفون أنهما شيء واحد.

* وروى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً « جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له أجب ربك، قال فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها. فرجع الملك إلى الله تعالى فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني. قال: فرد الله إليه عينه وقال: ارجع إلى عبدي فقل: الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما توارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة. قال: ثم مه ؟ قال: ثم تموت. قال: فالآن من قريب... » الحديث [2].

قلت: قوله: « الحياة تريد ؟ » وقوله: « إن كنت تريد الحياة » صريح في بيان المطلوب، فالحياة هنا هي الحياة المعهودة، ويقابلها الموت، ولذا قال: « ثم تموت » ففرق بينهما. ثم لو كان موسى عليه السلام يعلم أن حياته مستمرة بعد موته كما هي قبله، ما لطم عين ملك الموت، والله أعلم.

* وروى الشيخان أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل » [3].

---

(١) رواه مسلم [ح ٢٢٨٨].

(٢) رواه البخاري [٤٤٠/٦] ومسلم [ح ٢٣٧٢].

(٣) رواه البخاري [١٦/٦] ومسلم [ح ١٨٧٦].

قلت: فيه تصريح بالفرق بين الحالين، القتل والإحياء، ولو كانا شيئاً واحداً كما يزعم المخالفون لما غاير بينهما الرسول ﷺ.

* ومما يؤكد موت الأنبياء واستمرارهم على ذلك، قول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما سأله عن الكتابة عن اليهود، فقال: « أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي ».(1) فقوله ﷺ « لو كان موسى حياً...» مفهومه أنه ميت الآن، وإلا لو كان حياً للزمه الإتيان إلى النبي ﷺ واتباعه، وهذا نص صريح في بيان المقصود وقطع دعوى المخالفين.

بل نقول لو كان موسى وغيره من الأنبياء أحياء الحياة المعهودة للزمهم كلهم بلا استثناء الإتيان إلى النبي ﷺ حين بُعث والإيمان به ونصرته وإعانته، كما نص على ذلك القرآن. قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن كثير في تفسيره: " قال علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بَعَث محمداً وهو حي ليؤمنَن به ولينصرَنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمنُن به ولينصرُنه" اهـ(2).

وفي قصة وفاة النبي محمد ﷺ واضطراب الصحابة وتكذيب بعضهم

(1) رواه أحمد [٣٨٧/٣] والبغوي في شرح السنة [٢٧٠/١] بإسناد ضعيف. لكن له شواهد يتقوى بها. وقد حسنه الألباني في تخريج المشكاة [٦٣/١].

(2) تفسير ابن كثير [٥٦/٢]. طبعة الشعب.

كعمر بن الخطاب رضي الله عنه لموته، من هول المصيبة، حتى ثبتهم الله عز وجل بالصديق أبي بكر فصعد المنبر وقال: أما بعد، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا عليهم قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الآية.

في ذلك أبلغ دليل على وقوع الموت على نبينا محمد ﷺ واستمراره عليه وانقطاع الحياة المعهودة عنه وأن هذا هو فهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ولو فهموا أنه حي وأن موته انقطع عنه ولم يستمر، كما يدعي الخراصون، لما حصل منهم ما حصل ولما قال أبو بكر لما دخل على رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى " والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها" (1).

- قال الحافظ في الفتح في معنى قول أبي بكر رضي الله عنه "لا يجمع الله عليك موتتين": " قيل هو على حقيقته، وأشار بذلك إلى الرد على من زعم انه سيحيا فيقطع أيدي رجال، لأنه لو صح ذلك للزم أن يموت موتة أخرى، فأخبر أنه أكبر على الله من أن يجمع عليه موتتين كما جمعهما على غيره، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وكالذي مر على قرية، وهذا أوضح الأجوبة وأسلمها" (2).

وبالجملة: فلو ذهبنا نتتبع النصوص من الكتاب والسنة لتقرير ما هو ثابت في العقول والفطرة، أن الأنبياء أموات غير أحياء، وأنهم يبعثون كما يبعث سائر الأموات يوم القيامة، لطال بنا المقام، وفيما ذكرناه كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(1) البخاري [١٤٥/٨].

(2) فتح الباري [١١٤/٣].

المسألة السادسة:

تحريم دعاء الأنبياء واستغاثتهم بعد موتهم، ولو فرض أنهم أحياء حياة كاملة

فإذا تقرر أن الأنبياء *عليهم السلام*، عدا عيسى ابن مريم، أموات غير أحياء، وأن حياتهم البرزخية لم تقطع عنهم اسم الموت، كما نصت على ذلك الأدلة المحكمة من الكتاب والسنة، وأن القول بأنهم أحياء حياة كاملة، لم يقطعها إلا موت عارض، ثم رجعوا إلى مثل ما كانوا عليه قبل الموت، هو قول باطل شرعاً وعقلاً.

وأن غاية ما احتج به المخالفون على إثبات مذهبهم الفاسد أن يكون من المتشابه الذي يجب الإيمان به، إن صح، ورده إلى المحكم، كما قال الله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧].

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم »[(١)].

فإننا نقول مع ذلك: إنه على فرض صحة ما ذهبوا إليه في إثبات حياة الأنبياء *عليهم السلام* وأنها من جنس الحياة المعهودة، فإن ذلك لا يبيح دعاءهم ولا استغاثتهم ولا التوسل بهم ولا سؤالهم الشفاعة ولا غيرها من المطالب.

---

(١) رواه البخاري [٨/٢٠٩] ومسلم [ح٢٦٦٥].

والأدلة التي أوردوها واحتجوا بها، بعد تحريف معناها، ليس فيها أدنى إشارة إلى جواز دعائهم وسؤالهم واستغاثتهم، بل غاية ما دلت عليه أنهم أحياء في قبورهم يصلون، فهم عابدون لا معبودون!

ونبينا ﷺ رغب أمته في السلام عليه وأخبرهم أنه يرد عليهم السلام ولم يقل لهم ادعوني واسألوني واستغيثوا بي أستجب لكم!!

وأخبر أن أجسادهم لا تأكلها الأرض، ولم يقل إنها قادرة على إعانة أحد أو إغاثته أو إجابة سؤله!

وقال الله عز وجل عن الشهداء إنهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، فإذا قيل إن الأنبياء كذلك، أو أفضل من ذلك، فغاية ما فيه أنهم عند ربهم يُرزقون، لا أنهم يَرزقون غيرهم ويُعينون ويُغيثون!!

ومن هنا تعلم مبلغ السفه الذي وصل إليه المخالفون حين جوزوا دعاء الأنبياء واستغاثتهم ورجاءهم والالتجاء إليهم، محتجين بمثل هذه النصوص، فوقعوا في محذورين عظيمين.

الأول: تحريفهم للوحي المنزل من رب العالمين وتبديلهم لمعناه، مضاهاة لليهود في تحريفهم للتوراة.

الثاني: وقوعهم في الشرك الصريح بدعاء غير الله واستغاثته وسؤاله، مضاهاة لفعل المشركين الأولين الذين عبدوا الأنبياء والصالحين.

وقد مضى في القسم الأول من هذا الرد بيان حقيقة التوحيد الذي فرضه الله عز وجل على الخلق وبعث به رسله وأنزل به كتبه، وبيان ما يضاده من الشرك، وتبين أن شرك هؤلاء المخالفين قد طغى على شرك الأولين، بما أغنى عن إعادته هنا.

وتأكيداً لما سبق بيانه وتفصيله نقول: إن شرك الأولين لم يقتصر على اتخاذ الأصنام والأشجار والأحجار آلهة من دون الله، بل منهم من كان يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين، وعبادتهم إياهم كانت بدعائهم وسؤالهم واستغاثتهم واتخاذهم شفعاء ووسطاء عند الله.

وهؤلاء المعبودون من دون الله منهم من عبد في حال حياته في مغيبه، كالملائكة والجن وعيسى بن مريم عليه السلام، كما دلت على ذلك الآيات، ومنها:

١ - قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

٢ - قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَآءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً ۝ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾ [الفرقان: ١٧-١٩].

قال ابن كثير رحمه الله: "يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم فقال ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ قال مجاهد: هو عيسى والعزير والملائكة. ﴿فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَآءِ﴾، أي: فيقول تبارك وتعالى للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير

دعوة منكم لهم ؟ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾، أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن براء منهم ومن عبادتهم. ﴿ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾، أي: طال عليهم العمر ﴿ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ﴾، أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك. ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾، أي: فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى" اهـ[1].

٣ – وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قال ابن كثير "قال ابن جريج: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول أعوذ بكبير هذا الوادي، فذلك استمتاعهم، فاعتذروا به يوم القيامة. وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان فيما ذكر: ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم، فيقولون: قد سدنا الإنس والجن" اهـ[2].

إلى غير ذلك من الآيات التي دلت على عبادة المشركين للملائكة والجن وغيرهم من الأحياء الغائبين، وأن عبادتهم إياهم كانت بدعائهم واستعانتهم والاستعاذة بهم والاستشفاع بهم، وهذا هو معنى اتخاذهم إياهم أرباباً وآلهة، لا أنهم كانوا يزعمون أن هؤلاء يخلقون ويرزقون ويحيون ويميتون، كلا بل كان

(١) تفسير ابن كثير [٣١٢/٣].

(٢) تفسير ابن كثير [١٧٦/٢].

المشركون مقرين بأن ذلك لله حق خالص لا يشركه فيه أحد ولا يقدر عليه سواه أحد، كما أخبر الله عنهم في غير ما آية، ومنها قوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨].

وإنما ظنوا فيهم النفع من حيث قربهم من الله ووجاهتهم عنده سبحانه، كالملائكة والأنبياء والصالحين، فاتخذوهم وسطاء وشفعاء يتوسلون بهم إلى الله، كما قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣].

أو لجأوا إليهم خوفاً من شرهم، كما فعلوا مع الجن فاستعاذوا بهم، كما قال تعالى ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦].

هذا ولم تكن عبادتهم لهم ورغبتهم إليهم في كل الأوقات، بل كانوا يلجأون إلى الله تعالى ويرغبون إليه ويدعونه ويستغيثون به في بعض الملمات، كما قال تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١].

وكانوا يوحدون الله تعالى في الدعاء ويخلصون له الرجاء في حال الشدة، كما قال تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

والمقصود أن من هؤلاء المعبودين من دون الله، من عبد وهو حي، كالملائكة وعيسى *عليه السلام*، ولم يكن ذلك عن رضاً منهم، حاشاهم، بل هم برءاء من عابديهم وعبادتهم، كما أخبر الله عنهم ذلك، ولو كانوا حاضرين

لمنعوهم من ذلك ولأنكروا عليهم أشد الإنكار، ومن ثم فإنهم يعتذرون إلى ربهم يوم القيامة أنهم لم يكونوا حاضرين ولا عالمين بما فعله هؤلاء المشركون، وأنهم برءاء منهم ومن شركهم، كما أخبر الله عنهم في كتابه.

وتدبر قول الله عز وجل لنبيه عيسى *عليه السلام* وخطابه له، حيث قال ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

قال ابن جرير رحمه الله: " ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ يقول: وكنت على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم شاهداً عليهم وعلى أفعالهم وأقوالهم. ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ يقول: وأنت تشهد على كل شيء لأنه لا يخفى عليك شيء، وأما أنا فإنما شهدت بعض الأشياء، وذلك ما عاينت وأنا مقيم بين أظهر القوم، فإنما أنا أشهد على ذلك الذي عاينت ورأيت وشهدت" اهـ[١].

قلت: وهؤلاء الآيات البينات من أوضح ما يكون في الرد على المخالفين الذين تذرعوا بحياة الأنبياء واستمرارها وزعموا أنهم شهود حاضرون يعلمون ويسمعون ويستجيبون دعوة الداعين واستغاثة الملهوفين، فأبطل الله زعمهم هذا، ونفى عن رسله شهودهم وحضورهم وعلمهم بما فعل السفهاء من أقوامهم بعد وفاتهم، وأشهد على بطلان ذلك الزعم، عبده ورسوله عيسى *عليه السلام* وأنطقه

(١) تفسير ابن جرير [١١/٢٣٩].

بذلك، وهذا أبلغ في إقامة الحجة وإبطال قول المخالف، إذ هو من أولي العزم الذين هم أفضل من سائر الأنبياء والرسل، وحياته أكمل من حياة سائر الأنبياء *عليهم السلام*، لأنه لم يمت بعد، بل رفعه الله إليه بجسده وروحه، وسينزل في آخر الزمان ليقتل الخنزير والدجال ويكسر الصليب ويضع الجزية، كما دلت على ذلك النصوص من الكتاب والسنة.

فإذا نفى عيسى *عليه السلام* علمه وحضوره وشهوده لما أحدثه قومه من بعده، فمن سواه من الأنبياء أحرى وأجدر أن لا يعلموا ما فعل أقوامهم من بعدهم.

وهذا الذي أخبر الله به على لسان عبده ورسوله عيسى *عليه السلام* جاء مثله على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، ليكون أبلغ في الحجة وأوضح في البيان.

ففي الصحيح من حديث ابن عباس *رضي الله عنهما* أن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً... » فذكر الحديث إلى أن قال: « وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصيحابي فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾، إلى قوله ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ قال: فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم »[١].

فأبطل الله دعوى المخالفين على لسان أفضل رسله وخيرة خلقه ﷺ إذ أعلن براءته منهم ومما أحدثوه من بعده من البدع والمخالفات، كما جاء في بعض الروايات أنه ﷺ قال: « إني على الحوض حتى أنظر من يرد عليَّ منكم، وسيؤخذ ناس دوني فأقول: يا رب مني ومن أمتي، فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك ؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم »[٢].

(١) رواه البخاري [١١/٣٧٧].

(٢) رواه البخاري من حديث أسماء [١١/ ٤٦٦] و مسلم [ح ٢٢٩٣].

وفي لفظ قال: « فأقول سحقاً سحقاً لمن غيّر بعدي » (١).

واعتذر ﷺ إلى ربه عز وجل بمثل ما اعتذر به عيسى عليه السلام، بأن الذي أحدثه المخالفون لم يكن بعلمه ولا حال حضوره، بل كان بعد وفاته ومغيبه عنهم.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(١) رواه البخاري من حديث أبي سعيد [١١/٤٦٤].

المبحث الثالث

زيارة القبور وشد الرحال إليها

تقدم معنا في القسم الأول من هذا الرد "جلاء البصائر"، الكلام عن مبدأ الشرك، وأن أعظم أسبابه كان العكوف على قبور الصالحين الأولين من قوم نوح وهم: ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وأن إبليس اللعين إنما كاد حزبه وأولياءه وأوقعهم في الشرك برب العالمين، من هذا الباب.

قال ابن القيم رحمه الله: "من أعظم مكايده – يعني إبليس – التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالى فتنته، ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور، حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابها من دون الله وعبدت قبورهم واتخذت أوثاناً، وبنيت عليها الهياكل وصورت صور أربابها فيها ثم جعلت تلك الصور أجساداً لها ظل ثم جعلت أصناماً وعبدت مع الله تعالى.

وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ [نوح: ٢٣-٢٤] " اهـ(١).

ولم يزل دأب إبليس وحزبه من المخالفين في كل زمان تعظيم قبور الصالحين والاهتمام بها وتقديسها حتى ضاهوا بها مساجد الله، وشرعوا لها حجاً فضّلوه على حج بيت الله الحرام، وضل بسبب ذلك كثير من العوام فعكفوا على القبور وحجوا إليها ونذروا لها النذور، فعل عباد الأصنام.

(١) إغاثة اللهفان [١/١٤٣].

وقد مر معنا في مقدمة هذا الكتاب بيان طرق المخالقين في إضلال الناس وفتنتهم بتعظيم قبور الأنبياء، وبالأخص قبر نبينا ﷺ .

* حيث غلوا في الترغيب في زيارة قبره حتى ضاهوا بها الحج إلى البيت. قال المخالف: "ينبغي ضبط الزيارة بما ضبط به الأئمة الاستطاعة في الحج" (١).

وقال: "فقرى الواقف ببابه الشريف كقرى الواقف بعرفات" (٢).

* وغلوا أكثر من ذلك فجعلوها ركناً من أركان الإيمان. قال المخالف: "الزيارة النبوية في الحقيقة توحيد خالص وإيمان صادق... وذلك لأنها إقرار لصاحب الرسالة محمد بن عبد الله بعظيم الفضل وكمال الإحسان وتمام المنة والمعروف وغاية الرتبة في الشرف والعبودية المحضة الصادقة، وهذا هو عين التوحيد" (٣).

* ولما ابتدعوا القول بخلود النبي ﷺ وديمومة حياته وبقائها على ما كانت عليه قبل موته ودفنه، جعلوا زيارة قبره زيارة له في الحقيقة.

قال المخالف: "لأن المسافر لزيارة القبر هو مسافر في الحقيقة إلى النبي ﷺ أما القبر حقيقة فلا يقصده ولا يتوجه إليه مسافر، ونحن إنما نتوجه إليه ﷺ ونشد رحالنا لزيارته هو ونتقرب إلى الله بتلك الزيارة..." إلى أن قال: "ولو كان المسافر لزيارة القبر لا يقصد إلا زيارة القبر فقط لما رأيت هذا الازدحام الشديد على الروضة المشرفة ولما رأيت الناس يتسابقون ويتدافعون عند فتح أبواب المسجد النبوي حتى ليكاد يقتل بعضهم بعضاً، وهؤلاء الذين يحرصون على الصلاة في المسجد والمسابقة إلى الروضة هم الذين جاءوا لزيارة محمد بن عبد الله ﷺ وشدوا رحالهم إليها" (٤).

---

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٣١].

(٢) شفاء الفؤاد [ص ١٣٢].

(٣) شفاء الفؤاد [ص ٣١-٣٢].

(٤) شفاء الفؤاد [ص ٧٥].

* وجعلوا شد الرحال إلى قبره هجرة إلى الله ورسوله ﷺ . قال المخالف، نقلاً عن الهيتمي: "ولا شك عند من له أدنى مسكة من ذوق العلم أن من خرج لزيارة رسول الله ﷺ يصدق عليه أنه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله لما يأتي أن زيارته ﷺ بعد وفاته كزيارته في حياته" (١).

* وإمعاناً في الإضلال، فقد أورد المخالفون جملة من الأحاديث والآثار في فضل زيارة القبر النبوي، سيأتي ذكرها ونقدها في نهاية هذا الباب، إن شاء الله تعالى.

وهي على ضعفها ونكارتها لا تدل على كل ما ذهبوا إليه، بل غاية ما فيها الترغيب في زيارة قبره ﷺ فحسب، فركّب المخالفون على ذلك من الإفك والاختراع ما الله به عليم.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

---

(١) شفاء الفؤاد [ص ٥٥].

« كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها »

ولما كانت القبور أعظم الوسائل المفضية إلى أعظم المحرمات وأقبحها وهو الشرك، منذ نشأته في الأرض أول مرة من زمن نوح عليه السلام إلى زماننا هذا وإلى ما شاء الله، والفتنة بها أقرب، فقد أحيطت بأسوار منيعة وأحكم غلق أبوابها وسد طرقها الموصلة إلى المحذور الأعظم والمقربة إليه. فأول ذلك تحريم زيارة القبور، مجرد زيارة من غير قصد السفر، ثم أبيح للمصلحة الراجحة، ثم حرم شد الرحال إليها، وهو وسيلة إلى تعظيمها وتعظيم أصحابها والافتتان بهم والغلو فيهم. وحرم اتخاذها عيداً وجعلها قبلة وهما وسيلة أقرب. وحرم قصد العبادة عندها بالصلاة والدعاء والذبح والنذر وشدد في النهي والتحريم أبلغ تشديد، لأنها وسيلة أقرب وأقرب.

* ونبدأ الكلام أولاً عن زيارة القبور:

١ – فعن بريدة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة » وفي لفظ « فمن أراد أن يزور فليزر، ولا تقولوا هجراً »(١).

٢ – وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة، ولا تقولوا ما يسخط الرب »(٢).

٣ – وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها ترق القلب وتدمع العين وتذكر الآخرة ولا تقولوا هجراً»(٣).

(١) أخرجه مسلم [٩٧٧] والنسائي [٤/٨٩] وأحمد [٥/٣٥٠].

(٢) أخرجه أحمد [٣/٣٨] والحاكم [١/٣٧٤] وصححه وقال على شرط مسلم. وأخرجه البزار. انظر مجمع الزوائد [٣/٥٨].

(٣) أخرجه أحمد [٣/٢٣٧] والحاكم [١/٣٧٦] بنحوه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله "وكان النبي ﷺ قد نهى أولاً عن زيارة القبور باتفاق العلماء. فقيل: لأن ذلك يفضي إلى الشرك، وقيل لأجل النياحة عندها، وقيل لأنهم كانوا يتفاخرون بها.

وقد ذكر طائفة من العلماء في قوله تعالى ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۞ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أنهم كانوا يتكاثرون بقبور الموتى. وممن ذكره ابن عطية في تفسيره قال: وهذا تأنيب على الإكثار من زيارة القبور، أي حتى جعلتم أشغالكم القاطعة لكم عن العبادة والعلم زيارة القبور تكثراً بمن سلف وإشادة بذكره. ثم قال النبي ﷺ : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجراً ». فكان نهيه في معنى الآية، ثم أباح الزيارة بعد لمعنى الاتعاظ لا لمعنى المباهاة والتفاخر وتسنيمها بالحجارة الرخام، وتلوينها سرفاً، وبنيان النواويس عليها، هذا لفظ ابن عطية" اهـ[1].

وقال الإمام النووي رحمه الله: "وكان النهي أولاً لقرب عهدهم من الجاهلية فربما كانوا يتكلمون بكلام الجاهلية الباطل، فلما استقرت قواعد الإسلام وتمهدت أحكامه واشتهرت معالمه أبيح لهم الزيارة، واحتاط ﷺ بقوله: « ولا تقولوا هجراً » والهجر الكلام الباطل" اهـ[2] بتصرف.

قال العلامة الألباني حفظه الله: "ولا يخفى أن ما يفعله العامة وغيرهم عند الزيارة من دعاء الميت والاستغاثة به وسؤال الله بحقه لهو من أكبر الهجر والقول الباطل، فعلى العلماء أن يبينوا لهم حكم الله في ذلك، ويفهموهم الزيارة المشروعة والغاية منها" اهـ[3].

(١) مجموع الفتاوى [٢٧/٣٧٥-٣٧٦].

(٢) المجموع شرح المهذب [٥/٣١٠].

(٣) أحكام الجنائز للألباني [ص ١٧٩].

وأما الحكمة من الإذن في زيارة القبور فقد وضحها الحديث نفسه، وتتابعت عليها الأحاديث الأخرى، وهي قوله ﷺ : « فإنها تذكر الآخرة ».

وهذا التركيب يفيد العلية، كما نبه عليه علماء الأصول عند الكلام على مسالك العلة، فذكروا منها: مسلك الإيماء والتنبيه، وهو "ترتيب الحكم على الوصف بالفاء" [1]. وهذا من أمثلته لأن قوله ﷺ : « فزوروا القبور » حكم، وقوله: « فإنها تذكر الآخرة » وصف، فعرف أنه علة الحكم، والله أعلم.

* وثمة حكمة أخرى من زيارة القبور، ذكرها بعض أهل العلم، وهي السلام على أهلها والدعاء لهم واستدلوا على ذلك بالأحاديث الواردة في السلام على الموتى والدعاء لهم عند زيارة القبور.

١ – فعن عائشة رضي الله عنها، في حديث لها، وفيه أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ : « إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم. قالت عائشة: فكيف أقول يا رسول الله ؟ قال: قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون » [2].

٢ – وعن بريدة رضي الله عنه قال: « كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية » [3].

قلت: والمقصود أن يعلم بأنها منعت أولاً سداً للذريعة مع ما فيها من المصالح للزائر والمزور، إذ كانت المفسدة راجحة أو متحققة لقرب عهد الناس بالجاهلية، فلما بعد عهدهم بها وانتفت المفسدة أذن لهم فيها، وقرن مع الإذن التحذير من قول الباطل، الذي هو من أعمال الجاهلية.

(١) نهاية السول [٤/٦٣].

(٢) أخرجه مسلم [٩٧٤] والنسائي [٤/٩١].

(٣) أخرجه مسلم [٩٧٥].

ولعله من أجل ذلك – والله أعلم – اختلف في حكم زيارة القبور، وإن كان الأكثر على أنها مستحبة مندوب إليها مع الشرط المذكور « ولا تقولوا هجراً ».

قال الحافظ في الفتح، معلقاً على تبويب الإمام البخاري "باب زيارة القبور": ((قوله "باب زيارة القبور" أي مشروعيتها، وكأنه لم يصرح بالحكم لما فيه من الخلاف كما سيأتي، وكأن المصنف لم يثبت على شرطه الأحاديث المصرحة بالجواز)).

وذكر الحافظ الأحاديث الدالة على مشروعية الزيارة، ثم قال: ((قال النووي تبعاً للعبدري والحازمي وغيرهما: "اتفقوا على أن زيارة القبور للرجال جائزة" كذا أطلقوا، وفيه نظر، لأن ابن أبي شيبة وغيره روى عن ابن سيرين وإبراهيم النخعي والشعبي الكراهة مطلقاً، حتى قال الشعبي: لولا نهي النبي ﷺ لزرت قبر ابنتي.

فلعل من أطلق أراد بالاتفاق ما استقر عليه الأمر بعد هؤلاء، وكأن هؤلاء لم يبلغهم الناسخ، والله أعلم.

ومقابل هذا قول ابن حزم: إن زيارة القبور واجبة ولو مرة واحدة في العمر لورود الأمر به)) اهـ[1].

قلت: وقد أطال شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألة الزيارة وأوضح أن اختلاف الحكم فيها يكون بحسب حال الزائر ونيته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإذا كانت نيته بالزيارة إيصال النفع للميت بالدعاء له والاستغفار والترحم عليه، فهو مستحب، وإذا كانت الزيارة لمجرد

(١) فتح الباري [٣/١٤٨].

الحزن على الميت لقرابته أو صداقته، فهي مباحة كما يباح البكاء على الميت بلا ندب ولا نياحة.

أما إذا اشتملت على أمور محرمة، من شرك، أو كذب، أو ندب، أو نياحة وقول هجر فهي محرمة بالإجماع" اهـ[1] باختصار وتصرف.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) مجموع الفتاوى [٢٧/٣٧٨].

«لا تُشدُّ الرحال ...»

ولما كان شد الرحال إلى القبور مفضياً إلى تعظيمها والغلو في أصحابها وعبادتهم فقد وردت النصوص الصريحة في منعه وتحريمه سداً للذريعة، وهو من المحكم الذي لم ينسخ، بخلاف الزيارة المجردة عن السفر، المأذون فيها بشروطها الشرعية كما تقدم.

وأحاديث النهي عن شد الرحال قد تواترت عن جمع من الصحابة كأبي هريرة وأبي سعيد وأبي بصرة وابن عمر وغيرهم.

١ - فحديث أبي هريرة ﷺ له عدة طرق، منها طريق سعيد بن المسيب عنه عن رسول الله ﷺ قال: « لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول ومسجد الأقصى »[١].

٢ - وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ له طرق أيضاً، منها طريق قزعة عنه مرفوعاً بلفظ: « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ». وفي لفظ: « لا تشدوا الرحال... »[٢].

٣ - وحديث أبي بصرة ﷺ له طرق، منها طريق مرثد بن عبد الله عنه قال: لقيت أبا هريرة وهو يسير إلى مسجد الطور ليصلي فيه، قال: فقلت له لو أدركتك قبل أن ترتحل ما ارتحلت. فقال: ولـمَ ؟ فقلت: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي »[٣].

---

(١) أخرجه البخاري [٥١/٣] ومسلم [١٣٩٧].

(٢) أخرجه البخاري [٥٧/٣] ومسلم [٨٢٧].

(٣) أخرجه أحمد [٣٩٧/٦]، وله طريق آخر في الموطأ [١٠٨/١] والنسائي [١١٣/٣].

٤ – وحديث ابن عمر رضي الله عنهما من طريق قزعة قال « أردت الخروج إلى الطور فسألت ابن عمر، فقال: أما علمت أن النبي ﷺ قال... » [1] فذكر الحديث.

فقد نهى ﷺ عن قصد السفر إلى موضع لغرض التعبد عنده والتبرك به، ولو كان مسجداً لله، سوى المساجد الثلاثة، فالسفر إلى القبور داخل في النهي من باب أولى.

أ – قال ابن الأثير في شرح قوله « لا تشد الرحال » "هذا مثل قوله « لا تعمل المطي » وكنى به عن السير والنفر، والمراد: لا يقصد موضع من المواضع بنية العبادة والتقرب إلى الله تعالى إلا إلى هذه الأماكن الثلاثة تعظيماً لشأنها وتشريفاً " اهـ[2].

ب – وقال النووي رحمه الله: "واختلف العلماء في شد الرحال وإعمال المطي إلى غير المساجد الثلاثة كالذهاب إلى قبور الصالحين وإلى المواضع الفاضلة ونحو ذلك.

فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا: هو حرام، وهو الذي أشار القاضي عياض إلى اختياره. والصحيح عند أصحابنا، وهو الذي اختاره إمام الحرمين والمحققون، أنه لا يحرم ولا يكره، قالوا: والمراد: أن الفضيلة التامة إنما هي في شد الرحال إلى هذه الثلاثة خاصة، والله أعلم" اهـ[3].

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(١) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [ص ٣٠٤]، كما في الإرواء [٣/٢١٣] قال الألباني: إسناده صحيح.

(٢) جامع الأصول [٩/٢٨٣].

(٣) شرح مسلم [٩/١٠٦].

« ... ولا قبراً مشرفاً إلا سويته »

ومن الوسائل المفضية إلى تعظيم القبور: تشييدها وتشريفها والبناء عليها، وقد وردت النصوص في تحريم ذلك كله ومنعه سداً للذريعة.

١ – فعن جابر رضي الله عنه قال: « نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه » [1].

٢ – وعن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ « أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » [2].

٣ – وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أنه أمر بتسوية قبر بأرض الروم ثم قال: « سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها » [3].

قال الإمام الشوكاني رحمه الله "فيه أن السنة أن القبر لا يرفع رفعاً كثيراً من غير فرق بين من كان فاضلاً ومن كان غير فاضل. والظاهر أن رفع القبور زيادة على القدر المأذون فيه محرم. وقد صرح بذلك أصحاب أحمد وجماعة من أصحاب الشافعي ومالك.

ومن رفع القبور الداخل تحت الحديث دخولاً أولياً القبب والمشاهد المعمورة على القبور، وكم سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجاح المطالب وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم، وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا" [4].

(١) أخرجه مسلم [٩٧٠].

(٢) أخرجه مسلم [٩٦٩].

(٣) أخرجه مسلم [٩٦٨].

(٤) نيل الأوطار [٥/٧٨-٧٩].

وقال في موضع آخر: "وكل عاقل يعلم أن لزيادة الزخرفة للقبور وإسبال الستور الرائعة عليها وتسريجها والتأنق في تحسينها تأثيراً في طبائع غالب العوام، ينشأ عنه التعظيم والاعتقادات الباطلة.

وروي لنا أن بعض أهل جهات القبلة وصل إلى القبة الموضوعة على قبر الإمام أحمد بن الحسين رحمه الله فرآها وهي مسرجة بالشمع والبخور ينفح في جوانبها، وعلى القبر الستور الفائقة فقال عند وصوله إلى الباب: أمسيت بالخير يا أرحم الراحمين" اهـ[1].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد [ص١٢].

« لا تجعلوا قبري عيداً »

ومن الوسائل المفضية إلى تعظيم القبور أيضاً، اتخاذها عيداً، وهو قصدها للاجتماع عندها وانتيابها كما تقصد الأعياد وتنتاب.

ولما كان قبر النبي ﷺ أقرب القبور لأن يتخذ عيداً، فقد ورد فيه النهي الصريح سداً للذريعة.

* فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » [1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذا إسناد حسن، فإن رواته كلهم ثقات مشاهير، لكن عبد الله بن نافع الصائغ الفقيه المدني صاحب مالك فيه لين لا يقدح في حديثه. قال يحي بن معين: هو ثقة. وحسبك بابن معين موثقاً. وقال أبو زرعة لا بأس به. وقال أبو حاتم الرازي: ليس بالحافظ وهو لين تعرف حفظه وتنكر.

فإن هذه العبارات منهم تنزل حديثه من مرتبة الصحيح إلى مرتبة الحسن، إذ لا خلاف في عدالته وفقهه وأن الغالب عليه الضبط، لكن قد يغلط أحياناً. ثم هذا الحديث مما يعرف من حفظه، ليس مما ينكر، لأنه سنة مدنية، وهو محتاج إليها في فقهه، ومثل هذا يضبطه الفقيه. وللحديث شواهد من غير طريقه، فإن هذا الحديث روي من جهات أخرى، فما بقي منكراً، وكل جملة من هذا الحديث رويت عن النبي ﷺ بأسانيد معروفة. وإنما الغرض هنا النهي عن اتخاذه عيداً".

ثم ذكر شيخ الإسلام شواهد للحديث منها:

١ – عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: أنه رأى رجلاً يجيء إلى

(١) أخرجه أحمد [٢/٣٦٧] وأبو داود [٢/٥٣٤] من طريق عبد الله بن نافع أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة به.

فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، فقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن النبي ﷺ؟ قال: « لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم » (١).

٢ – عن سهيل بن أبي سهيل قال: رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى. فقال: هلم إلى العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: مالي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ. فقال إذا دخلت المسجد فسلم. ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: « لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء (٢).

٣ – وعن أبي سعيد مولى المهري قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تتخذوا بيتي عيداً، ولا بيوتكم قبوراً وصلوا عليَّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني » (٣).

ثم قال ابن تيمية "ووجه الدلالة أن قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذه عيداً. فقبر غيره أولى بالنهي كائناً من كان. ثم إنه قرن ذلك بقوله ﷺ: « ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً » أي لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور.

فأمر بتحري العبادة في البيوت ونهى عن تحريها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم. وفي الصحيحين عن ابن عمر

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده [١/٣٦١ /ح٤٦٩] من طريق جعفر بن إبراهيم حدثنا علي بن عمر عن أبيه عن علي بن الحسين به. وفي إسناده ضعف يتقوى بالشواهد.

(٢) أخرجه إسماعيل القاضي في "فضل الصلاة على النبي" [ح ٣٠] بنحوه. وإسناده إلى الحسن لابأس به.

(٣) عزاه ابن تيمية إلى سنن سعيد بن منصور، وساق إسناده. وفيه ضعف وانقطاع.

رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: « اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبوراً » (١).

وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة » (٢).

ثم إنه ﷺ أعقب النهي عن اتخاذه عيداً بقوله: « صلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم »، وفي الحديث الآخر « فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم » يشير بذلك ﷺ إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم منه، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً. والأحاديث عنه بأن صلاتنا وسلامنا تعرض عليه كثيرة".

ثم ساق شيخ الإسلام الأحاديث في عرض الصلاة عليه من أمته بعد موته، وكذا تبليغ الملائكة سلام من يسلم عليه، ثم قال:

" ثم إن أفضل التابعين من أهل بيته علي بن الحسين رضي الله عنه نهى ذلك الرجل أن يتحرى الدعاء عند قبره ﷺ واستدل بالحديث، وهو راوي الحديث، الذي سمعه من أبيه الحسين عن جده علي، وأعلم بمعناه من غيره. فبين أن قصده للدعاء ونحوه اتخاذٌ له عيداً. وكذلك ابن عمه حسن بن حسن شيخ أهل بيته، كره أن يقصد الرجل القبر للسلام عليه ونحوه، ورأى أن ذلك من اتخاذه عيداً.

فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت، الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار، لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم فكانوا لها أضبط.

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [١/١٤٩].

(٢) أخرجه مسلم [٧٨٠].

والعيد إذا جعل اسماً للمكان، فهو المكان الذي يقصد الاجتماع فيه وانتيابه للعبادة عنده، أو لغير العبادة، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة، جعلها الله عيداً مثابة للناس، يجتمعون فيها وينتابونها للدعاء والذكر والنسك.

وكان للمشركين أمكنة ينتابونها للاجتماع عندها، فلما جاء الإسلام محى الله ذلك كله. وهذا النوع من الأمكنة يدخل فيه قبور الأنبياء والصالحين وسائر القبور" اهـ(١) باختصار.

وقال ابن القيم – رحمه الله – "كان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء عنها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة البيت الحرام وعرفة ومنى والمشاعر.

فاتخاذ القبور عيداً هو من أعياد المشركين التي كانوا عليها قبل الإسلام، وقد نهى عنه رسول الله ﷺ في سيد القبور منبهاً به على غيره"، ثم ذكر ابن القيم حديث أبي هريرة ؓ المتقدم وقال: "وهذا إسناد حسن رواته كلهم ثقات مشاهير" وذكر شواهده المتقدمة. ثم قال: "فصل: ثم إن في اتخاذ القبور أعياداً من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله تعالى ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله تعالى وغيرة على التوحيد وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن ما لجرح بميت إيلام.

فمن مفاسد اتخاذها أعياداً: الصلاة إليها والطواف بها وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها والاستغاثة بهم وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الديون وتفريج الكربات وإغاثة اللهفان وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عبَّاد الأوثان يسألونها أوثانهم.

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد فوضعوا لها الجباه، وقبلوا الأرض وكشفوا الرءوس،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم [٢/٦٥٤ – ٦٦٠].

وارتفعت أصواتهم بالضجيج وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يبدي ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد. فلغير الله، بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات ويرتفع من الأصوات ويطلب من الميت من الحاجات ويسأل من تفريج الكربات وإغناء ذوي الفاقات ومعافاة أولي العاهات والبليات... الخ" اهـ(١) باختصار.

وقال الإمام ابن عبد البر في شرحه لحديث: « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » ما نصه:

"الوثن: الصنم، وهو الصورة من ذهب أو فضة أو غير ذلك من التمثال، وكل ما يعبد من دون الله فهو وثن صنماً كان أو غير صنم.

وكانت العرب تصلي إلى الأصنام وتعبدها فخشي رسول الله ﷺ على أمته أن تصنع كما صنع بعض من مضى من الأمم، كانوا إذا مات لهم نبي عكفوا حول قبره كما يصنع بالصنم، فقال ﷺ: اللهم لا تجعل قبري وثناً يصلى إليه ويسجد نحوه ويعبد، فقد اشتد غضب الله على من فعل ذلك.

وكان رسول الله ﷺ يحذِّر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله، الذين صلوا إلى قبور أنبيائهم واتخذوها قبلة ومسجداً كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها، وذلك الشرك الأكبر" اهـ(٢).

* **قلت:** فاتفقت الأحاديث ونصوص أهل العلم وهي كثيرة جداً، وإنما اقتصرت على ذكر بعضها حذر التطويل، على تحريم كل الوسائل المفضية إلى تعظيم القبور، فمنع من زيارتها أولاً، ومنع شد الرحل إليها والاهتمام البالغ بها بناءً وتشييداً، وجعلها قبلة بالصلاة إليها، وأعظم من ذلك اتخاذها عيداً ومقصداً

(١) إغاثة اللهفان [١/١٤٩-١٥٢].

(٢) التمهيد [٥/٤٥].

للاجتماع والاحتفاء بها كما يحتفى بالأعياد ويجتمع عندها، وأعظم من ذلك كله وهو الذي ورد فيه اللعن والغضب الشديد من ذي العرش المجيد، ووصف أصحابه أنهم شرار الخلق، اتخاذها مساجد، ومعناه النهي عن عبادة الله عندها والتقرب إليه بالدعاء والنسك والنذر وسائر العبادات التي تفعل في المساجد، ويدخل في النهي أيضاً بناء المساجد عليها كما هو ظاهر.

وهذا كله من أجل أنها وسيلة إلى الشرك بأصحاب تلك القبور خاصة إذا كانوا معظمين كالأنبياء وأكابر الصالحين والأولياء، إذ الفتنة بهم أشد من الفتنة بغيرهم من الناس.

* فإذا كان هذا هو حكم الوسيلة، غضب شديد ولعن وطرد من رحمة الله، فكيف يكون حكم المقصد، وهو عبادة القبور وأصحابها والتقرب إليهم بأنواع القرب من الدعاء والالتجاء والاستغاثة والرجاء والطلب، وكذا الذبح والنذر والصدقة والحج والطواف، وكذا القيام والركوع والسجود وسائر العبادات التي لا تنبغي إلا لله وحده لا شريك له ؟!

* والحاصل: أن هذه الوسيلة العظمى، وهي الفتنة بالقبور، قد أحيطت بسياج منيع يمنع من قربانها فضلاً عن الوقوع فيها، فنهى عن قصدها بالرحلة والسفر، وعن رفعها وتشييدها والبناء عليها، ثم عن اتخاذها عيداً، ثم عن قصد العبادة لله بالصلاة والدعاء والذبح عندها.

ولم يبق إلا زيارتها الزيارة الشرعية المحضة لنفع الحي والميت، هذا ينتفع بتذكر الموت، ورجاء الثواب على الزيارة والدعاء والاستغفار للميت، وذاك بما يصله من أثر هذا الدعاء والاستغفار.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

نقد الأحاديث والآثار التي احتج بها المخالفون في مسألة الزيارة

أورد المخالف في كتابه "شفاء الفؤاد" عدداً من الأحاديث في بيان فضل زيارة القبر النبوي، نقل أكثرها من كتاب "شفاء السقام" للسبكي، وقد أطال هذا الأخير الكلام عنها وعن أسانيدها وطرقها بما لا طائل تحته.

وقد تصدى لنقدها وبيان عللها وضعفها الحافظ محمد بن عبد الهادي رحمه الله في "الصارم المنكي" وأطال بما لا مزيد عليه، وأنا ألخص ما كتبه في ذلك.

الحديث الأول

عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ « من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي » [شفاء الفؤاد ص ١٣].

رواه الدار قطني [٢٧٨/٢] والبيهقي [٥/ ٢٤٦] وقال "تفرد به حفص وهو ضعيف".

قال ابن عبد الهادي في الصارم المنكي [ص٥٥] "اعلم أن هذا الحديث لا يجوز الاحتجاج به ولا يصلح الاعتماد على مثله فإنه حديث منكر المتن ساقط الإسناد" ثم ذكر علته، وهي ضعف حفص القاري في الحديث، مع كونه إماماً في القراءة. وضعف ليث بن أبي سليم شيخ حفص، فالأول متروك والثاني مضطرب الحديث.

الحديث الثاني

عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ « من زار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي » [شفاء الفؤاد ص ١٤]. رواه الطبراني [٣٠٩/١٢].

قال ابن عبد الهادي في [الصارم ص ٦٥] "ليس هذا الإسناد بشيء يعتمد عليه،

ولا هو مما يرجع إليه، بل هو إسناد مظلم ضعيف جداً" ثم علل ذلك بأن في إسناده سلسلة من الضعفاء والمجاهيل، لا يرتفع به الحديث عن درجة الضعف والسقوط.

الحديث الثالث

عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ « من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني » [شفاء الفؤاد ص ١٧].

رواه ابن عدي في الكامل [٢٤٨٠/٧]. قال الذهبي في الميزان [٢٦٥/٤] "موضوع". وقال ابن عبد الهادي في الصارم [ص٧٩] "منكر جداً لا أصل له، بل هو من المكذوبات والموضوعات"، ثم علل ذلك بكونه من رواية محمد بن محمد بن النعمان بن شبل، وهو متهم بالكذب، عن جده النعمان بن شبل الذي لم يعرف بعدالة ولا ضبط ولم يوثقه إمام يعتمد عليه.

الحديث الرابع

عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ « من زار قبري وجبت له شفاعتي » [شفاء الفؤاد ص ١٨ – ٢٣].

رواه الدارقطني [٢٧٨/٢] والعقيلي [الضعفاء ١٧٠/٤] في ترجمة موسى بن هلال العبدي، وقال: "لا يصح حديثه ولا يتابع عليه".

وقال ابن عبد الهادي في [الصارم ص١٥] "هذا حديث غير صحيح ولا ثابت بل هو حديث منكر عند أئمة هذا الشأن لا تقوم بمثله حجة" ثم علل ذلك بجهالة موسى بن هلال وضعف شيخه عبد الله بن عمر العمري، وقد تفرد به عن نافع، ولا يحتمل تفرده عنه.

الحديث الخامس

عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ «من زار قبري حلت له شفاعتي» [شفاء الفؤاد ص١٣].

رواه البزار[كشف الأستار ٥٧/٢] وقال: "عبد الله بن إبراهيم لم يتابع على هذا". وقال ابن عبد الهادي في [الصارم ص٣٣]: "هذا حديث ضعيف منكر ساقط الإسناد، لا يجوز الاحتجاج بمثله عند أحد من أئمة الحديث وحفاظ الأثر" ثم علل ذلك براويه عبد الله بن إبراهيم الغفاري وهو متهم بالوضع، وشيخه عبد الرحمن بن زيد ضعيف جداً.

الحديث السادس

عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ « من جاءني زائراً لا تعمله حاجة إلا زيارتي كان حقاً عليَّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة » [شفاء الفؤاد ص٢٣-٢٥].

رواه الطبراني [ح ١٣١٤٩] قال الهيثمي في [المجمع٢/٤]: "فيه مسلمة بن سالم، وهو ضعيف". وقال ابن عبد الهادي في [الصارم ص٤١] "هذا الحديث ضعيف الإسناد منكر المتن، لا يصلح الاحتجاج به ولا يجوز الاعتماد على مثله" ثم علل ذلك بجهالة راويه مسلمة بن سالم وتفرده به عن عبيد الله بن عمر، والاختلاف عليه في إسناده.

الحديث السابع

عن عمر بن الخطاب مرفوعاً بلفظ « من زار قبري، أو قال: من زارني كنت له شفيعاً أو شهيداً... » [شفاء الفؤاد ص ١٧].

رواه الطيالسي [ح٦٥] والبيهقي [٢٤٥/٥] وقال: "هذا إسناد مجهول" قال ابن عبد الهادي في الصارم [ص٨٩]: "هذا الحديث ليس بصحيح لانقطاعه وجهالة إسناده واضطرابه، ولأجل اختلاف الرواة في إسناده واضطرابهم فيه

جعله المعترض ثلاثة أحاديث، وهو حديث واحد ساقط الإسناد لا يجوز الاحتجاج به ولا يصلح الاعتماد على مثله" ثم علل ذلك بجهالة راويه سوار بن ميمون، وبعضهم قال: ميمون بن سوار، وشيخه في هذه الرواية متهم وهو أسوء حالاً من المجهول، وبعض الرواة يقول فيه عن رجل من آل عمر، كما في هذه الرواية، وبعضهم يقول عن رجل من ولد حاطب، وبعضهم يقول عن رجل من آل الخطاب.

الحديث الثامن

عن حاطب مرفوعاً بلفظ « من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي... » [شفاء الفؤاد ص ٦٧].

رواه الدارقطني [٢٧٨/٢] من طريق هارون بن أبي قزعة عن رجل من آل حاطب عن حاطب. قال ابن عبد الهادي في الصارم [ص ١٠٢] ما حاصله: إن هذا هو عين الحديث السابق، فهو حديث واحد ضعيف مضطرب الإسناد، وهذه الرواية لم تزده إلا اضطراباً في الإسناد وفي المتن أيضاً.

قلت: هارون بن قزعة ذكره العقيلي في الضعفاء [٣٦١/٤] وقال: "لا يتابع عليه" ثم ذكر هذا الحديث. وكذا قال البخاري: لا يتابع عليه، انظر الكامل لابن عدي [٢٥٨٨/٧].

الحديث التاسع

حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام » [شفاء الفؤاد ص ٦٩].

رواه الإمام أحمد [٥٢٧/٢] وأبو داود [٥٣٤/٢].

قلت: وقد تقدم ذكره في الباب الثاني.

الحديث العاشر

عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ « من صلى عليَّ عند قبري سمعته، ومن صلى عليَّ نائياً أبلغته » [شفاء الفؤاد ص ١٣٤].

رواه العقيلي في الضعفاء [١٣٦/٤] بإسناد واه، وقد تقدم ذكره في الباب الثاني أيضاً.

الحادي عشر: أثر بلال رضي الله عنه

عن أبي الدرداء رضي الله عنه "أن بلالاً رأى النبي ﷺ وهو يقول له: ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورني ؟ فانتبه حزيناً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة، فأتى قبر رسول الله ﷺ، فجعل يبكي عنده، ومرَّغ وجهه عليه..." [(١)].

- وقد أورد هذا الأثر السبكي واحتج به، وزعم أن إسناده جيد، فتعقبه ابن عبد الهادي في الصارم بقوله "والجواب أن يقال: هذا الأثر المذكور عن بلال ليس بصحيح عنه، ولو كان صحيحاً عنه لم يكن فيه دليل على محل النزاع. وقوله: إن إسناده جيد خطأ منه، وكذلك قوله: إنه نص في الباب. وقد ذكر هذا الأثر الحاكم أبو أحمد محمد بن أحمد النيسابوري، ومن طريقه ذكره ابن عساكر في ترجمة بلال.

وهو أثر غريب منكر وإسناده مجهول، وفيه انقطاع. وقد تفرد به محمد بن الفيض الغساني عن إبراهيم بن محمد بن سليمان بن بلال عن أبيه عن جده.

وإبراهيم بن محمد هذا شيخ لم يعرف بثقة وأمانة، ولا ضبط وعدالة، بل هو مجهول...".

وأطال في نقد إسناده، وبيان ضعف رواته، فذكر أن محمد بن سليمان بن

---

(١) شفاء الفؤاد [ص ٢٩-٣٠].

بلال والد إبراهيم شيخ قليل الحديث، لم يشتهر من حاله ما يوجب قبول أخباره. وأن أباه سليمان بن بلال رجل غير معروف، بل هو مجهول الحال قليل الرواية، لم يشتهر بحمل العلم ونقله، ولم يوثقه أحد من الأئمة فيما علمناه، ولا يعرف له سماع من أم الدرداء.

ثم ذكر ابن عبد الهادي أنه ليس في هذا الأثر، على فرض ثبوته، حجة على شد الرحل لقصد القبر، "فإنه يحتمل أن يكون قصد الصلاة في المسجد وزيارة القبر معاً، فإن القصد محله القلب، ولا سبيل لنا على الاطلاع عليه إلا بخبر من قام به ..." اهـ[1].

الثاني عشر: أثر عمر بن عبد العزيز

"عن يزيد بن سعيد المهري[2] قال: قدمت على عمر بن عبد العزيز، فلما ودعته قال: لي إليك حاجة ... إذا أتيت المدينة سترى قبر النبي ﷺ فأقرئه مني السلام.

قال غيره: وكان يبرد إليه البريد من الشام" اهـ[3].

قال ابن عبد الهادي في الصارم[4] "وهذا أجود ما روي عن عمر بن عبد العزيز في هذا الباب، مع أن في ثبوته عنه نظراً" ثم علل ذلك بأن في إسناده شيخاً مجهولاً هو رباح بن أبي بشير. ثم قال: "ولو فرض أنه شيخ معروف ثقة، فليس في روايته ذكر إبراد البريد لمجرد الزيارة، وإنما فيها إرسال السلام مع بعض من قدم على عمر من أهل المدينة، فإن يزيد بن أبي سعيد مولى المهري، هو من أهل

(١) الصارم المنكي [ص ٢٣٠].

(٢) كذا ورد في كتاب المخالف، وذكره في الصارم هكذا " يزيد بن أبي سعيد مولى المهري ".

(٣) شفاء الفؤاد [ص ٤٨].

(٤) الصارم المنكي [ص ٢٣٧].

المدينة وكان قدم منها إلى الشام على عمر بن عبد العزيز، فلما ودعه وأراد الرجوع إلى بلده قال له عمر: سترى قبر النبي ﷺ فأقرئه مني السلام ... ".

ثم تكلم ابن عبد الهادي عن الرواية الأخرى، في إبراد عمر بن عبد العزيز البريد من الشام للسلام على النبي ﷺ، وذكر أن البيهقي أوردها في شعب الإيمان بإسناد ضعيف منقطع، ثم قال "إنه لو ثبت عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كان يبرد البريد من الشام قاصداً إلى المدينة لمجرد الزيارة والسلام، كان في فعله ذلك من جملة المجتهدين، فهو ممن يحتج لقوله ويستدل لفعله، وقد قال الله تعالى ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩].

قلت: وهذا حاصل ما أورده المخالف من أدلة على استحباب زيارة القبر وشد الرحال إليه، وقد أطال في سردها وكررها في أكثر من موضع من كتابه "شفاء الفؤاد" لينفخ بها الكتاب، وهي كما رأيت لا تصلح للاحتجاج، وما صح منها فليس صريحاً في الزيارة، كحديث « ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي».

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

تحقيق القول في حكم زيارة القبر النبوي الشريف وشد الرحال إليه

تقدم بيان مشروعية زيارة القبور، في الجملة، من غير شد الرحل إليها وإعمال السفر قصداً لها، وأن ذلك إنما شرع لتذكر الآخرة والسلام على الموتى والدعاء لهم، وهذا عام يشمل الأنبياء والصالحين وغيرهم.

وقبر النبي ﷺ إما أن يقال إنه من جملة القبور، فيشرع زيارته الزيارة الشرعية للسلام عليه ولتذكر الموت، وأما الدعاء له فلم يشرع إلا بلفظ الصلاة فلا يدعى له كما يدعى لسائر الأموات بالعفو والعافية والرحمة والمغفرة، بل يصلى عليه ويسلم، ويدعى له بالوسيلة، كما ثبت في الحديث المشهور عقب الأذان.

أو يقال إن قبره ﷺ اختص من بين سائر القبور، فلا تشرع زيارته، لتعذر الوصول إليه، إذ هو ﷺ مدفون في حجرته وقد أحيط بها ثلاثة جدر مثلثة فقبره غير ظاهر كبقية القبور. ثم إن سلام المسلّم عليه يبلغه حيث كان المسلّم، وكذا الصلاة عليه، وهذا مما اختص به من بين سائر الخلق إكراماً له، فيكثر عدد المسلّمين عليه والمصلين، وحماية لجناب التوحيد، إذ ما من شك أن الفتنة بقبره أشد من الفتنة بقبور غيره من الصالحين، وقد كانت سبباً لوقوع أول شرك في الأرض، كما تقدم.

ومن نظر في حال المفتونين بقبور الصالحين وقد صيروها أعياداً يرتادونها وحولها يعكفون واتخذوها مساجد يدعون عندها ويصلون ويتعبدون، ومشاهد إليها يحجون ويقصدون، بل اتخذوها أوثاناً وآلهة نذروا لها النذور وقربوا لها القرابين، ودعوا أصحابها واستغاثوا بهم وتوسلوا بهم ليقربوهم إلى الله زلفى، ويتضاعف هذا الأمر ويزداد بحسب صلاح المقبور وشهرته...

فمن تأمل حال الأمة وما صارت إليه من عبادة القبور والطواف حولها ودعاء أصحابها من دون الله، وعرف أن هذه الشريعة السمحة إنما جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأن أعظم المصالح على الإطلاق إفراد رب العالمين بالألوهية وتوحيده بالعبادة، كل العبادة، ومنها وأعظمها الدعاء والرجاء والاستغاثة والصلاة والحج والنذر والذبح.

كما أن أعظم المفاسد هي الشرك برب العالمين، بأن يصرف شيء من العبادة لغير الله، سواء كان ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو شجراً أو حجراً أو قبراً أو غير ذلك.

فمهما ظُن من المصالح المتحصلة من زيارة قبر النبي ﷺ فهي لا تعدل مصلحة التوحيد التي قد تفوت بسببها، ولا تقاوم تلك المفسدة العظيمة التي قد تحصل من ورائها.

وهذا القول وإن استغربه المخالفون وأنكروه وعدوه منافياً لتعظيم الرسول ﷺ فهو أقرب من الأول، كما سيتضح قريباً عند مناقشة حجة الفريقين.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

أولاً:

القول باستحباب زيارة القبر النبوي

قال ابن الهمام "المقصد الثالث: في زيارة قبر النبي ﷺ . قال مشايخنا رحمهم الله تعالى: من أفضل المندوبات. وفي مناسك الفارسي وشرح المختار أنها قريبة من الوجوب لمن له سعة.

روى الدارقطني والبزار عنه عليه السلام « من زار قبري وجبت له شفاعتي ». وأخرج الدارقطني عنه عليه السلام « من جاءني زائراً لا تعمله حاجة إلا زيارتي كان حقاً عليَّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة» " [١].

وقال النووي "واعلم أن زيارة قبر رسول الله ﷺ من أهم القربات وأنجح المساعي، فإذا انصرف الحجاج والمعتمرون من مكة استحب لهم استحباباً متأكداً أن يتوجهوا إلى المدينة لزيارته ﷺ ..." [٢].

وقال ابن قدامة "ويستحب زيارة قبر النبي ﷺ ، لما روى الدارقطني بإسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي » " [٣].

* وقد احتج القائلون بالاستحباب بالأحاديث الواردة في خصوص قبره ﷺ ، كحديث ابن عمر رضي الله عنهما « من حج فزار قبري بعد وفاتي... » ونحوها، وقد علمت ما فيها ، وأنها واهية لا تقوم بها حجة ولا ينهض بها استدلال.

فما بقي إلا الاستدلال بالأحاديث العامة، كقوله ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة » ونحوها، وبما تواتر عنه ﷺ من زيارته لقبور أصحابه في البقيع وأحد.

(١) فتح القدير [٩٤/٣].
(٢) المجموع [٢٧٢/٨].
(٣) المغني [٤٦٥/٣].

وأما في خصوص القبر فأصح ما ورد في ذلك فعل ابن عمر رضي الله عنهما، فيما رواه الإمام مالك في الموطأ عن عبد الله بن دينار قال: «رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي على النبي وأبي بكر وعمر»[١].

قال أبو الوليد الباجي "هكذا رواه يحيى بن يحيى وتابعه غيره، وقال فيه ابن القاسم: « فيصلي على النبي ويدعو لأبي بكر وعمر » وتابعه على ذلك القعنبي وغيره" اهـ[٢].

وفي المصنف لعبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن نافع قال: «كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبتاه ».

قال معمر: فذكرت ذلك لعبيد الله بن عمر فقال "لا نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك" اهـ[٣].

قلت: فهذا أثر ابن عمر هو أصح ما ورد في خصوص زيارة قبر النبي ﷺ ولم يصح عن غيره من الصحابة أنه فعل مثل ذلك، بل صرح عبيد الله بن عمر، وهو من كبار الأئمة الثقات المدنيين، أن هذا مما تفرد به جده عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن سائر أصحاب النبي ﷺ .

ومع ذلك فليس فيه سوى السلام عليه ﷺ ، أو الصلاة عليه، ولا يثبت بمثل هذا الأثر فضيلة أو استحباب، إذ هو فعل صحابي، وغاية ما يدل عليه الجواز إذا لم يعارضه ما هو أقوى منه، والخلاف في الاحتجاج بفعل الصحابي وقوله معروف.

(١) الموطأ [١/١٦٦].
(٢) المنتقى [١/٢٩٦].
(٣) المصنف لعبد الرزاق [٣/٥٧٦].

* فإن قيل حديث أبي هريرة « ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام» نص في المسألة، إذ السلام عليه ﷺ هنا يعني عند زيارة قبره كما يسلم على الميت عند زيارة قبره.

ولذا أورده أبو داود في كتاب المناسك من سننه، في باب: "زيارة القبور"، وكذا البيهقي في سننه الكبرى[١] ذكره في باب: "زيارة قبر النبي ﷺ".

وقد أجاب عن ذلك ابن عبد الهادي رحمه الله في الصارم بقوله: "واعلم أن هذا الحديث هو الذي اعتمد عليه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما من الأئمة في مسألة الزيارة، وهو أجود ما استدل به في هذا الباب، ومع هذا فإنه لا يسلم من مقال في إسناده ونزاع في دلالته..." [٢].

ثم أطال الكلام على إسناده ورد على من صححه على شرط مسلم ورجح أنه إسناد مقارب.

ثم قال: "وأما النزاع في دلالة الحديث فمن جهة احتمال لفظه، فإن قوله: « ما من أحد يسلم عليَّ » يحتمل أن يكون المراد به عند قبره، كما فهمه جماعة من الأئمة، ويحتمل أن يكون معناه على العموم وأنه لا فرق في ذلك بين القريب والبعيد، وهذا هو ظاهر الحديث وهو الموافق للأحاديث المشهورة التي فيها « فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم» و « إن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم »، يشير بذلك ﷺ إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم منه، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً، كما قال « ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » " اهـ[٣].

(١) السنن الكبرى للبيهقي [٥/٢٤٥].
(٢) الصارم المنكي [ص ١٧٨].
(٣) الصارم المنكي [ص ١٨٦].

* واحتج القائلون باستحباب زيارة قبره ﷺ ، بأن ذلك أدعى إلى تعظيمه وأقرب إلى القيام بحقه.

قال السبكي "إنه لو ثبت خلاف في زيارة غير النبي ﷺ ، لم يلزم من ذلك إثبات خلاف في زيارته، لأن زيارة القبر تعظيم، وتعظيم النبي ﷺ واجب، وأما غيره فليس كذلك".

نقل هذا عنه ابن عبد الهادي في الصارم[1] ورد عليه من وجوه، منها:

الأول: أن هذا يقتضي أن زيارة قبره ﷺ واجبة، وأن تاركها عاص آثم مستحق للعقوبة، وفي هذا تفسيق لجميع الصحابة إلا من صح عنه منهم الزيارة. بل يلزم من ذلك أيضاً تكفير من لم يزره لأنه تارك لتعظيمه، وترك تعظيمه كفر، وهذا شر من قول الخوارج.

الثاني: أن زيارة قبره لو كانت واجبة على الأعيان لكانت الهجرة إلى القبر آكد من الهجرة إليه في حياته، فإن الهجرة إلى المدينة انقطعت بعد الفتح، كما قال ﷺ « لا هجرة بعد الفتح »، وعند هؤلاء أن الهجرة إلى القبر فرض عين على من استطاع إليه سبيلاً وفي هذا مراغمة صريحة لما جاء به الرسول ﷺ وكذب عليه وعلى الله وهذا من أقبح التنقص.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) الصارم المنكي [ص٣٣٤].

ثانياً:

القول بعدم مشروعية زيارة القبر النبوي

وهذا القول ينسب إلى أكثر الصحابة، كونهم لم يكونوا يقصدون القبر للزيارة، ولو كانت قربة مشروعة لبادروا إليها ولتواتر نقل ذلك عنهم واشتهر، بل المنقول عنهم هو الترك باستثناء عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

* وقد تقدم قول عبيد الله بن عمر « لا نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك » يعني مثل فعل ابن عمر رضي الله عنهما في إتيانه القبر والسلام على الرسول ﷺ وصاحبيه وهذا إسناد صحيح إلى عبيد الله بن عمر، رواه عبد الرزاق عن معمر عنه.

وعبيد الله بن عمر هذا هو العمري المدني[1] أحد الفقهاء السبعة، متفق على عدالته وتوثيقه وبعضهم قدمه على مالك في الرواية عن نافع عن ابن عمر، فلو كان الإتيان إلى القبر للسلام أو للدعاء مشهوراً عن الصحابة لما خفي عليه، وهو من حفاظ أهل المدينة وعلمائهم. بل نفى علمه عن أحد منهم أنه فعل ذلك.

* وقد تقدم أيضاً إنكار الحسن بن علي بن أبي طالب على سهيل بن أبي سهيل لما رآه عند القبر، وقال له "مالي رأيتك عند القبر" ؟ قال سهيل: فقلت "سلمت على النبي ﷺ ". فقال الحسن "إذا دخلت المسجد فسلم". ثم قال "إن رسول الله ﷺ قال: لا تتخذوا قبري عيداً..." الحديث.

فهل تراه خفي على الحسن بن الحسن، وهو من هو في القرب والمكان والعلم بما ينبغي تجاه قبر جده ﷺ ، استحباب الإتيان إليه والوقوف عنده للسلام والدعاء، وعلمه المتأخرون الأبعدون الذين جاءوا من بعده بقرون ؟ !

(١) انظر ترجمته في التهذيب [٣٨/٧].

* ومثل ذلك أيضاً إنكار علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب على الذي رآه يدعو عند القبر، واحتج عليه أيضاً بحديث « لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً، فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية "ثم إن أفضل التابعين من أهل بيته علي بن الحسين ﷺ نهى ذلك الرجل أن يتحرى الدعاء عند قبره ﷺ واستدل بالحديث، وهو راوي الحديث الذي سمعه من أبيه الحسين عن جده علي، وأعلم بمعناه من غيره، فبين أن قصده للدعاء ونحوه اتخاذ له عيداً.

وكذلك ابن عمه حسن بن حسن شيخ أهل بيته، كره أن يقصد الرجل القبر للسلام عليه ونحوه عند دخول المسجد، ورأى أن ذلك من اتخاذه عيداً".

ثم قال ابن تيمية "فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت، الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار، لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم فكانوا لها أضبط" اهـ[1].

قلت: ويتأيد ذلك بما اشتهر عن الإمام مالك رحمه الله، إمام أهل المدينة وعالمها، من كراهيته للرجل أن يقول: زرت قبر النبي ﷺ، وإنكاره على من ينتاب القبر للدعاء ويكثر من السلام عليه، وجعل ذلك من المحدثات التي لم تعهد عن السلف.

قال أبو الوليد الباجي "مسألة: إذا ثبت ذلك فإن من دخل المسجد وخرج لم يلزمه أن يقف بالقبر. قال مالك في المبسوط وإنما ذلك على الغرباء إذا دخلوا وخرجوا وليس عليهم فيما بين ذلك وليس ذلك على أهل المدينة.

قال ابن القاسم: ورأيت أهل المدينة إذا أرادوا الخروج منها أتوا القبر فسلموا، وإذا دخلوا المدينة فعلوا مثل ذلك، قال ابن القاسم: وهو رأي.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم [٢/٦٥٩].

وفرق مالك بين أهل المدينة والغرباء، لأن الغرباء قصدوا لذلك، وأما أهل المدينة فهم مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والمسجد".

ثم قال الباجي "مسألة: وأما الدعاء عند القبر فقد قال مالك في المبسوط: لا أرى أن يقف الرجل عند قبر النبي ﷺ يدعو، ولكن يسلم ثم يمضي"[1].

وذكر نحو هذا القاضي عياض في الشفاء وزاد "فقيل له: إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر، وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة أو المرتين أو أكثر عند القبر، فيسلمون ويدعون ساعة. فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، وتركه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده" اهـ[2].

قال شيخ الإسلام "فقد كره مالك رحمه الله هذا وبيَّن أنه لم يبلغه عن أهل العلم بالمدينة ولا عن صدر هذه الأمة وأولها، وهم الصحابة، وأن ذلك يكره لأهل المدينة إلا عند السفر، ومعلوم أن أهل المدينة لا يكره لهم زيارة قبور أهل البقيع وشهداء أحد وغيرهم، بل هم في ذلك ليسوا بدون سائر الأمصار، فإذا لم يكره لأولئك زيارة القبور، بل يستحب لهم زيارتها عند جمهور العلماء، كما كان النبي ﷺ يفعل، فأهل المدينة أولى أن لا يكره لهم، بل يستحب لهم زيارة القبور كما يستحب لغيرهم اقتداء بالنبي ﷺ. ولكن قبر النبي ﷺ خص بالمنع شرعاً وحساً كما دفن في الحجرة ومنع الناس من زيارة قبره من الحجرة كما يزار سائر القبور فيصل الزائر إلى عند القبر. وقبر النبي ﷺ ليس كذلك، فلا تستحب هذه الزيارة في حقه ولا تمكن، وهذا لعلو قدره وشرفه لا لكون غيره أفضل منه..." انتهى نقله من الصارم المنكي[3].

(١) المنتقى شرح موطأ مالك [١/٢٩٦].
(٢) الشفاء للقاضي عياض [٢/٨٨].
(٣) الصارم المنكي [ص ١١٥ – ١١٦].

* وروى ابن أبي شيبة في المصنف، "باب: من كان يكره التسليم على القبور"، « عن خالد بن الحارث قال:سئل هشام: أكان عروة يأتي قبر النبي ﷺ فيسلم عليه ؟ قال: لا » [(١)].

قلت: فهذا عروة بن الزبير من أجل التابعين [(٢)]، وذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من أهل المدينة، وعده أبو الزناد في فقهاء المدينة السبعة، وقد روى عن خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وكان أعلم الناس بحديثها كما قال ابن عيينة، وكان لا يأتي القبر مع قربه منه وإمكانه الدخول إليه، أفتراه كان جافياً له، أم إنه قد علم أنه لا تشرع زيارته ؟

* وروي عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وكان من أفضل أهل المدينة في زمن التابعين ومن أصلحهم وأعبدهم، وكان قاضي المدينة، أنه كان يكره إتيان القبر النبوي.

ذكر ذلك أبو الحسن علي بن عمر القزويني في أماليه عن عبد الله الزهري عن أبيه عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه عن نوح بن يزيد قال حدثنا أبو إسحاق – يعني إبراهيم بن سعد – قال: ما رأيت أبي قط يأتي قبر النبي ﷺ، وكان يكره إتيانه.

ذكر ذلك ابن عبد الهادي في الصارم [(٣)] نقلاً عن ابن تيمية، وتكلم على إسناده وذكر أن سعد بن إبراهيم أدرك بعض الصحابة وأكابر التابعين وسائر الفقهاء السبعة ثم قال "ومعلوم أنه لم يكن ليخالفهم فيما اتفقوا عليه، بل قد يخالف ابن عمر، فإن ما نقله عنه ابنه يقتضي أنه لا يأتيه لا عند السفر ولا غيره، بل يكره إتيانه مطلقاً، كما كان جمهور الصحابة

(١) مصنف ابن أبي شيبة [٣/٣٤١].
(٢) انظر ترجمته في التهذيب [٧/١٨٠].
(٣) الصارم المنكي [ص ٢٦٥].

على ذلك لما فهموا من نهيه عن ذلك، وأنه أمر بالصلاة عليه والسلام في كل زمان ومكان، وقال «لا تتخذوا قبري عيداً» وقال «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»، كما قد بين هذا في مواضع، والله أعلم" انتهى نقله من الصارم المنكي.

* وقال شيخ الإسلام ابن تيمية "ولهذا كان أكثر السلف لا يفرقون بين الغرباء وأهل المدينة ولا بين حال السفر وغيره، فإن استحباب هذا لهؤلاء وكراهته حكم شرعي يفتقر إلى دليل شرعي، ولا يمكن أحداً أن ينقل عن النبي ﷺ أنه شرع لأهل المدينة الإتيان عند الوداع للقبر وشرع لهم ولغيرهم ذلك عند القدوم من سفر، وشرع للغرباء تكرير ذلك كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه، ولم يشرع ذلك لأهل المدينة فمثل هذه الشريعة ليس منقولاً عن النبي ﷺ ولا عن خلفائه ولا هو معروف من عمل الصحابة، وإنما نقل عن ابن عمر السلام عند القدوم من السفر، وليس هذا من عمل الخلفاء وأكابر الصحابة.

ومما اتفق عليه الصحابة ابن عمر وغيره من أنه لا يستحب لأهل المدينة الوقوف عند القبر للسلام إذا دخلوا المسجد وخرجوا، بل يكره ذلك، يبين ضعف حجة من احتج بقوله « ما من رجل يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام».

فإن هذا لو دل على استحباب السلام عليه من المسجد لما اتفق الصحابة على ترك ذلك، ولم يفرق في ذلك بين القادم من السفر وغيره، فلما اتفقوا على ترك ذلك مع تيسره علم أنه غير مستحب، بل لو كان جائزاً لفعله بعضهم، فدل على أنه كان من المنهي عنه، كما دلت عليه سائر الأحاديث" اهـ[(١)].

قلت: وحجة القائلين بعدم مشروعية الإتيان إلى القبر وقصده للسلام وغيره، هي اتفاق الصحابة على ترك ذلك، سوى ابن عمر، ولو كان مندوباً إليه

(١) الصارم المنكي [ص ١٢٩ – ١٣٠].

لبادروا إلى فعله، ولم يكن أحد أحرص منهم على خير ولا أسبق إلى فضيلة، خاصة فيما يتعلق بالرسول ﷺ، بأبي هو وأمي، وحقوقه وما ينبغي تجاهه وتجاه قبره، فلو كان السلام عليه عند قبره مستحباً أو جائزاً على الأقل لفعلوه أو لفعله أكثرهم، إذ من المعلوم بداهة أن من رأى شخصاً وجالسه وصحبه وأحبه ثم حال بينهما الموت، فهو إلى زيارة قبره والعكوف عنده والسلام عليه أكثر طلباً وأشد حرصاً ممن لم يره ولم يصحبه.

* واحتج القائلون بالمنع بقوله ﷺ «لا تتخذوا قبري عيداً» وفي لفظ «لا تجعلوا قبري عيداً» والعيد هو المكان الذي يجتمع الناس عنده وينتابونه تعظيماً له، ووجه الاستدلال بالحديث، أنه لو كانت زيارة قبره ﷺ مستحبة لتداعت الأمة إليه ولازدحمت الجموع عنده، كما هو مشاهد الآن، وهذا يصيره عيداً، فالنهي عنه مستلزم للنهي عن زيارته لأنها وسيلة إليه.

وآخر الحديث يدل على ذلك، فإنه قال«وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» وفي لفظ«فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم».

ومعناه: أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم منه فلا حاجة بكم إلى الزيارة أصلاً، بل صلوا علي وسلموا حيثما كنتم وأينما حللتم والذي يدل على أن هذا المعنى هو المراد، لا غيره، احتجاج بعض رواته به على منع إتيان القبر حتى للسلام.

فهذا الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ ينكر على سهيل بن أبي سهيل لما رآه عند القبر، ولما سأله قال: سلمت على النبي ﷺ. فقال الحسن: إذا دخلت المسجد فسلمِّ. ثم ذكر له حديث «لا تتخذوا قبري عيداً» . ثم قال "ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء".

فقول الحسن "إذا دخلت المسجد فسلّم" صريح في أن السلام عليه ﷺ

يشرع عند دخول المسجد، ولا حاجة إلى الإتيان إلى القبر للسلام عليه، وأكده بقوله "ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء" فلا مزية لمن قرب من القبر على من تباعد عنه بشيء.

ومثله إنكار زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب على من رآه يأتي القبر ويدعو عنده.

وحاشا السادة آل البيت أن يمنعوا أحداً من فعل قربة يتقربون بها إلى الله عز وجل، خاصة وهي متعلقة بجدهم ﷺ، إلا إذا علموا وتيقنوا أنها ليست بقربة.

* واحتج المانعون من زيارة قبره بأن ذلك أبلغ في تعظيمه وتوقيره والقيام بحقه ﷺ، لأن الصلاة والسلام عليه وسؤال الوسيلة له مشروع في كل مكان، فلو خص قبره بقدر زائد على ذلك كما خصت قبور غيره من الناس، لكان ما يصله من النائي البعيد، من الصلاة والسلام والدعاء، دون ما يصله من الداني القريب المجاور لقبره، وهؤلاء المجاورون مهما كثروا فهم لاشيء في العدد بالنسبة لأولئك البعيدين المنتشرين في الآفاق.

قال شيخ الإسلام "فلو جعلت الصلاة والسلام عليه والدعاء له عند قبره أفضل منها في غير تلك البقعة، كما قد يكون الدعاء للميت عند قبره أفضل لكانوا يخصون تلك البقعة بزيادة الدعاء له، وإذا غابوا عنها تنقص صلاتهم وسلامهم ودعاؤهم، فإن الإنسان لا يجتهد في الدعاء في المكان المفضول كما يجتهد في المكان الفاضل.

وهم قد أمروا أن يقوموا بحق الرسول ﷺ في كل مكان، وأن لا يكون البعيد عن قبره أنقص إيماناً وقياماً بحقه من المجاور لقبره.

وقد شرع لهم أن يصلوا عليه ويسألوا له الوسيلة إذا سمعوا المؤذن حيث كانوا وأن يسلموا عليه في كل صلاة ويصلوا عليه في الصلاة ويسلموا عليه إذا

دخلوا المسجد وإذا خرجوا منه. فهذا الذي أمروا به عام في كل مكان، وهو يوجب من القيام بحقه ورفع درجته وإعلاء منزلته مالا يحصل لو جعل ذلك عند قبره أفضل".

ثم قال شيخ الإسلام "فهذا وغيره مما يبين أن ما نهي عنه الناس ومنعوا منه، وكان السلف لا يفعلونه من زيارة قبره، وإن كان زيارة قبر غيره مستحبة، فهو أعظم لقدره وأرفع لدرجته وأعلى في منزلته، وأن ذلك أقوم بحق الله وأتم وأكمل في عبادته وحده لا شريك له وإخلاص الدين له، ففي ذلك تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله...".

إلى أن قال "وما من دعاء وشهادة وثناء يذكر عند القبر إلا وقد وردت السنة بذلك في سائر البقاع، ولا يمكن أحداً أن يأتي بذكر يشرع عند القبر دون غيره، وهذا تحقيق لنهيه أن يتخذ قبره أو بيته عيداً.

وهذا بخلاف ما شرع عند قبر غيره، كقوله "السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين"، فإن هذا لا يشرع إلا عند القبور لا يشرع عند غيرها وهذا مما يظهر به الفرق بينه وبين غيره، وأن ما شرعه وفعله أصحابه من المنع من زيارة قبره كما تزار القبور هو من فضائله وهو رحمة لأمته ومن تمام نعمة الله عليها" اهـ[1].

قلت: فهذه هي حجة الطرفين وأدلة الفريقين، قد سقتها باختصار، والخلاف في مسألة الزيارة، لا يتعدى كونه خلافاً فقهياً، كسائر مسائل الفقه العملية التي اختلف فيها الفقهاء مما تحتمله النصوص الشرعية، والخطب فيها يسير.

وهذا كله في الزيارة المجردة عن قصد السفر وشد الرحال، أما عن السفر من أجل زيارة القبر النبوي، فهذا ما سنفصله في المسألة التالية.

(١) الصارم المنكي [١٢٠-١٢٧] باختصار.

فصل:

شد الرحال إلى القبر النبوي

أما شد الرحال وإعمال السفر لقصد القبر فهذا منهي عنه، للأحاديث الواردة في ذلك، كما تقدم، وهي قوله ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» وفي لفظ «لا تشدوا الرحال...» وفي لفظ «لا تعمل المطي...».

وكلها صريحة في النهي عن السفر إلى غير المساجد الثلاثة، المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ والمسجد الأقصى، فلا تقصد بقعة للعبادة والصلاة والذكر والدعاء إلا المساجد الثلاثة.

قال ابن الأثير في شرح قوله ﷺ «لا تشد الرحال»: "هذا مثل قوله «لا تعمل المطي»، وكنى به عن السير والنفر، والمراد: لا يقصد موضع من المواضع بنية العبادة والتقرب إلى الله تعالى إلا إلى هذه الأماكن الثلاثة تعظيماً لشأنها وتشريفاً" [1].

قلت: وقد تقدم ذكر شيء من الخلاف في دلالة الحديث على النهي عن شد الرحل إلى القبر، وهذا الخلاف حادث، إذ لم ينقل عن الصحابة والتابعين كلام في ذلك، ولو كان شد الرحل إلى قبر النبي ﷺ مستحباً، كما زعم المخالفون لبادر السلف إليه، وهم لم يقدروا على أن يأتوا بنص واحد صحيح عن أحد من الصحابة أنه سافر إلى القبر قاصداً له.

إذاً فقول المخالف "اتفقت جميع الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس على استحباب زيارة سيد المرسلين ﷺ من قرب ومن بعد" [2]، ما هو إلا دعوى عريضة عريَّة عن الدليل والبرهان إذ لم يأت نص واحد

(١) جامع الأصول [٩/٢٨٣]. (٢) شفاء الفؤاد [ص ٧].

صحيح صريح لا من القرآن ولا من السنة على استحباب الزيارة من قرب فضلاً عن استحبابها من بعد، وقد قدمنا الخلاف في مشروعية الزيارة من غير إعمال سفر، فأين الإجماع المزعوم ؟ ولئن سلمنا في مسألة الزيارة من غير قصد السفر[1]، لفعل ابن عمر رضي الله عنهما، ولكثرة القائلين بها من أهل العلم من أتباع المذاهب الأربعة، فإن دعوى الإجماع على استحباب قصدها بالسفر ضرب من الكذب، الذي درج عليه المخالفون، فقد صرح المحققون من أهل العلم بخلاف ذلك.

قال النووي: "واختلف العلماء في شد الرحال وإعمال المطي إلى غير المساجد الثلاثة كالذهاب إلى قبور الصالحين وإلى المواضع الفاضلة ونحو ذلك، فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا: هو حرام، وهو الذي أشار القاضي عياض إلى اختياره.

والصحيح عند أصحابنا، وهو الذي اختاره إمام الحرمين والمحققون أنه لا يحرم ولا يكره" [2].

وذكر نحوه الحافظ في الفتح[3] حيث قال: "واختلف في شد الرحال إلى غيرها كالذهاب إلى زيارة الصالحين أحياءً وأمواتاً وإلى المواضع الفاضلة لقصد التبرك بها والصلاة فيها، فقال الشيخ أبو محمد الجويني: يحرم شد الرحال إلى غيرها عملاً بظاهر هذا الحديث. وأشار القاضي حسين إلى اختياره، وبه قال عياض وطائفة، ويدل عليه ما رواه أصحاب السنن من إنكار بصرة الغفاري على أبي هريرة خروجه إلى الطور وقال له: لو أدركتك قبل أن تخرج ما خرجت، واستدل بهذا الحديث، فدل على أنه يرى حمل الحديث على عمومه، ووافقه أبو هريرة.

والصحيح عند إمام الحرمين وغيره من الشافعية أنه لا يحرم، وأجابوا عن

(١) وليس فيها إجماع، كما تقدم.

(٢) شرح مسلم [٩ / ١٠٦].

(٣) فتح الباري [٣/٦٥].

الحديث بأجوبة منها أن المراد أن الفضيلة التامة إنما هي في شد الرحال إلى هذه المساجد بخلاف غيرها فإنه جائز..." ثم ساق الحافظ تأويلات أخرى للحديث.

وقال الموفق بن قدامة: "فصل: فإن سافر لزيارة القبور والمشاهد فقال ابن عقيل: لا يباح له الترخص لأنه منهي عن السفر إليها. قال النبي ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» متفق عليه.

والصحيح إباحته وجواز القصر فيه، لأن النبي ﷺ كان يأتي قباء راكباً وماشياً وكان يزور القبور، وقال «زوروها تذكركم الآخرة». وأما قوله ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»، فيحمل على نفي الفضيلة لا على التحريم، وليست الفضيلة شرطاً في إباحة القصر، فلا يضر انتفاؤها" اهـ[1].

قلت: فقد صرح النووي وابن حجر العسقلاني وابن قدامة المقدسي بوجود الخلاف في مسألة شد الرحل إلى القبور، وهم من العلم والفقه والمعرفة بمكان، بحيث لا يخفى عليهم مواضع الإجماع والخلاف، ولم يحكوا في المسألة سوى قولين: التحريم، والجواز، ولم يذكروا الاستحباب أصلاً، فضلاً عن دعوى الإجماع عليه.

ولم ينفرد هؤلاء بذكر الخلاف في المسألة بل تتابع عليه كل الفقهاء المحققين المعنيين بتحرير المسائل ونقل المذاهب.

فإذا تقرر أن في شد الرحال إلى القبور عامة، بما فيها قبر المصطفى ﷺ خلافاً، وأنه يرجع إلى قولين: التحريم والجواز، فلننظر في حجة الفريقين.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) المغني [٣/١١٧].

أولاً:

القائلون بتحريم شد الرحل إلى القبر

* احتج هؤلاء بحديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»، وهذه صيغة نفي وهي بمعنى النهي. قال الحافظ في الفتح "قوله «لا تُشد الرحال» بضم أوله بلفظ النفي، والمراد النهي عن السفر إلى غيرها. قال الطيبي: هو أبلغ من صريح النهي، كأنه قال: لا يستقيم أن يقصد بالزيارة إلا هذه البقاع لاختصاصها بما اختصت به" اهـ(١).

قلت: وقد ورد بلفظ آخر صريح في النهي، فقال«لا تشدوا الرحال»(٢).

ووجه الاستدلال بالحديث على منع السفر لقصد المشاهد والقبور، أنه لفظ دال على العموم فشمل المساجد وغيرها من المواضع، فلا ينبغي قصدها بالسفر، إلا ما استثني من ذلك، وهي المساجد الثلاثة.

أو يقال: إن هذا لفظ يراد به الخصوص، وهي المساجد، فيدخل في ذلك المشاهد والقبور والبقاع الأخرى المعظمة بقياس الأولى، لأنه إذا منع من شد الرحل إلى المساجد، سوى الثلاثة، وهي بيوت الله وأحب البقاع إلى الله تعالى، فبيوت المخلوقين وقبورهم ومشاهدهم أحق بالمنع وأولى.

* واحتجوا كذلك بحديث «لا تجعلوا قبري عيداً»، وقصد السفر إليه في معنى اتخاذه عيداً، إذ العيد منه ما هو زماني، كعيدي الفطر والأضحى، ومنه ما هو مكاني، وهو المكان الذي يقصد وينتاب للعبادة وغيرها، كعرفات والمزدلفة ومنى.

ومما يؤكد ذلك النهي، قوله ﷺ في آخر الحديث«وصلوا عليَّ فإن

---

(١) فتح الباري [٣/٦٤].

(٢) رواه البخاري [٣/٥٧] ومسلم [ح ٨٢٧].

صلاتكم تبلغني حيثما كنتم» وفي لفظ «فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم»، أي فلا تقصدوا قبري بالسفر من أجل ذلك.

* واحتجوا بإجماع الصحابة والتابعين على ذلك، فلم يثبت عن واحد منهم أنه شد الرحل إلى قبر من القبور، لا قبر النبي ﷺ ولا غيره، ولو كان مستحباً لفعلوه، فلم يكن أحد أحرص منهم على الخير، وقد قدمنا الدليل على أنهم لم يعتادوا المجيء إلى قبره للسلام والدعاء وهم في المدينة، سوى ابن عمر رضي الله عنهما، ولم يشد الرحل إليه ولا سافر قصداً إليه، وليس مع المخالفين أثر صحيح في شد الرحل إلى قبره أو قبر غيره من الأنبياء عليهم السلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله "وقبر الخليل عليه السلام بالشام لم يسافر إليه أحد من الصحابة. وكانوا يأتون البيت المقدس فيصلون فيه ولا يذهبون إلى قبر الخليل عليه السلام، ولم يكن ظاهراً بل كان في البناء الذي بناه سليمان بن داود عليهما السلام.

ولا كان قبر يوسف الصديق يعرف ولكن أظهر ذلك بعد أكثر من ثلاثمائة سنة من الهجرة، ولهذا وقع فيه نزاع، فكثير من أهل العلم ينكره.

ولم يكن أحد من الصحابة يسافر إلى المدينة لأجل قبر النبي ﷺ بل كانوا يأتون فيصلون في مسجده ويسلمون عليه في الصلاة، ويسلم من يسلم عند دخول المسجد والخروج منه، وهو ﷺ مدفون في حجرة عائشة رضي الله عنها فلا يدخلون الحجرة ولا يقفون خارجاً عنها في المسجد عند السور..." اهـ[١].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) مجموع الفتاوى [٢٧/٣٣٦].

ثانياً:

القائلون بجواز شد الرحل إلى القبر النبوي

استدل هؤلاء بالأحاديث الواردة في الإذن بزيارة القبور مطلقاً، وأجابوا عن أدلة المانعين بأجوبة، سيأتي ذكرها.

قال ابن قدامة في المغني "فصل: فإن سافر لزيارة القبور والمشاهد، فقال ابن عقيل: لا يباح له الترخص، لأنه منهي عن السفر إليها. قال النبي ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» متفق عليه.

والصحيح إباحته وجواز القصر فيه، لأن النبي ﷺ كان يأتي قباء راكباً وماشياً، وكان يزور القبور، وقال زوروها تذكركم الآخرة.

وأما قوله ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» فيحمل على نفي الفضيلة لا على التحريم، وليست الفضيلة شرطاً في إباحة القصر فلا يضر انتفاؤها" اهـ[١].

فهذه حجة القائلين بالجواز، ولو كان عندهم دليل غير ذلك لذكره الإمام أبو محمد بن قدامة وغيره ممن ذهب إلى إباحة السفر لزيارة القبور.

وقد اعترض الأولون على أدلة هؤلاء فقالوا: إن الأحاديث الواردة في زيارة القبور ليس فيها حديث واحد يدل على شد الرحل إليها، وفعله ﷺ يبين ذلك، فقد كان يزور البقيع وشهداء أحد وهو بالمدينة، وليس في ذلك إعمال سفر ولا شد رحل، ولم يكن أصحابه من بعده يشدون الرحل إلى قبره ولا إلى قبر غيره، وكانوا يزورون القبور ولا يقصدونها بالسفر، فعرف الفرق بين المسألتين، ثم إن القائلين بالجواز قد فرقوا أيضاً بين زيارة القبور بدون شد رحل وزيارتها بشد رحل.

(١) المغني لابن قدامة [٣/١١٧].

قال ابن قدامة في المغني "لا نعلم بين أهل العلم خلافاً في إباحة زيارة الرجل القبور"[1].

فحكى الاتفاق على إباحتها هنا، مع أنه ذكر الخلاف في زيارتها بشد الرحل كما تقدم، وقال النووي في المجموع "اتفقت نصوص الشافعي والأصحاب على أنه يستحب للرجال زيارة القبور وهو قول العلماء كافة، نقل العبدري فيه إجماع المسلمين"[2].

فحكى الاستحباب هنا، لكنه ذكر الخلاف بين أهل العلم من الشافعية وغيرهم في شد الرحل لها، كما تقدم، فذكر قولين: التحريم والجواز لا غير.

وهذا مصير منهم إلى التفريق بين الزيارتين، وهو يضعف الاحتجاج بالأحاديث الواردة في الزيارة، إذ لو كان الاستدلال بها صحيحاً لما فرق في الحكم بين الحالين.

وهذا يقوى حجة من استدل بحديث «لا تشد الرحال» على منع السفر لزيارة القبور، إذ يقال للنووي وغيره الذين ذهبوا إلى الاستحباب في الزيارة المجردة عن قصد السفر، وجواز الأخرى، المصحوبة بقصد السفر، لولا أنكم فهمتم من هذا الحديث ما فهمه المانعون، لما فرقتم بين المسألتين فجعلتم الأولى مستحبة والأخرى جائزة.

* أما استدلال ابن قدامة رحمه الله بإتيان النبي ﷺ قباء، فقد قصد به بيان أن النفي الوارد في حديث شد الرحال ليس للتحريم بل لنفي الفضيلة، وهو يرد بذلك على المحتجين به على تحريم شد الرحال إلى القبور.

وقد أبطل شيخ الإسلام حجة ابن قدامة فقال "وأما السفر إلى بقعة غير

(١) المغني [٣/٥١٧].

(٢) المجموع [٥/٣١٠].

المساجد الثلاثة، فلم يوجب أحد من العلماء السفر إليه إذا نذره، حتى نص العلماء على أنه لا يسافر إلى مسجد قباء، لأنه ليس من المساجد الثلاثة، مع أن مسجد قباء يستحب زيارته لمن كان في المدينة، لأن ذلك ليس بشد رحل، كما في الحديث الصحيح «من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه كان كعمرة».

وبهذا يظهر بطلان حجة أبي محمد المقدسي، لأن زيارة النبي ﷺ لمسجد قباء لم تكن بشد رحل، وهو يسلم لهم أن السفر إليه لا يجب بالنذر" اهـ[1].

وقال العيني في عمدة القاري "فإن قلت: ما الجمع بين قوله ﷺ في الحديث الصحيح «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» وبين كونه كان يأتي مسجد قباء راكباً ؟ قلت: قباء ليس مما تشد إليه الرحال، فلا يتناوله الحديث المذكور" اهـ[2].

* فإذ قد سقطت حجة القائلين بالجواز، فلم يبق إلا النظر في مفهوم حديث شد الرحال، فقد نازعوا المانعين في الاستدلال به على دعواهم.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(١) مجموع الفتاوى [٢٧/١٨٧].

(٢) عمدة القاري [٦/٢٨٥].

شرح حديث « لا تُشدُّ الرِّحال »

قال الحافظ في الفتح: « قوله: «لا تُشد الرحال» بضم أوله بلفظ النفي، والمراد النهي عن السفر إلى غيرها. قال الطيبي: هو أبلغ من صريح النهي، كأنه قال: لا يستقيم أن يقصد بالزيارة إلا هذه البقاع لاختصاصها بما اختصت به.

قوله « إلا» الاستثناء مفرغ، والتقدير: لا تشد الرحال إلى موضع، ولازمه منع السفر إلى كل موضع غيرها، لأن المستثنى منه في المفرغ مقدر بأعم العام، لكن يمكن أن يكون المراد بالعموم هنا الموضع المخصوص وهو المسجد، كما سيأتي.

قال بعض المحققين: قوله «إلا إلى ثلاثة مساجد» المستثنى منه محذوف. فإما أن يقدر عاماً فيصير لا تشد الرحال إلى مكان في أي أمر كان إلا إلى الثلاثة، أو أخص من ذلك. لا سبيل إلى الأول لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها فتعين الثاني. والأولى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة. وهو لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة، فيبطل بذلك قول من منع شد الرحال إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين، والله أعلم.

وقال السبكي الكبير: ليس في الأرض بقعة لها فضل لذاتها حتى تشد الرحال إليها غير البلاد الثلاثة، وأما غيرها من البلاد فلا تشد إليها لذاتها بل لزيارة أو جهاد أو علم أو نحو ذلك من المندوبات أو المباحات.

قال: وقد التبس ذلك على بعضهم فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة لمن في غير الثلاثة داخل في المنع، وهو خطأ، لأن الاستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه، فمعنى الحديث لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد أو إلى مكان من الأمكنة لأجل ذلك المكان إلا إلى الثلاثة المذكورة، وشد الرحال إلى زيارة أو طلب علم ليس إلى المكان بل إلى من في ذلك المكان، والله أعلم » اهـ[١] باختصار.

---

(١) فتح الباري [٣/٦٤-٦٦].

وقال العيني في عمدة القاري "وشد الرحل كناية عن السفر لأنه لازم للسفر، والاستثناء مفرغ، فتقدير الكلام: لا تشد الرحال إلى موضع أو مكان. فإن قيل: فعلى هذا يلزم أن لا يجوز السفر إلى مكان غير المستثنى، حتى لا يجوز السفر لزيارة إبراهيم الخليل صلوات الله تعالى وسلامه عليه ونحوه، لأن المستثنى منه في المفرغ لابد أن يقدر أعم العام. وأجيب بأن المراد بأعم العام ما يناسب المستثنى نوعاً ووصفاً، كما إذا قلت: ما رأيت إلا زيداً، كان تقديره: ما رأيت رجلاً أو أحداً إلا زيداً، لا ما رأيت شيئاً أو حيواناً إلا زيداً، فهاهنا تقديره: لا تشد إلى مسجد إلا إلى ثلاثة" إلى أن قال "قال شيخنا زين الدين: من أحسن محامل هذا الحديث أن المراد منه حكم المساجد فقط، وأنه لا يشد الرحل إلى مسجد من المساجد غير هذه الثلاثة. فأما قصد غير المساجد من الرحلة في طلب العلم وفي التجارة والتنزه وزيارة الصالحين والمشاهد وزيارة الإخوان ونحو ذلك فليس داخلاً في النهي.

وقد ورد ذلك مصرحاً به في بعض طرق الحديث في مسند أحمد: حدثنا هاشم حدثنا عبد الحميد حدثني شهر سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، وذكر عنده الصلاة في الطور فقال: قال رسول الله ﷺ «لا ينبغي للمطي أن يشد رحاله إلى مسجد يبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا» وإسناده حسن. وشهر بن حوشب وثقه جماعة من الأئمة" اهـ[1].

وقال المناوي في فيض القدير " «إلا إلى ثلاثة مساجد» الاستثناء مفرغ، والمراد لا تسافر لمسجد للصلاة فيه إلا لهذه الثلاثة، لا أنه لا يسافر أصلاً إلا لها، والنهي للتنزيه عند الشافعية كالجمهور. وقول عياض والجويني والقاضي حسين للتحريم، فيحرم شدة الرحل لغيرها كقبور الصالحين والمواضع الفاضلة.

قال النووي: غلط، فإن قوله: "لا تشد" معناه: لا فضيلة في شدها" اهـ[2].

---

(١) عمدة القاري [٢٧٦/٦ - ٢٧٨].

(٢) فيض القدير [٤٠٣/٦].

وخلاصة ما حمل عليه الحديث من وجوه، كما أشار إليها الحافظ في الفتح[1]، هي:

الأول: أن المراد أن الفضيلة التامة إنما هي في شد الرحال إلى هذه المساجد بخلاف غيرها فإنه جائز.

الثاني: أن النهي مخصوص بمن نذر على نفسه الصلاة في مسجد من سائر المساجد غير الثلاثة فإنه لا يجب الوفاء به.

الثالث: أن المراد حكم المساجد فقط وأنه لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد للصلاة فيه غير هذه الثلاثة، وأما قصد غير المساجد لزيارة صالح أو قريب أو صاحب أو طلب علم أو تجارة أو نزهة فلا يدخل في النهي.

الرابع: أن المراد قصدها بالاعتكاف، فلا يعتكف في غيرها.

وقد أجاب عن ذلك كله شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: « هذا استثناء مفرغ، والتقدير فيه أحد أمرين:

* إما أن يقال "لا تشد الرحال" إلى مسجد "إلا المساجد الثلاثة" فيكون نهياً عنها باللفظ، ونهياً عن سائر البقاع التي يعتقد فضيلتها بالتنبيه والفحوى وطريق الأولى، فإن المساجد والعبادة فيها أحب إلى الله من العبادة في تلك البقاع بالنص والإجماع. فإذا كان السفر إلى البقاع الفاضلة قد نهي عنه، فالسفر إلى المفضولة أولى وأحرى.

وكذلك من جعل معنى الحديث: لا يستحب السفر إلا إلى الثلاثة، إن جعل معناه: لا يجب إلا إلى الثلاثة، وأراد به الوجوب بالنذر، كما ذكر ذلك طائفة، فهؤلاء يقولون: ما سوى الثلاثة لا يستحب السفر إليه، ولا يجب بالنذر.

---

(١) فتح الباري [٦٥/٣].

ومن حمل معنى الحديث على نفي الاستحباب أو نفي الوجوب بالنذر فقولهما واحد في المعنى، فإذا لم يجب بالنذر إلا هذه الثلاثة فقد وجب بالنذر السفر إلى المسجدين، وليس واجباً بالشرع. فعلم أن وجوبه لكونه مستحباً بالشرع، فإذا لم يوجب إلا هذان مما ليس واجباً بالشرع علم أنه ليس مستحباً إلا هذان.

* وإما أن يقال: التقدير لا تسافروا إلى بقعة ومكان غير الثلاثة. أو يكون المعنى: لا يستحب إلى مكان غير الثلاثة، وهو معنى كل من قال: لا يجب بالنذر إلى غير الثلاثة، أي: لا تسافروا لقصد ذلك المكان والبقعة بعينه، بحيث يكون المقصود والعبادة في نفس تلك البقعة، كالسفر إلى المساجد الثلاثة، بخلاف السفر إلى الثغور فإن المقصود السفر إلى مكان الرباط.

فالمسافر إلى الثغور أو طلب العلم أو التجارة أو زيارة قريبه ليس مقصوده مكاناً معيناً إلا بالعرض إذا عرف أن مقصوده فيه، ولو كان مقصوده في غيره لذهب إليه.

فالسفر إلى مثل هذا لم يدخل في الحديث باتفاق العلماء، وإنما دخل فيه من يسافر لمكان معين لفضيلة ذلك بعينه، كالذي يسافر إلى المساجد وآثار الأنبياء، كالطور الذي كلم الله عليه موسى، وغار حراء الذي نزل فيه الوحي ابتداء على الرسول.

فإذا كان الطور الذي كلم الله عليه موسى وسماه البقعة المباركة والوادي المقدس لا يستحب السفر إليه، فغير ذلك من الجبال أولى أن لا يسافر إليه. فإن الصحابة كابن عمر وأبي سعيد وأبي بصرة وغيرهم فهموا من قول النبي ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» أن الطور الذي كلم الله عليه موسى، وسماه: الوادي المقدس، و: البقعة المباركة، داخل في النهي، ونهوا الناس عن السفر إليه، ولم يخصوا النهي بالمساجد، ولهذا لم يوجب أحد ذلك بالنذر.

والأماكن المفضلة هي المساجد، وهي أحب البقاع إلى الله، كما ثبت ذلك

في الصحيح عن النبي ﷺ . وفيها الاعتكاف، فلا يكون الاعتكاف إلا في المساجد باتفاق العلماء، كما قال تعالى ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ لا يكون الاعتكاف لا بخلوة ولا غير خلوة لا في غار ولا عند قبر ولا غير ذلك مما يقصد الضالون السفر إليه والعكوف عنده كعكوف المشركين على أوثانهم قال الخليل ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾» اهـ[1] باختصار.

قلت: فتضمن كلام شيخ الإسلام الرد على سائر الوجوه التي حمل عليها الحديث وعورض بها الاستدلال به على تحريم شد الرحال إلى القبور، بما في ذلك قبر نبينا *عليه الصلاة والسلام* وقد تبين أن هذا القول هو مذهب الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين رضوان الله عليهم أجمعين، إذ لم ينقل أحد من الفقهاء المحققين، كابن قدامة المقدسي والنووي وابن حجر العسقلاني ونحوهم ممن عني بتحرير المذاهب واستيعاب الأقوال وأدلتها، لم ينقلوا نصاً واحداً عن السلف يبيح السفر إلى القبور، وإنما ذكروا ذلك عن بعض المتأخرين من الفقهاء من أتباع المذاهب الأربعة.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) مجموع الفتاوى [٢٧/ ٢٤٧ – ٢٥٢].

فصـــــل:

واعلم أن هذا القول، أعني تحريــم شـد الرحـال إلى القبـور، مـع كونـه هـو مذهب السلف، وهو الـذي تقتضيه أدلـة الشـرع، الـتي منهـا مـا هـو صريـح أو كالصريح في الدلالة على المراد، كحديث «لا تُشد الرحال»، ومنها مـا يتضمنـه ويستلزمه، كحديث «لا تتخذوا قبري عيداً» وأحاديث النهـي عـن اتخاذ القبـور مساجد، إلا أن بعض المتأخرين نسبوه إلى ابن تيمية وحـده وجعلوه مـن أفـراده، وامتحن رحمه الله بسبب ذلك من قبل بعض القضاة في عصره، فحكموا بمنعه مـن الفتيا وبحبسه، والقصة مشهورة معلومة، مع أنه قد سبقه إلى القول بذلـك جمهـور السلف وطائفة من الخلف، كالقاضي عياض، وهو من أئمة المالكيـة، وأبـي محمـد الجويني من أئمة الشافعية، وابن عقيل وهو من مشـاهير علمـاء الحنابلـة، وكلهـم سابقون لابن تيمية وقد قالوا بتحريم شد الرحل إلى القبور، والذين حكوا أقوالهم وذكروا الخلاف في المسألة كابن قدامة المقدسي والنووي سابقون له أيضاً، فكيف يدعى بعد ذلك انفراده بهذا القول ويشنع عليه ذلك التشنيع ؟!

وقد انتصر لهذا القول جمهرة من أهل العلم في عصر شيخ الإسلام وبعـده ولولا ضيق المقام وخشية الإملال لسردت أقوالهم، وأكتفي بذكـر أسمـاء بعضهـم ممن وقفت على قوله:

فمنهم ابن الكتبي الشافعي ومحمد بن عبد الرحمن البغدادي المالكي وابـن البـتي الحنبلي وأبو عمرو بن أبي الوليد المالكي، وهؤلاء كانوا معاصرين لشيخ الإسلام، ولما سجن بسبب فتواه في شد الرحال، كتبوا مؤيدين له فيما ذهب إليه[١].

ومنهم الأئمة الأعـلام: ابـن القيـم، وابـن عبـد الهـادي، وابـن كثـير، وهـم معاصرون لشيخ الإسلام وتلامذة له.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى [٢٧/١٩٤ – ٢٠٦].

ومن المتأخرين: صديق حسن خان القنوجي، والمباركفوري شارح الترمذي، وشمس الحق الآبادي صاحب عون المعبود، والشيخ عبد العزيز الدهلوي، والشيخ ولي الله صاحب كتاب حجة الله البالغة، والشنقيطي صاحب أضواء البيان، وعلامة الشام جمال الدين القاسمي، ورشيد رضا، ومحب الدين الخطيب، وأحمد شاكر، والمعلمي اليماني، ومحمد عبد الرزاق حمزة، والألباني ... وغيرهم ممن لا يحصيهم عدد من مشاهير علماء الأمصار.

وليس المقصود من ذكر هؤلاء الاحتجاج بأقوالهم ومذاهبهم[1]، وإنما الغرض الرد على من زعم انفراد ابن تيمية بهذا المذهب.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(١) لأن الاحتجاج إنما هو بالنصوص الشرعية، أما أقوال العلماء فيحتج لها، لا بها.

فصـــل:

وإنما الذي انفرد حقيقة عن أقوال سائر الأمة وخالف مذاهب كل الأئمة هم هؤلاء المخلِّفون، السبكي والهيتمي والعلوي وأضرابهم الذين قالوا باستحباب شد الرحال إلى القبور وجعلوها من أفضل القربات، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فجعلوها من فروض الأعيان، كما مر ذكره من قبل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله "إن علماء المسلمين إذا تنازعوا في مسألة على قولين لم يكن لمن بعدهم إحداث قول ثالث، بل القول الثالث يكون مخالفاً لإجماعهم. والمسلمون تنازعوا في السفر لغير المساجد الثلاثة على قولين: هل هو حرام، أو جائز غير مستحب. فاستحباب ذلك قول ثالث مخالف للإجماع، وليس من علماء المسلمين من قال يستحب السفر لزيارة القبور ولا يستحب إلى المساجد، بل السفر إلى المساجد قد نقل عن بعضهم أنه قال: مستحب يجب بالنذر. وأما السفر إلى القبور لم يقل أحد منهم إنه مستحب ولا أنه يجب بالنذر"[1].

وقال في موضع آخر "ومعلوم في كل عمل تنازع المسلمون فيه هل هو محرم أو مباح ليس بقربة أن من جعله قربة فقد خالف الإجماع، وإذا فعله متقرباً به كان ذلك حراماً بالإجماع، كما لو تقرب بلعب النرد والشطرنج واستماع الغناء والمعازف، ونحو ذلك مما للناس فيه قولان: التحريم والإباحة، لم يقل أحد إنها قربة. فالذي يجعله عبادة يتقرب به كما يتقرب بالعبادات، قد فعل محرماً بالإجماع" اهـ[2] باختصار.

قلت: وليت هؤلاء المخلِّفين اقتصروا في مخالفتهم لإجماع المسلمين على ذلك، بل خالفوهم في أعظم من ذلك فجوزوا الشرك بأصحاب القبور ودعاءهم

(١) مجموع الفتاوى [٣٠٨/٢٧].
(٢) مجموع الفتاوى [٢٢٩/٢٧].

من دون الله واستغاثتهم وسؤالهم الحاجات وتفريج الكربات ومغفرة الذنوب والزلات، فوقعوا في أكبر الموبقات وأعظم المحرمات. ولم يكتفوا بذلك بل صاروا دعاة إلى الشرك الأكبر يدعون الناس إليه ويرغبونهم فيه، وما تركوا من سبيل لإغواء الناس وإضلالهم والتلبيس عليهم إلا سلكوه، أعاذنا الله وإياكم وسائر المسلمين من شرهم وكيدهم ومكرهم.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

تفضيل القبر على العرش

ومن المسائل الغريبة التي أوردها المخالفون، زعمهم: أن القبر النبوي أفضل من العرش والكرسي ومن جنة عدن، ومن سائر ما في الكون.

وزعمهم: أن المسجد النبوي ما شرف ولا عظم إلا من أجل القبر. فقد جاء في قصيدة الهيتمي التي ساقها المخالف في "الذخائر" :

وبقعته التي ضمته حقاً ... رياض من جنان تستطيل
وأفضل من سموات وأرض ... وأملاك بأفلاك تجول
ومن عرش ومن جنات عدن ... وفردوس بها خير جزيل

ثم نقل كلام محمد حبيب الشنقيطي في شرح هذه الأبيات، فقال "قال القسطلاني في المواهب اللدنية: وأجمعوا على أن الموضع الذي ضم أعضاءه الشريفة ﷺ أفضل بقاع الأرض حتى موضع الكعبة، بل نقل التاج السبكي عن ابن عقيل الحنبلي أنها، أي البقعة التي قبر فيها عليه الصلاة والسلام، أفضل من العرش. وصرح الفاكهاني بتفضيلها على السموات..." اهـ[١] باختصار.

وقال في موضع آخر "وكذلك يشرع شد الرحل إلى مسجده ﷺ، الذي ما شرف وعظم إلا بإضافته إليه، ولكون قبر سيد المرسلين فيه" [٢] .

والجواب: إن هذا القول من أفسد الأقوال وأنكرها، وبطلانه ظاهر لمخالفته للأدلة الشرعية والعقلية، ولم يستند قائله إلى دليل أو إلى شبهة دليل، وإنما هو الظن، والظن أكذب الحديث، كما صح في الحديث[٣] .

---

(١) الذخائر [ص ٤٤-٤٩].

(٢) شفاء الفؤاد [ص ٢٩].

(٣) رواه البخاري [٤٨٤/١٠] ومسلم [٢٥٦٣] بلفظ " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ".

وقد فند هذا القول شيخ الإسلام رحمه الله ، فقال "أما نفس محمد ﷺ، فما خلق الله خلقاً أكرم عليه منه. وأما نفس التراب، فليس هو أفضل من الكعبة البيت الحرام، بل الكعبة أفضل منه، ولا يعرف أحد من العلماء فضل تراب القبر على الكعبة إلا القاضي عياض، ولم يسبقه أحد إليه، ولا وافقه أحد عليه، و الله أعلم" اهـ[1].

وقال في موضع آخر "وكذلك مسجد نبينا، بناه أفضل الأنبياء، ومعه المهاجرون والأنصار، وهو أول مسجد أذن فيه في الإسلام، وفيه كان الرسول يصلي بالمسلمين الجمعة والجماعة، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وفيه سنت السنة، وكانت الصلاة فيه بألف، والسفر إليه مشروعاً في حياة النبي ﷺ، وليس عنده قبر.

والفرق بين البيت والمسجد مما يعرفه كل مسلم، فإن المسجد يعتكف فيه، والبيت لا يعتكف فيه. والمسجد لا يمكث فيه جنب ولا حائض، وبيته كانت عائشة تمكث فيه وهي حائض، وكذلك كل بيت مرسوم تمكث فيه المرأة وهي حائض، وكانت تصيبه فيه الجنابة فيمكث فيه جنباً حتى يغتسل، وفيه ثيابه وطعامه وسكنه وراحته، كما جعل الله البيوت.

ومعلوم أنه ﷺ في حال حياته كان هو وأصحابه أفضل ممن جاء بعدهم، وعبادتهم أفضل من عبادة من جاء بعدهم. وهم لما ماتوا لم تكن قبورهم أفضل من بيوتهم التي كانوا يسكنونها في حال الحياة، ولا أبدانهم بعد الموت أكثر عبادة لله وطاعة مما كانت في حال الحياة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال«أحب البقاع إلى الله المساجد» فليس في البقاع أفضل منها، وليست مساكن الأنبياء، لا أحياء ولا أمواتاً بأفضل من المساجد هذا هو الثابت بنص الرسول واتفاق علماء أمته. وما ذكره بعضهم

(١) مجموع الفتاوى [٣٨/٢٧].

من أن قبور الأنبياء والصالحين أفضل من المساجد، وأن الدعاء عندها أفضل من الدعاء في المساجد، حتى في المسجد الحرام والمسجد النبوي، فقول يعلم بطلانه بالاضطرار من دين الرسول، ويعلم إجماع علماء الأمة على بطلانه إجماعاً ضرورياً، كإجماعهم على أن الاعتكاف في المساجد أفضل منه عند القبور.

وما ذكره بعضهم من الإجماع على تفضيل قبر من القبور على المساجد كلها، فقول محدث في الإسلام، لم يعرف عن أحد من السلف، ولكن ذكره بعض المتأخرين، فأخذه عنه آخر وظنه إجماعاً، لكون أجساد الأنبياء أنفسها أفضل من المساجد. فقولهم يعم المؤمنين كلهم، فأبدانهم أفضل من كل تراب في الأرض.

ولا يلزم من كون أبدانهم أفضل، أن تكون مساكنهم أحياء وأمواتاً أفضل، بل قد علم بالاضطرار من دينهم أن مساجدهم أفضل من مساكنهم.

وقد يحتج بعضهم بما روي من أن«كل مولود يُذَرُّ عليه من تراب حفرته»، فيكون قد خلق من تراب قبره. وهذا الاحتجاج باطل لوجهين:

أحدهما: أن هذا لا يثبت، وما روي فيه كله ضعيف. والجنين في بطن أمه يعلم قطعاً أنه لم يذر عليه تراب، ولكن آدم نفسه هو الذي خلق من تراب، ثم خلقت ذريته من سلالة من ماء مهين. ومعلوم أن ذلك التراب لا يتميز بعضه لشخص وبعضه لشخص آخر، فإنه إذاً استحال وصار بدناً حياً، لـمَّا نفخ في آدم الروح، فلم يبق تراباً.

والوجه الثاني: أنه لوثبت أن الميت خلق من ذلك التراب، فمعلوم أن خلق الإنسان من مني أبويه أقرب من خلقه من التراب. ومع هذا فالله يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي. يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، فيخلق من الشخص الكافر مؤمناً، نبياً وغير نبي، كما خلق الخليل من آزر، وكما خلق نبينا ﷺ من أبويه. وقد أخرج من نوح، وهو رسول كريم، ابنه

الكافر الذي حق عليه القول، وأغرقه ونهى نوحاً عن الشفاعة فيه. وأكثر المهاجرين والأنصار مخلوقون من آبائهم وأمهاتهم الكفار. فإذا كانت المادة القريبة التي يخلق منها الأنبياء والصالحون لا يجب أن تكون مساوية لأبدانهم في الفضيلة، لأن الله يخرج الحي من الميت، فأخرج البدن المؤمن من مني كافر، فالمادة البعيدة، وهي التراب، أولى أن لا تساوي أبدان الأنبياء والصالحين.

وهذه الأبدان عبدت الله وجاهدت فيه، ومستقرها الجنة. وأما المواد التي خلقت منها هذه الأبدان، فما استحال منها وصار هو البدن فحكمه حكم البدن، وأما ما فضل منها فذاك بمنزلة أمثاله.

فتراب القبور إذا قدر أن الميت خلق من ذلك التراب فاستحال منه وصار بدن الميت، فهو بدنه، وفضله معلوم. وأما ما بقي في القبر فحكمه حكم أمثاله. بل تراب كان يلاقي جباههم عند السجود، وهو أقرب ما يكون العبد من ربه المعبود، أفضل من تراب القبور واللحود" اهـ[1] باختصار.

ويقال أيضاً: إنه يلزم على ذلك القول الفاسد، تفضيل كل بقعة وطئتها قدما رسول الله ﷺ، أو لامسها جسده الشريف، على سائر البقاع والمساجد، وعلى الجنة والكرسي والعرش، فلا يكون ذلك خاصاً بالقبر أو البيت الذي يسكنه.

فهل يقول عاقل إن موضعاً قضى فيه النبي ﷺ حاجته في الصحراء أفضل من الكعبة والعرش والكرسي ؟

فإن قيل: إن التفضيل ليس للبقعة ذاتها، بل لمن حلَّ فيها، أما هي فكمثلها من البقاع.

فالجواب: وهذا باطل أيضاً، فإن تفضيل الأزمنة والأمكنة والأشخاص لا يخضع لقياس، بل هو أمر توقيفي، فالله تعالى فضل بعضها على بعض، ففضل

(١) مجموع الفتاوى [٢٧/٢٦٠- ٢٦٣].

رمضان على سائر الشهور، وفضل الجمعة ويوم عرفة على سائر الأيام، وفضل المساجد الثلاثة على سائر البقاع، ومنها بيوت الأنبياء ومساكنهم التي يأوون إليها.

وقد كان النبي ﷺ يتحنث في غار حراء، ولم يصيره ذلك أفضل من الكعبة ولا المساجد، لا في وقت تحنثه فيه ولا بعد ذلك.

* ويلزم من تفضيل القبر على الكرسي والعرش، تفضيل المخلوق على الخالق، فإن الأول إن كان قد ضم جسد المصطفى، فالعرش الرحمن عليه استوى. وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الكرسي موضع القدمين[1].

وقول يؤدي إلى مثل هذه الإلزامات الباطلة، حري بأن يطرح ويضرب به عرض الحائط.



(١) رواه ابن خزيمة في التوحيد [١/٢٤٨-٢٤٩] والحاكم [٢/٢٨٢].

المبحث الرابع

التوسل

من أعظم شبهات المخالفين التي شبهوا بها على الخلق، وتوسلوا بها لإشاعة الشرك وإفشائه فيهم، مسألة التوسل بالأنبياء والصالحين، بمعنى الإقسام بهم واتخاذهم وسائط وشفعاء يقربونهم إلى الله زلفى، مضاهاة لفعل المشركين الأولين.

وحرفوا من أجل ذلك معنى النصوص الواردة في التوسل الشرعي، وهو التوسل بالإيمان بالرسل وطاعتهم، وبدعائهم وشفاعتهم.

قال المخالف "من أعظم القربات والطاعات التي يفرح بها الزائر، هي التوسل برسول الله ﷺ، إذ التوسل بالنبي ﷺ وغيره من الأنبياء والأولياء جائز بل مندوب، وهو بمعنى الدعاء والسؤال من الله تعالى بجاههم لديه، والتوجه إليه بحرمتهم عنده".

ثم استدل على ذلك بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. [المائدة : ٣٥].

وحرف معناها، فقال "وذلك أن ابتغاء الوسيلة إليه هو التوسل إليه بما يقربه إليه سواء في ذلك الأعمال والأشخاص أولوا المكانة والجاه عنده، إبقاء للمطلق على إطلاقه..." (١).

فلم يقتصروا في التوسل على الأنبياء بل جاوزوهم إلى غيرهم من الأولياء أولي الجاه والمكانة عند الله.

---

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٥٦].

وسيأتي بيان المعنى الحق للآية المذكورة، وكشف تحريفهم لها ولغيرها من النصوص.

وهذا المعنى الذي ذكره المخالف للتوسل، وهو سؤال الله بجاه الأنبياء والصالحين، مع كونه بدعة ضلالة ، إلا أنه أقل ضلالاً مما ذكره في موضع آخر،

*حيث قال في معرض زيارة قبور الأنبياء، نقلاً عن ابن الحاج "ثم يتوسل إلى الله بهم في قضاء مآربه ومغفرة ذنوبه، ويستغيث بهم ويطلب حوائجه منهم، ويجزم بالإجابة ببركتهم، ويقوي حسن ظنه في ذلك فإنهم باب الله المفتوح...".

ولم يكتف بتقرير هذا الشرك الصريح، فزاد عليه أضعافه، فقال "وأما في زيارة سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وسلامه، فكل ما ذكر يزيد أضعافه...".

قال المخالف عقب ذلك "فانظر إلى هذا الكلام الذي يفيض تقىً ويرشح إيماناً من هذا العالم الذي أمضى حياته في إحياء السنة والتباعد عن البدعة.

وانظر إلى قوله: قال علماءنا[1]، كيف يشير إلى أن ما نقله، قد اجتمع عليه العلماء. وانظر إلى قوله رضي الله عنه: ومن اعتقد خلاف هذا فهو محروم" اهـ[2].

قلت: قد نظرنا إلى قوله ثلاث مرات، كما رسمتَ، فوجدناه قولاً ساقطاً يفيض كفراً ويرشح شركاً، ووجدناك شريكاً له في الإثم والجرم.

وزعمك أن قوله "قال علماؤنا" يعني إجماع العلماء، كذب فاضح، فهذه العبارة كثيراً ما ترد على ألسنة العلماء، ولايقصدون بها إجماع أهل العلم، وإنما يقصدون بها عادة علماء المذهب الذي ينتمون إليه، أو البلد الذي يقطنون فيه، ونحو ذلك، ولايعنون بها ألبتة إجماع الكافة، كما هو ظاهر من نفس اللفظ "علماؤنا".

(١) كذا في الأصل، والصواب : علماؤنا.
(٢) شفاء الفؤاد [ص ٩٦ – ٩٨].

وقولك "ومن اعتقد خلاف هذا فهو محروم"، صوابه "فهو مرحوم"، إذ المحروم من اعتقد مثل ذلك الكفر والشرك، والمرحوم من عصمه الله تعالى منه ونجاه. وقد تقدم إيراد هذا النص بعينه والرد عليه في الكتاب الأول، والمقصود هنا بيان مذهبهم في التوسل، وأنه ليس مقصوراً على الإقسام بالأنبياء والصالحين وسؤال الله بجاههم، بل جعلوهم وسائط يدعونهم ويرجونهم ويستغيثون بهم، كفعل المشركين السابقين.

بل زادوا عليهم وغلوا فوق غلوهم، ولم يقتصروا على التوسل بالمخلوق إلى الخالق، بل توسلوا بالمخلوق إلى المخلوق.

فقد جاء في قصيدة عمر الخلوتي، الذي وصفه المخالف بقوله: الإمام العارف بالله، هذه الأبيات، وهو يخاطب الرسول ﷺ :

يا ملاذ الورى وخير عيان ... ورجاءً لكل دانٍ وقصي
لك وجهي وجهت يا أبيض الوجه ... فوجّه إليه وجه الولي
أفترضى الرجوع لي مثلما جئتك ... صفر اليدين يا ذا الصفي؟
قد توسلت عند بابك بالصِّديق ... والصاحب التقي النقي
وبفاروقك الضجيع الذي قد ... كنت ترضي بحكمه المرضي
وبعثمان ذي الحياء شهيد الدار ... من حاز كل وصف بهي
وبيعسوبك الإمام علي ... قالع الباب في الوغى الخيبري [1]

قلت: فتوسلَ بالراشدين الأربعة، رضي الله عنهم، إلى النبي ﷺ إذ هو المعبود الأصل، عنده، وهم وسائط يتوسل بهم إليه، وهذا لم يجرؤ على مثله عباد يغوث ويعوق ونسر واللات والعزى وهبل، وقد أكد ذلك بقوله قبل "يا ملاذ

(١) الذخائر [ص ١٦٦].

الورى ... ورجاء لكل دان وقصي ... لك وجهي وجهت ..." فهذه أوصاف الإله المعبود، لا أوصاف الوسيط المخلوق.

* ومثله ما جاء في أبيات الحبشي، الذي وصفه المخالف بقوله "الإمام العارف بالله الحبيب علي بن محمد الحبشي رضي الله عنه" :

يا ملاذ الكل يا أهل الندى ... يا كريم الأصل يا رب الحور
يا غياث الخلق يا ذا الفضل ... والجود والإحسان في بحر وبر
يا رسول الله غوثاً عاجلاً ... يدفع البلواء عنا والضرر
فبحق الطهر طهّر سيدي ... بجميع الأرض من هذا الضرر
وبحق الحسنين ارفع لما ... قد عرى وارحم فقد زاد الحذر(١)

قلت: فتوسل هنا بالطهر وبالحسن والحسين رضي الله عنهما إلى النبي ﷺ، الذي جعله إلهاً من دون الله يدعوه ويرجوه ويتوسل إليه بالمقربين عنده.

ومثله ما جاء في قصيدة النبهاني:

وأتاكم مستشفعاً بأخيكم ... جبرئيل ومن حوته السماء
وبأولادكم رقية عبد الله ... منهم وللبتول ارتقاء
أم كلثوم زينب القاسم إبراهيم ... نعم البنات والأبناء
وبأهل العباء أنت علي ... حسن والحسين والزهراء
وبنيهم ومن تناسل منهم ... فلهم حكم من حواه العباء
فتداركه قبل أن تخطر ... الأخطار فاليوم مسَّه الإعياء
وتكَّرم بشَدَّةٍ فقُواه ... نالها بالشدائد استرخاء(٢)

(١) شفاء الفؤاد [ص ٢٣٠-٢٣١].
(٢) شفاء الفؤاد [ص ٢١٩].

قلت: فتوسل بجبريل والملائكة إلى الرسول ﷺ، وبأهل بيته وبنيهم، فهو عنده الإله الأعظم، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١].

* وجاء في أبيات من القصيدة الوترية، التي دبجها المخالف بقوله "هذه القصيدة العصماء للإمام الفاضل الأديب الكامل الواعظ الصالح الزاهد أبي عبد الله مجد الدين محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي، وقد حظيت أن ينقش أكثرها أمام المواجهة النبوية الشريفة" :

إليك رسول الله أصبحت أهرب ... بذلي بإفلاسي بفقري بفاقتي
فإني عليكم ذلك اليوم أحسب(١) ... بجاهك أدركني إذا حوسب الورى

قلت: فتوسل إلى الرسول ﷺ بذله وفقره إليه، كما يتوسل إلى الخالق بذلك. وتوسل إليه أيضاً بجاهه، كما يتوسل المؤمنون إلى الله بصفاته، فما الذي أبقاه لله ؟

والمقصود أن هؤلاء المخالفين لم يقتصروا على التوسل إلى الخالق بجاه المخلوقين وأشخاصهم، إذاً لكان الخطب أهون، وإنما غلوا أكثر فاتخذوهم وسائط يدعونهم ويرجونهم ويستغيثونهم من دون الله ، فطابقوا فعل المشركين الذين قال الله فيهم ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣].

وقد تقدم بيان حقيقة الشرك، وما كان عليه المشركون الأولون، فهم لم يعتقدوا في آلهتهم أنها تخلق وترزق وتدبر الأمر، بل أقروا بأن ذلك حق خالص لله.

وكانوا يعبدون الله ويدعونه ويرجونه، لكنهم لم يوحدوه بذلك إلا في حال

(١) شفاء الفؤاد [ص ٢٠٥-٢٠٦].

الشدة والاضطرار، أما في غير ذلك فكانوا يدعون معه آلهتهم، من الملائكة والأنبياء والصالحين ويتوسلون إلى الله بهم.

فسمى الله ذلك شركاً وكفراً وظلماً وفسقاً وضلالاً مبيناً، وبين أن فاعله خالد مخلد في النار، لا يغفر الله له ولا ينظر إليه ولا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً.

فاتخاذ الوسائط من الأنبياء والصالحين والتوسل بهم إلى الله هو عين فعل المشركين، وهو الذي صرح به المخالفون، وأكثروا من ذكره وتقريره، كما تقدم بيانه في الكتاب الأول "جلاء البصائر". وتقدم بيان أنهم غلوا أكثر من ذلك، حيث وحدوا المخلوق بالدعاء والرجاء والاستغاثة والطلب، وصرفوا له كل ذلك من دون الله.

وقد صرحوا هنا بذلك، حيث جعلوا المخلوق هو المقصود بالدعاء والرجاء وليس هو واسطة فحسب، واتخذوا من دونه وسائط ووجهاء يتوسلون بهم إليه، كالملائكة وجبريل وخواص الصحابة وأهل البيت.

وليس غرضنا هنا بيان ذلك، فقد سبق إيضاحه في "جلاء البصائر"، وإنما المقصود كشف شبهاتهم في التوسل البدعي، وبيان ضعف ما استدلوا به على إباحة التوسل بجاه المخلوقين وذواتهم، وبقبور الأنبياء والصالحين. وهو ما ستراه في الفصول الآتية.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

المسألة الأولى

مَعْنَى التَّوَسُّلِ وَالوَسِيلَةِ

١ – في لغة العرب.

٢ – في القرآن.

٣ – في السنة.

٤ – في الأثر.

٥ – في عرف بعض الناس.

المسألة الثانية

أَقْسَامُ التَّوَسُّلِ

١ – التوسل المشروع.

٢ – التوسل المبتدع.

المسألة الأولى:

معنى التوسل والوسيلة

أولاً: في لغة العرب

*جاء في لسان العرب[1] "الوسيلة: المنزلة عند الملك. والوسيلة الدرجة. والوسيلة: القربة، و وَسَل فلان إلى الله وسيلةً إذا عمل عملاً تقرب به إليه. والواسل: الراغب إلى الله.

قال لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم   بلى كل ذي رأي إلى الله واسل"

* وجاء في القاموس المحيط[2] "الواسل الراغب إلى الله تعالى".

والوسيلة الحاجة ، كما قال ابن عباس ﷺ، وأنشد قول عنترة:

إن الرجال لهم إليكِ وسيلة   أن يأخذوكِ تكحلي وتخضَّبي

* وقال الراغب الأصفهاني في المفردات[3] "وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقربة. والواسل: الراغب إلى الله تعالى".

ثانياً: في القرآن

ورد لفظ "الوسيلة" في آيتين من كتاب الله:

* قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. [المائدة : ٣٥].

(١) لسان العرب [١١/٧٢٤] وسل.
(٢) القاموس المحيط [ص١٣٧٩] وسل.
(٣) المفردات [ص٥٢٣].

* وقال تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٧].

أقوال المفسرين:

* قال ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية الأولى "يعني جل ثناؤه بذلك: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعد من الثواب وأوعد من العقاب ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾، يقول: أجيبوا الله فيما أمركم ونهاكم بالطاعة له في ذلك، وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبيكم بالصالح من أعمالكم، ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾، يقول: واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه. والوسيلة: هي الفعيلة، من قول القائل: توسلت إلى فلان بكذا، بمعنى: تقربت إليه، ومنه قول عنترة:

إن الرجال لهم إليكِ وسيلة ... أن يأخذوكِ تكحلي وتخضبي

يعني بالوسيلة: القربة. ومنه قول الآخر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا ... وعاد التصافي بيننا والوسائل"

ثم روى ابن جرير بإسناده إلى أبي وائل، في معنى ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾، قال: القربة في الأعمال. وذكر نحوه عن عطاء والسدي ومجاهد والحسن. وقال قتادة: "أي: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه".

وعن ابن زيد، قال: " المحبة، تحببوا إلى الله" اهـ[1].

* وقال البغوي رحمه الله "الوسيلة: أي القربة، فعيلة من توسل إلى فلان بكذا، أي تقرب إليه، وجمعها وسائل" اهـ[2] .

(١) تفسير ابن جرير [١٠/٢٨٩ – ٢٩١].
(٢) معالم التنزيل [٢/٣٤].

* وقال ابن الجوزي رحمه الله "في الوسيلة قولان:

أحدهما: أنها القربة. قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد والفراء. وقال قتادة: تقربوا إليه بما يرضيه. قال أبو عبيدة: يقال: توسلت إليه، أي: تقربت إليه. وأنشد:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا ... وعاد التصافي بيننا والوسائل

والثاني: المحبة. يقول: تحببوا إلى الله. هذا قول ابن زيد" اهـ[1].

* وقال القرطبي رحمه الله "الوسيلة هي القربة، عن أبي وائل والحسن ومجاهد وقتادة وعطاء والسدي وابن زيد وعبد الله بن كثير، وهي فعيلة، من توسلت إليه أي: تقربت..." إلى أن قال: "ويقال منه: سلت أسأل، أي طلبت، وهما يتساولان، أي: يطلب كل واحد من صاحبه.

فالأصل: الطلب. والوسيلة: القربة التي ينبغي أن يطلب بها. والوسيلة: درجة في الجنة، وهي التي جاء الحديث الصحيح بها في قوله عليه الصلاة والسلام: فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة" اهـ[2].

* وقال أبو حيان رحمه الله "الوسيلة: الواسلة، ما يتقرب منه، يقال: وسله، وتوسل إليه. واستعيرت الوسيلة لما يتقرب به إلى الله تعالى من فعل الطاعات" ثم قال "مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر جزاء من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً من العقوبات الأربع والعذاب العظيم المعدِّ لهم في الآخرة أمر المؤمنين بتقوى الله وابتغاء القربات إليه، فإن ذلك هو المنجي من المحاربة والعقاب المعد للمحاربين.

(١) زاد المسير [٢/٣٤٧].
(٢) تفسير القرطبي [٦/١٥٩].

ولما كانت الآية نزلت في العرنيين والكلبيين، أو في أهل الكتاب اليهود، أو في المشركين، على الخلاف في سبب النزول، وكل هؤلاء سعى في الأرض فساداً، نصَّ على الجهاد، وإن كان مندرجاً تحت ابتغاء الوسيلة، لأن به صلاح الأرض، وبه قوام الدين وحفظ الشريعة، فهو مغاير لأمر المحاربة". إلى أن قال "وهل الوسيلة: القربة التي ينبغي أن يطلب بها، أو الحاجة، أو الطاعة، أو الجنة، أو أفضل درجاتها ؟ أقوال للمفسرين" اهـ(١).

*وقال ابن كثير رحمه الله، في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ "يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بالطاعة كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، قال سفيان الثوري: حدثنا أبي عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس، أي: القربة. وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد.

وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وقرأ ابن زيد ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه" إلى أن قال: "والوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود. والوسيلة أيضاً: عَلَم على منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش" ثم ذكر ابن كثير أحاديث الوسيلة، ثم قال "وقوله ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم..." اهـ(٢) باختصار.

(١) البحر المحيط [٣/٤٧٥-٤٨٦].
(٢) تفسير القرآن العظيم [٣/٩٦-٩٨] طبعة الشعب.

قلت: وإنما نقلت آخر كلام ابن كثير لأنه يوضح اختياره للمعنى المراد من الوسيلة، وهي الطاعة، وهو موافق لأول كلامه في تفسير الآية حيث قال "يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بالطاعة كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات" اهـ.

وهذا الذي قاله قد ذكره أكثر المفسرين، كما تقدم، بل هو المعنى الذي تجتمع عنده أقوالهم كلهم لأن من قال في الوسيلة، هي: القربة، فمعناها: الطاعة التي يتقرب بها إلى الله لأنه لا يتقرب إلى الله إلا بالطاعات.

وكذا من قال في معنى الوسيلة: المحبة، أي تحببوا إلى الله، فهو بمعنى التقرب إليه بالطاعة، لأنها هي السبب الموصل إلى محبة الله تعالى لعبده، كما نص على ذلك القرآن في مثل قوله تعالى ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وكما في الحديث الصحيح «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» (١).

وأما من قال في معنى الوسيلة: الحاجة، أي: اطلبوا حاجاتكم منه، أو: الرغبة، أي: ارغبوا إليه فهو داخل أيضاً في مسمى الطاعة، لأن دعاء الله والرغبة إليه وحده دون سواه من أعظم الطاعات التي يتقرب بها إليه سبحانه، وقد صح في الحديث «الدعاء هو العبادة» (٢).

ومن قال: الوسيلة هي الدرجة في الجنة، فهو يرجع إلى القربة والطاعة، لأنها هي الوسيلة إلى الفوز بالجنة.

وأما من قال: الوسيلة: هي أعلى منازل الجنة، فلعله ذكر ذلك استطراداً لمناسبة ذكر الوسيلة، لا أنه معنى الآية. قال الألوسي رحمه الله "وفسر بعضهم الوسيلة بمنزلة في الجنة، وكونها بهذا المعنى غير ظاهر لاختصاصها بالأنبياء عليهم

(١) رواه البخاري [١١/٣٤٠].
(٢) رواه أبو داود [١٤٧٩] والترمذي [٢٩٦٩].

الصلاة والسلام بناءً على ما رواه مسلم وغيره«إنها منزلة في الجنة جعلها الله تعالى لعبد من عباده وأرجو أن أكون أنا فاسألوا لي الوسيلة»[(١)].

وكون الطلب هنا للنبي ﷺ مما لا يكاد يذهب إليه ذهن سليم، وعليه يمتنع تعلق الظرف بها كما لا يخفى" اهـ[(٢)].

قلت: والحاصل أن أقوالهم كلها ترجع إلى معنى واحد، وإن اختلفت ألفاظهم، فهو من اختلاف التنوع وهو: التقرب إلى الله بالطاعة والعمل الذي يرضاه ويحبه، وهو وسيلة إلى بلوغ المنازل العلية في دار كرامته وهذا المعنى مطابق للمعنى الوارد في لسان العرب، على اختلاف الألفاظ المنقولة في ذلك كما تقدم.

* وأما الآية الثانية فهي متعلقة بآية سابقة، وهي قوله تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ ثم قال ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ الآية.

سبب النزول:

روى البخاري[(٣)] ومسلم[(٤)] من طريق أبي معمر عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن، واستمسك الإنس بعبادتهم، فنزلت ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾" هذا لفظ مسلم.

وفي لفظ لمسلم من طريق آخر "فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون".

(١) رواه مسلم [٣٨٤].
(٢) روح المعاني [١٢٤/٣].
(٣) صحيح البخاري [٣٩٧/٨].
(٤) صحيح مسلم [٢٣٢١/٤].

قال الحافظ في الفتح: (قوله "فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم" أي استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن، والجن لا يرضون بذلك لكونهم أسلموا، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة. وروى الطبري من وجه آخر عن ابن مسعود، فزاد فيه "والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم"، وهذا هو المعتمد في تفسير هذه الآية.

وأما ما أخرجه الطبري من وجه آخر عن ابن مسعود قال "كان قبائل العرب يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن، ويقولون: هم بنات الله، فنزلت هذه الآية" فإن ثبت فهو محمول على أنها نزلت في الفريقين، وإلا فالسياق يدل على أنهم قبل الإسلام كانوا راضين بعبادتهم، وليست هذه من صفات الملائكة) اهـ[(١)].

أقوال المفسرين:

* قال ابن جرير "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه: ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه عند ضر ينزل بكم، فانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم فتدعوهم آلهة، فإنهم لا يقدرون على ذلك، ولا يملكونه، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم.

وقيل إن الذين أُمر النبي ﷺ أن يقول لهم هذا القول، كانوا يعبدون الملائكة وعزيراً والمسيح وبعضهم كانوا يعبدون نفراً من الجن..." ثم روى عن ابن عباس قوله: كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة وعزيراً ... ثم قال ابن جرير في تفسير قوله ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ الآية "يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أرباباً ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾، يقول: يبتغي

(١) فتح الباري [٣٩٧/٨].

المدعوون أرباباً إلى ربهم القربة والزلفة لأنهم أهل إيمان به، والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ أيهم بصالح عمله واجتهاده في عبادته أقرب عنده زلفة، ﴿ وَيَرْجُونَ ﴾ بأفعالهم تلك ﴿ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ ﴾ بخلافهم أمره ﴿ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ ﴾ يا محمد ﴿ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ متقىً".

ثم ذكر ابن جرير اختلاف المفسرين في هؤلاء المدعوين من دون الله، هل هم الجن أم الملائكة أم عيسى وعزير *عليهما السلام*؟ ثم قال: "وأولى الأقوال بتأويل هذه الآية قول عبد الله بن مسعود الذي رويناه عن أبي معمر عنه، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن الذين يدعوهم المشركون آلهة أنهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة في عهد النبي ﷺ ومعلوم أن عزيراً لم يكن موجوداً على عهد نبينا عليه الصلاة والسلام فيبتغي إلى ربه الوسيلة، وأن عيسى قد كان رفع. وإنما يبتغي إلى ربه الوسيلة من كان موجوداً حياً يعمل بطاعة الله ويتقرب إليه بالصالح من الأعمال، فأما من كان لا سبيل له إلى العمل فبم يبتغي إلى ربه الوسيلة؟

فإذ كان لا معنى لهذا القول، فلا قول في ذلك إلا قول من قال ما اخترنا فيه من التأويل، أو قول من قال: هم الملائكة، وهما قولان يحتملهما ظاهر التنزيل. وأما الوسيلة فقد بينا أنها القربة والزلفة" (١) ثم روى عن ابن عباس وقتادة، في الوسيلة أنها: القربة.

* وقال البغوي في معنى الوسيلة "أي القربة. وقيل: الوسيلة: الدرجة، أي: يتضرعون إلى الله في طلب الدرجة العليا. وقيل: الوسيلة: كل ما يتقرب به إلى الله تعالى" اهـ(٢).

* وقال القرطبي "﴿ يَبْتَغُونَ ﴾: يطلبون من الله الزلفة والقربة، ويتضرعون

(١) تفسير ابن جرير [٩/١٠٣ - ١٠٦].
(٢) معالم التنزيل [٣/١٢٠].

إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة. أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم" (١).

* وقال الزمخشري "﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ مبتدأ، و ﴿ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ صفته، و ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ خبره، يعني: أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة، وهي القربة إلى الله تعالى. و﴿ أَيُّهُمْ ﴾ بدل من واو يبتغون، وأيُّ موصولة، أي: يبتغي من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله، فكيف بغير الأقرب؟

أو ضمَّن "يبتغون الوسيلة" معنى يحرصون، فكأنه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله، وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح، ويرجون ويخافون، كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ ﴾ حقيقاً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم" اهـ(٢).

* وقال الألوسي "﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي: أولئك الآلهة الذين يدعونهم ويسمونهم آلهة أو يدعونهم وينادونهم لكشف الضر عنهم ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾: يطلبون باجتهاد لأنفسهم ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ﴾ ومالك أمرهم ﴿ الْوَسِيلَةَ ﴾: القربة بالطاعة والعبادة، فضمير يدعون: للمشركين، وضمير يبتغون: للمشار إليهم..." إلى أن قال: "وقوله تعالى ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ فيه وجوه من الإعراب: فالزمخشري ذكر وجهين، الأول: كون أيّ موصولة بدلاً من ضمير "يبتغون"، بدل بعض من كل، وهي إما معربة أو مبنية، على اختلاف الرأيين أي: أولئك المعبودون يطلب من هو أقرب منهم الوسيلة إلى الله تعالى بطاعته، فكيف بالأبعد.

(١) تفسير القرطبي [١٠/٢٧٩].
(٢) الكشاف [٢/٣٦٤].

والثاني: كون أيّ استفهامية، وهي مبتدأ، و "أقرب" خبرها، والجملة في محل نصب يبتغون، وضُمِّن معنى يحرصون، فكأنه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله تعالى وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح" اهـ[1] باختصار.

قلت: وحاصل أقوال المفسرين في معنى الوسيلة، أنها: القربة والطاعة والعمل الصالح، كما قالوا في الآية الأولى، والمعنى: أن هؤلاء الذين يُدعون من دون الله لا يملكون كشف الضر ولا تحويله عمن نزل به، لأنهم هم أنفسهم أفقر ما يكون إلى جلب نفع أو دفع ضر عن أنفسهم، فكيف يملكونه لغيرهم ؟ وقد علموا أنه لا ينفع ولا يضر إلا الله عز وجل، وأنه لا سبيل إلى نيل رحمته ودفع عذابه إلا بالعمل بمرضاته والتقرب إليه بعبادته ودعائه وخوفه ورجائه.

فإذا كان هذا حال هؤلاء المعبودين، سواء كانوا ملائكة أو أنبياء أو غيرهم من عباد الله الصالحين من الفقر إلى الله والحاجة إليه والرغبة والرهبة، فكيف بمن هو دونهم من الخلق ؟

وإذا لم يجز لهؤلاء المقربين أن يركنوا إلى جاههم عند الله ومنزلتهم منه، فيتركوا الوسيلة المقربة إلى رضوان الرب جل وعز، وهي الطاعة والعمل الصالح، بل ظلوا عليها دائبين، ولرحمة ربهم راجين، ومن عذابه خائفين وجلين، فكيف يسوغ لغيرهم أن يتركوا العمل الصالح ويرغبوا عن طاعة ربهم، وهي الوسيلة التي أمروا باتخاذها ونهوا عن التفريط فيها، ويركنوا إلى جاه أولئك المقربين ومنزلتهم عند ربهم ؟

وفي ختم الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ سرّ لطيف، إذ الآية سيقت للتشنيع على المتخذين آلهة من دون الله يدعونهم ويرجونهم لكشف الضر عنهم، فبين لهم الحق سبحانه فساد ما يعبدون وبطلان ما يدعون، وذلك من وجهين:

(١) روح المعاني [٨/٩٨-٩٩].

الأول: عجز أولئك المعبودين عن فعل شيء مما يرجوه منهم عابدوهم.

الثاني: فقرهم هم وحاجتهم إلى مولاهم لكشف الضر عن أنفسهم أو تحويله عنها.

فلما كان المقام مقام بيان ضعف المعبودين وعجزهم وفقرهم، ناسب ذكر التخويف من عذاب الله والتحذير منه، ولذلك نظائر في الكتاب العزيز، كقوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ١٧].

وكقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦].

وكقوله ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٧٢].

وكقوله ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٩].

فهذه الآيات كلها سيقت في مقام التشنيع على عابدي الملائكة الكرام وعيسى *عليه السلام* وأمه، فناسب أن يخاطبوا بمثل ذلك الخطاب ويحذروا بمثل ذلك التحذير، مع علم الله السابق أنهم لم يدعوا الناس إلى عبادتهم ولم يرضوا بأن يغلو أحد فيهم، وأنهم لم يستنكفوا – وحاشاهم – أن يكونوا عبيداً لله خاضعين له راغبين راهبين، فكيف يستكبر من هو دونهم عن عبادته ويستنكف عن الخضوع له والرغبة والرهبة إليه ؟

ولما كانت معصية هؤلاء الغلاة الداعين غير الله المتخذين آلهة سواه أكبر عند الله، ناسب ذكر العذاب وختم الآية به تحذيراً لهم من سوء صنيعهم ومغبة عملهم، وإنذاراً لهم بأنه لا مفر لهم من الله إلا إليه ولا نجاة لهم من عذابه إلا بالتوبة إليه.

وأكد لهم ذلك التحذير بأن قيل لهم: اعتبروا بحال هؤلاء المقربين وخوفهم من عذاب الله وحذرهم من عقابه، مع ما هم فيه من الاجتهاد في الطاعات والتقرب إلى الله بالقربات، فكيف بكم لا تخافون ولا تحذرون وأنتم في عصيانكم سادرون وفي طغيانكم تعمهون، هذا وهم الوجهاء المقربون، وأنتم البغضاء المبعدون ؟

* والخلاصة: أن الوسيلة الواردة في هاتين الآيتين من كتاب الله معناها: القربة والطاعة والعمل الصالح.

ثالثاً: في السنة

ورد لفظ الوسيلة في حديثين مشهورين:

الأول: حديث جابر بن عبد الله *رضي الله عنهما* أن رسول الله ﷺ قال "من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة" [(١)].

الثاني: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص *رضي الله عنهما* أنه سمع النبي ﷺ يقول«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا

(١) رواه البخاري [٢/٩٤].

تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» [(١)].

قال الحافظ في الفتح: (الوسيلة: هي ما يتقرب به إلى الكبير، يقال: توسلت، أي: تقربت. وتطلق على المنزلة العلية. ووقع ذلك في حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم بلفظ «فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله» الحديث، ونحوه للبزار عن أبي هريرة. ويمكن ردها إلى الأول، بأن الواصل إلى تلك المنزلة قريب من الله، فتكون كالقربة التي يتوسل بها).

ثم قال الحافظ: (قوله "والفضيلة" أي: المرتبة الزائدة على سائر الخلائق، ويحتمل أن تكون منزلة أخرى، أو تفسيراً للوسيلة) اهـ[(٢)].

رابعاً: في الأثر

وورد لفظ التوسل على لسان عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

* وذلك فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه "أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قُحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال: فيسقون" [(٣)].

قال الحافظ في الفتح (وهو عند الإسماعيلي من رواية محمد بن المثنى عن الأنصاري بإسناد البخاري إلى أنس قال "كانوا إذا قحطوا على عهد النبي ﷺ استسقوا به فيستسقي لهم فيسقون، فلما كان في إمارة عمر" فذكر الحديث) اهـ[(٤)].

قلت: وأفادت رواية الإسماعيلي، في بيان معنى قول عمر رضي الله عنه "كنا نتوسل

(١) رواه مسلم [٣٨٤].
(٢) فتح الباري [٢/٩٥]
(٣) رواه البخاري [٢/٤٩٤].
(٤) فتح الباري [٢/٤٩٥]

إليك بنبينا فتسقينا" وأن المراد: الاستسقاء بدعائه ﷺ، وكذا التوسل بالعباس (رضي الله عنه)، ويؤيده ما أخرجه عبد الرزاق في المصنف من حديث ابن عباس "أن عمر استسقى بالمصلى، فقال للعباس: قم فاستسق، فقام العباس فقال: اللهم إن عندك سحاباً، وإن عندك ماءً، فانشر السحاب..." الحديث(١).

ويؤيده أيضاً ما ذكره الحافظ حيث قال (وقد بين الزبير بن بكار في "الأنساب" صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه ذلك، فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر قال "اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث. فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس") (٢).

خامساً: في عرف بعض الناس.

يطلق بعض الناس لفظ التوسل ويعنون به الإقسام على الله بالمعظَّم، والسؤال بذاته أو جاهه أو حرمته، وقد يكون هذا المعظم نبياً أو صالحاً، أو يكون من الأزمنة أو الأمكنة الفاضلة كالشهر الحرام والبلد الحرام والكعبة، ونحو ذلك مما يعظمه الناس.

وهذا المعنى هو الذي دندن حوله المخالفون، واحتجوا عليه بما احتجوا من شبه، كما سيأتي، ولم يقتصروا عليه، بل عدوه إلى غيره، الذي هو الشرك المحض.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) رواه عبد الرزاق [٣/ ٩٢] بإسناد ضعيف جداً.
(٢) فتح الباري [٢/ ٤٩٧].

المسألة الثانية

أقسام التوسل

تقدم أن جماع الوسيلة: القربة والطاعة، فدخل في ذلك كل ما أمر الله عز وجل به من الطاعات والعبادات التي شرعها على لسان رسوله ﷺ وسنها لهم.

فالإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، هو أعظم وسيلة يتوسل بها المؤمنون إلى ربهم. والأعمال الصالحة، كالصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر شرائع الدين هي وسائل مقربة إلى الله تعالى ورحمته وجنته.

* ومعلوم أن العمل لا يكون صالحاً إلا إذا كان خالصاً لله موافقاً لسنة رسول الله ﷺ، فإذا اختل ركن من هذين بطل العمل، كما دل على ذلك نصوص الوحي، كقوله تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠].

وكقوله ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي لفظ «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» (١).

* والوسيلة كذلك لا تكون قربة ولا طاعة إلا إذا تحقق فيها هذان الركنان، الإخلاص والمتابعة، فإذا عدم أحدهما بطلت، وخرجت عن كونها وسيلة أصلاً، فهي كلا شيء، هذا إن لم تزد صاحبها من الله بعداً.

* ومعلوم أيضاً أن العبرة في كون الشيء وسيلة مقربة إلى الله تعالى، وجود الدليل الشرعي على ذلك، وأنه لا عبرة بما يظنه المتوسل قربة وطاعة، وهو ليس كذلك.

(١) رواه البخاري [٥/ ٣٠١] ومسلم [١٧١٨] واللفظ الآخر لمسلم وحده.

* وقد وجد من الناس من يتقرب إلى الله ببدعة مخترعة يظنها حسنة، ويحسب أنه فيها مهتد وأنه يحسن صنعاً، وهو ليس كذلك، كما قال تعالى عن أتباع عيسى عليه السلام ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد : ٢٧]

وقال سبحانه ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : ١٠٣ - ١٠٤].

* فكان العمل الذي يراد به التقرب إلى رضوان الله عز وجل وهو التوسل، على قسمين: مشروع ومبتدع.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

التوسل المشروع

وهو التقرب إلى الله عز وجل بكل ما يحبه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، ويشمل التوسل بكل العبادات والطاعات المشروعة.

وهو يتفاوت بحسب العبادة والطاعة، فمنه ما هو فرض لازم على كل عبد في كل حال، كالتوسل بفروض الإيمان وأركانه.

ومنه ما هو مفروض في بعض الأحوال والأوقات، كالتوسل بشرائع الإسلام.

ومنه ما هو دون ذلك، كالتوسل بالعبادات والسنن المستحبة.

والتوسل بذلك يكون على وجهين:

الأول: التوسل إلى تحصيل ثواب الله وجنته ومحبته ورضوانه.

فقد تواترت أدلة الشرع من الكتاب والسنة والإجماع على أن الإيمان والعمل الصالح هما الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة.

قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ۞ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف: ١٠٧ - ١٠٨].

وقال ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ [النور: ٥٥].

وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٩].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال«أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فيحجب عن الجنة»(1).

الثاني: التوسل بذلك إلى إجابة الدعاء وإعطاء السؤال.

وهذا أيضاً مما اتفقت عليه أدلة الشرع من الكتاب والسنة والإجماع، فيتوسل إلى الله عز وجل بالإيمان والعمل الصالح ليجيب دعوة من دعاه ويعطيه سؤله ومطلوبه في الدنيا والآخرة.

هذا مع كون الدعاء نفسه وسيلة من أعظم الوسائل المقربة إلى رضوان الله ومحبته وجنته، فهو داخل في مسمى الطاعة والعمل الصالح، بل هو من أعظم الطاعات وأجل الأعمال التي يتقرب بها إلى الله، كما أنه وسيلة أيضاً إلى حصول المطلوب.

قال تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

فأمر الله عز وجل عباده بالدعاء، وسماه عبادة، وأوجبه عليهم، وتوعد تاركيه والمستكبرين عنه بالنار، وهو دليل على الوجه الأول، التوسل إلى محبة الله ورضوانه وجنته وثوابه.

ووعد سبحانه الداعين بأن يستجيب لهم، وهو يدل على الوجه الثاني، التوسل إلى إجابة الدعاء.

(1) رواه مسلم [ح ٤٦].

والنصوص من القرآن والسنة في بيان فضل الدعاء وكونه من أعظم الوسائل المقربة إلى الله وإلى تحصيل نعمه وفضله وعطائه، أكثر من أن تحصر.

والمقصود هنا بيان أنه قد شرع التوسل إلى الله بالإيمان والعمل الصالح لإجابة الدعاء، إما بجلب نفع أو دفع ضر في الدنيا والآخرة، والأدلة على ذلك كثيرة.

منها قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾. وقوله ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٦ و ١٩٣].

فهؤلاء توسلوا في دعائهم بالإيمان، وهو من أعظم ما يتوسل به لقبول الدعاء وتحقيق الإجابة. وقال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فأمر سبحانه عباده أن يدعوه بأسمائه الحسنى، وهو يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة.

* وفي الحديث المشهور، في ذكر دعاء الهم والحزن، جاء فيه «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك...» الحديث(1) .

فهذا توسلٌ إلى الله بأسمائه الحسنى كلها، وهي أعظم ما يتوسل به الداعون على الإطلاق، والأحاديث في ذلك كثيرة ومشهورة.

* وروى أصحاب السنن، إلا ابن ماجه، من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال «سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته فلم يصل على النبي ﷺ، فقال النبي

(1) رواه أحمد [١/٣٩١].

ﷺ عجّل هذا، ثم دعاه فقال له أو لغيره: إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ﷺ، ثم ليدع بعد ما شاء»[١].

فندب النبي صلى الله عليه وسلم الداعي إلى التوسل بأمرين، حمد الله والثناء عليه، والصلاة على النبي ﷺ، وهما من أجل الأعمال الصالحة والطاعات المشروعة.

* وعن بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال «سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فقال: والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»[٢] .

قلت: وهذا توسل في دعائه بشهادة التوحيد، وهي أعظم أركان الإيمان والإسلام، وبثنائه على الله سبحانه باسمه الأعظم.

والأحاديث في معنى ذلك كثيرة، فمنها ما شرع فيه التوسل بالأسماء الحسنى ومنها ما شرع فيه التوسل بالكلم الطيب، كالتوسل بشهادة التوحيد والإقرار بالإيمان وحمد الله وتمجيده والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو أولى ما يتوسل به الداعي إلى ربه ليقبل دعاءه ويستجيبه، إذ هو من الوسائل التي يحبها الله ويرضاها ويثيب عليها عباده بأحسن الثواب وأفضله.

ومنها ما شرع فيه التوسل بعمل الجوارح مع عمل اللسان، ومن أمثلته:

* حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً»[٣].

---

(١) انظر جامع الأصول [١٥٣/٤] وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) رواه أبو داود [١٦٧/٢] والترمذي [٤٨١/٥] وقال: حسن غريب.

(٣) رواه أبو داود [١٦٥/٢] والترمذي [٥٢٠/٥] وزاد: "خائبتين". وقال: حسن غريب.

قلت: رفع اليدين في الدعاء مما تواتر عن النبي ﷺ في مواطن كثيرة، وهو عمل صالح من أعمال الجوارح التي يتوسل بها لقبول الدعاء.

* ومن أمثلته كذلك، ما سنه رسول الله ﷺ في الاستسقاء، من صلاة وخطبة بهيئة معروفة، والصلاة على الجنازة، وصلاة الاستخارة، فهذه أعمال صالحة من أعمال الجوارح شرعت مع الدعاء أو بين يدي الدعاء، فهي وسائل يتوسل بها ليكون أدعى للقبول والإجابة.

* وهذا التوسل بالإيمان والعمل الصالح لإجابة الدعاء، مما اتفقت عليه شرائع الأنبياء *عليهم السلام* مع شريعتنا، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

١ - ففي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قصة إبراهيم *عليه السلام* حين دخل وزوجه سارة قرية فيها ملك من الجبابرة، ولما بلغه حسن سارة أمر أن تدخل عليه، فلما أراد أن يبسط يده إليها قامت تتوضأ وتصلي وتقول في دعائها "اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليَّ الكافر" فمنعها الله عز وجل منه، فحاول الثانية ففعلت كما فعلت في الأولى، توضأت وصلت ودعت، فأنقذها الله منه[١] .

قلت: فتوسلت إلى الله في دعائها بإيمانها به وبرسوله وبعفتها، وجمعت إلى ذلك عملاً صالحاً من أعمال الجوارح وهو الوضوء والصلاة، وذلك حتماً مما تعلمته من شريعة زوجها الخليل عليه الصلاة والسلام.

٢ - ومثل ذلك قصة جريج الراهب، لما اتهمته البغي بأنه فجر بها وأرادت أن تلصق به الغلام الذي ولدته سفاحاً من الراعي، فتوضأ جريج وصلى ودعا ربه، ثم قال للغلام، وهو في المهد، من أبوك ؟ قال: الراعي[٢] .

---

(١) رواه البخاري [٢٢١٧] واللفظ له، ومسلم [٢٣٧١].

(٢) رواه البخاري [٣٤٣٦] ومسلم [٢٥٥٠].

٣ – ومثله قصة الثلاثة الذين أطبقت عليهم صخرة في الغار حبستهم فيه، فقال بعضهم لبعض "ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه. فقال أحدهم: اللهم إني كان لي أبوان شيخان كبيران" فذكر بره بهما، إلى أن قال "اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء، قال: ففرج عنهم". وتوسل الثاني بعفته عن الفاحشة، والثالث: بأدائه للأمانة وإحسانه إلى الأجير، ففرج عنهم[1] .

قلت: فهؤلاء الثلاثة توسلوا في دعائهم بأعمالهم الصالحة، وبإخلاصهم فيها، والإخلاص من أعمال القلوب التي يثاب عليها.

فعلم من ذلك أن العبادات والقربات المشروعة وسائل يتوسل بها إلى محبة الله ورضوانه وثوابه، ويتوسل بها كذلك إلى إجابة الدعاء وقبوله.

ومعلوم قطعاً أن هذه الوسائل درجات، بعضها أفضل من بعض، فالتوسل بالإيمان بالله وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وبمحبته وخشيته وتعظيمه، هو أجل ما يتوسل به المتوسلون وأعظم ما يتقرب به المتقربون، إذ هو أفرض الفرائض وأوجب الواجبات.

وكذا التوسل بالإيمان بالرسول ﷺ وبمحبته وطاعته واتباعه من أعظم فرائض الدين وواجباته وهي الوسيلة التامة الكاملة لخيري الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [٣/٢٣٦].

وقال تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال سبحانه ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].

وفي الصحيحين من حديث أنس ﵁ عن النبي ﷺ قال:«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[1].

وفيهما من حديث أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[2].

فمحبة الله لعبده ورحمته به ومغفرته لذنوبه مشروطة باتباع الرسول ﷺ، كما أن الإيمان بالله وطاعته مشروط بالإيمان بالرسول وطاعته، وهذا مما تواترت عليه نصوص الوحي ومما أجمع عليه المسلمون كافة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله "فالحلال ما حلله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله، وقد أرسله الله إلى الثقلين: الجن والإنس، فعلى كل أحد أن يؤمن به وبما جاء به ويتبعه في باطنه وظاهره.

والإيمان به ومتابعته هو سبيل الله وهو دين الله وهو عبادة الله وهو طاعة الله وهو طريق أولياء الله وهو الوسيلة التي أمر الله بها عباده في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا

(١) رواه البخاري [١/٦٠] ومسلم [٤٣].
(٢) رواه البخاري [١/٥٨] ومسلم [٤٤].

الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾، فابتغاء الوسيلة إلى الله إنما يكون لمن توسل إلى الله بالإيمان بمحمد واتّباعه.

وهذا التوسل بالإيمان به وطاعته فرض على كل أحد في كل حال، باطناً وظاهراً، في حياة رسول الله ﷺ وبعد موته، في مشهده ومغيبه، لا يسقط التوسل بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه، ولا بعذر من الأعذار. ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا التوسل بالإيمان به وبطاعته" اهـ[١].

وقال في موضع آخر، عن التوسل بالرسل *عليهم السلام* "إنما يتوسل بالإيمان بهم وبمحبتهم وطاعتهم وموالاتهم وتعزيرهم وتوقيرهم ومعاداة من عاداهم وطاعتهم فيما أمروا وتصديقهم فيما أخبروا وتحليل ما حللوه وتحريم ما حرموه. والتوسل بذلك على وجهين:

أحدهما: أن يتوسل بذلك إلى إجابة الدعاء وإعطاء السؤال، كحديث الثلاثة الذين أوَوا إلى الغار، فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب دعاءهم ويفرج كربتهم، وقد تقدم بيان ذلك.

والثاني: التوسل بذلك إلى حصول ثواب الله و جنته ورضوانه، فإن الأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول ﷺ هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة" اهـ[٢].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) التوسل والوسيلة ص [٣-٤].
(٢) التوسل والوسيلة ص [٢٤٠-٢٤١].

التوسل المبتدع

قدمنا أن الوسيلة هي القربة والطاعة والعبادة، وأن مبناها على الإخلاص والمتابعة، إخلاص العمل لله وحده لا شريك له، واتباع رسوله ﷺ في أمره ونهيه وفعله وتركه.

فهذه هي الوسيلة التي أمر الله بها وشرعها لعباده على ألسنة رسله، كما قال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

فما شرعه الله من الدين فهو الوسيلة المقربة إلى الغاية، وما لم يشرعه ولم يأذن به فليس بوسيلة ولا بقربة، وإن ظُن أنها وسيلة وقربة، إذ لا اعتبار بالظن ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾.

ومن ثم فكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولم يأذن بها فقد أخطأ الوسيلة، وتنكب الطريقة، وتعرض لسخط الله عليه ومقته وعقوبته.

قال الله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

فالصراط المستقيم هو سبيل الله وهو سبيل المؤمنين وهو الوسيلة التي ارتضاها لعباده وشرعها لهم، وما سواها فهي سبل الغي وطرق الضلال.

والأدلة على تحريم التوسل بالبدع المحدثة والعبادات المخترعة، ظاهرة معلومة، منها:

* قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧].

قال ابن كثير رحمه الله "﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي ما شرعناها لهم وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم. وقوله تعالى ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله.

والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك، إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله.

وقوله تعالى ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾، أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين:

أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.

والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل" اهـ[1].

* وقال تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١].

قال ابن كثير "أي هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من

(١) تفسير القرآن العظيم [٤/٣١٥].

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأموال الفاسدة" اهـ[1].

* وفي الصحيح من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال "كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه..." إلى أن قال "ويقول: أما بعد. فإن خير الحديث كتاب الله. وخير الهدى هدى محمد. وشر الأمور محدثاتها. وكل بدعة ضلالة" الحديث[2].

* وفي حديث العرباض بن سارية عن النبي صلى الله عليه سلم، في موعظته لأصحابه، وفيها قال «وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»[3].

* وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[4].

وفي لفظ لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

قال الإمام النووي رحمه الله "قال أهل العربية: الرد هنا بمعنى: المردود، ومعناه: فهو باطل غير معتد به. وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام وهو من جوامع كلمه ﷺ، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات" [5].

وقال الحافظ رحمه الله "هذا الحديث معدود من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده..." إلى أن قال: "وفيه رد المحدثات، وأن النهي يقتضي الفساد، لأن المنهيات كلها ليست من أمر الدين فيجب ردها" [6].

(١) تفسير القرآن العظيم [٤/١١١].
(٢) رواه مسلم [٨٦٧].
(٣) رواه أبو داود [٤٦٠٧] والترمذي [٢٦٧٨].
(٤) رواه البخاري [٥/٣٠١] ومسلم [١٧١٨].
(٥) شرح مسلم [١٢/١٦].
(٦) الفتح [٥/٣٠٣].

قلت: والأدلة على التحذير من الابتداع في الدين من القرآن والسنة وإجماع الأئمة من السلف والخلف، أكثر من أن تحصر.

والمتدبر للنصوص المحذرة من البدع يتبين له أمران:

الأول: بطلان التوسل المبتدع وفساده، وأنه مردود على صاحبه. وحسبه حسرة وندامة وخسراناً أن تذهب أعماله سدىً ويرجع من جهده وكدحه وسعيه بلا شيء. قال تعالى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ [الفرقان: ٢٣].

الثاني: توعُّد المتوسل بالبدع بوخيم العقاب وسوء العذاب في الآخرة، مع ما يصيبه من ظلمة القلب وضنك العيش في الدنيا، فلم يكفه رد عمله وحرمان ثوابه وضياع سعيه، بل زيد عليه تعرضه لمقت الله وسخطه وعذابه.

قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف: ١٠٣ – ١٠٤].

فحريٌّ بالعاقل المتبصِّر، وهو يعلم علم اليقين، أنه لن يحيا في هذه الدنيا مرتين، إنما هي حياة واحدة، وفرصة واحدة، فليغتنمها، فالعمر مهما طال فهو قصير، ولا يتسع زمان لعملين، إذ كل عمل يعمله يقتطع جزءاً من عمره، قل أو كثر.

فلو فرض أنه لم يسمع بنص من تلك النصوص الواردة في المحدثات والبدع، ولم يبلغه ما فيها من التحذير والوعيد، لاجتنب التوسل بالبدع وإن زخرفها له المبطلون وزينها له الغالون، إذ في التوسل بالمشروع والتقرب بالمسنون ما يكفي لأن يشغل عمره كله، ولن يحصي كل السنن مهما جد واجتهد.

بل ليته يسلم من الإخلال بالفرائض والواجبات، ليكون في عداد المفلحين الفائزين، بإذن رب العالمين.

* «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس، يُسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ "خمس صلوات في اليوم والليلة" فقال: هل عليَّ غيرها ؟ قال "لا. إلا أن تطوع". قال رسول الله ﷺ "وصيام رمضان" قال: هل عليَّ غيره ؟ قال "لا. إلا أن تطوع". وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، فقال: هل عليَّ غيرها ؟ قال "لا. إلا أن تطوع". فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. قال رسول الله ﷺ "أفلح إن صدق" »[1].

* وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[2] .

قال الحافظ "قال ابن المنير: في هذا الحديث عَلم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع. وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة" اهـ[3].

قلت: فإذا منع الإفراط في التوسل بالعبادات المشروعة لئلا يفضي إلى الإملال أو الانقطاع، أو إلى ترك الأفضل، فالمنع من التوسل بالمحدثات المخترعات أولى وأحرى.

---

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [١/٢].

(٢) رواه البخاري [١/٩٣].

(٣) فتح الباري [١/٩٤].

ومن ثم قالت الصديقة عائشة رضي الله عنها، لما سُئلت: كيف كان عمل النبي ﷺ، هل كان يخص شيئاً من الأيام ؟ قالت "لا. كان عمله ديمة، وأيكم يستطيع ما كان النبي ﷺ يستطيع ؟" [١].

قال الحافظ، في معنى قولها "وأيكم يستطيع..." الخ، "أي في العبادة، كمية كانت أو كيفية من خشوع وخضوع وإخبات وإخلاص، والله أعلم" اهـ[٢].

ولنا بعد ذلك أسوة في سلفنا الصالح بدءاً من الصحابة رضوان الله عليهم، وهم المثل الأعلى، بعد الأنبياء عليهم السلام، في التوسل إلى الله بالعبادات المشروعة والاجتهاد فيها والاقتصار عليها دون غيرها من البدع والمحدثات التي كانوا أبعد الخلق عنها وعن اقترافها، بل تواتر عنهم النهي عنها والتحذير من فعلها والبراءة من أهلها.

وقد وجد منهم من أراد المبالغة في التعبد، وذلك في عهد النبي ﷺ، فنهاهم عن ذلك ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقصته مشهورة، رواها بنفسه.

قال رضي الله عنه: بلغ النبيَّ ﷺ أني أسرد الصوم وأصلي الليل، فإما أرسل إليَّ وإما لقيته، فقال «ألم أخبر أنك تصوم ولا تفطر، وتصلي ؟ فصم وأفطر وقم ونم، فإن لعينك عليك حظاً، وإن لنفسك وأهلك عليك حظاً» الحديث[٣].

قلت: وحاصل القصة أنه ﷺ نهاه عن سرد الصوم والقيام ودله على القصد في الصوم والصلاة وقراءة القرآن، وتدرج معه في ذلك، وهو يقول: إني

(١) رواه البخاري [١١/٢٩٤] ومسلم [٧٨٣].
(٢) فتح الباري [١١/٢٩٩].
(٣) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [٢/٢٢].

أطيق أفضل من ذلك، إلى أن بلغ الحد الأعلى وهو: صيام يوم وإفطار يوم، وقراءة القرآن في سبع ليال.

وقد دلت هذه القصة وما شابهها على أن السائد في عرف الصحابة كلهم، حتى من بالغ منهم وأفرط، أن التوسل إلى الله إنما يكون بالعبادات المشروعة، وأعظمها: الصلاة والصيام وقراءة القرآن، فمخالفة من خالف منهم إنما كانت بالزيادة على المستحب، كصيام الدهر سوى العيدين، والمداومة على قيام الليل كله، وقراءة القرآن في أقل من ثلاث ... ونحو ذلك.

أما أن يخترعوا عبادة أو يبتدعوا وسيلة يتوسلون بها إلى الله فحاشاهم من ذلك.

وفي إنكار الرسول ﷺ على عبد الله بن عمرو وعلى غيره من الصحابة رضي الله عنهم مبالغتهم في التوسل حتى زادوا عن الحد المستحب المشروع، دليل واضح على إنكار ما سواه من التوسل بالمخترع من العبادات من باب أولى، كما لا يخفى.

ويحسن أن أنقل هنا ما سطره الإمام الذهبي رحمه الله تعليقاً على قصة عبد الله ابن عمرو في ترجمته له في "سير أعلام النبلاء"، إذ قال "فالدين يسر، فوالله إن ترتيل سبع القرآن في تهجد قيام الليل مع المحافظة على النوافل الراتبة والضحى وتحية المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة، والقول عند النوم واليقظة، ودبر المكتوبة والسحر، مع النظر في العلم النافع والاشتغال به مخلصاً لله، مع الأمر بالمعروف وإرشاد الجاهل وتفهيمه وزجر الفاسق، ونحو ذلك مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان. مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر، وكثرة الدعاء والاستغفار والصدقة وصلة الرحم والتواضع، والإخلاص في جميع ذلك ... لشغل عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين، فإن سائر ذلك مطلوب.

فمتى تشاغل العابد بختمة في كل يوم، فقد خالف الحنيفية السمحة، ولم ينهض بأكثر ما ذكرناه، ولا تدبر ما يتلوه.

هذا السيد العابد الصاحب، كان يقول لما شاخ: ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ..." إلى أن قال "وكل من لم يزم نفسه في تعبده وأوراده بالسنة النبوية، يندم ويترهب، ويسوء مزاجه، ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم.

ومازال ﷺ معلّماً للأمة أفضل الأعمال، وآمراً بهجر التبتل والرهبانية التي لم يبعث بها، فنهى عن سرد الصوم، ونهى عن الوصال، وعن قيام أكثر الليل إلا في العشر الأخير، ونهى عن العزبة للمستطيع، ونهى عن ترك اللحم...، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي.

فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور، والعابد العالم بالآثار المحمدية المتجاوز لها مفضول مغرور، وأحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل. ألهمنا الله وإياكم حسن المتابعة وجنبنا الهوى والمخالفة" اهـ[1].

والمتتبع لسير السلف الصالح يقف على عجائب من أحوالهم وكيف كانوا يفنون أعمارهم كلها في مرضاة الله، ويتوسلون بما شرعه الله وسنه لهم رسول الله ﷺ ولا يتجاوزون ذلك، بل لم يكن لهم فضل وقت لغير السنن المشروعة أصلاً.

ولا يظن ظان بأني أعني أولئك العباد الذين اشتهروا بالعبادة والزهد والانقطاع عن الدنيا بالكلية، التاركين للجهاد وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المخالفين للسنة، كلا، بل عنيت أئمة الإسلام وفقهاء السلف من أهل الحديث الذين جمعوا الفضائل كالإمام مالك والأوزاعي وابن المبارك والسفيانَين والحمادَين وأضرابهم ، ثم الشافعي وأحمد والبخاري وأبي حاتم، ونحوهم من

(١) سير أعلام النبلاء[٣/٨٤-٨٦].

مشاهير علماء السلف وأساطينهم، الذين جمعوا الفضائل ولم يَشُبْ توسلهم شائبة من بدعة أو مخالفة.

وليس المقصود هنا سرد أحوالهم وسيرهم، فهي مشهورة معلومة مظانها، ولكني أكتفي بذكر هذه العبرة التي وقفت عليها وأنا أبحث في تراجم بعض رواة الحديث:

* قال عفان: "قد رأيت من هو أعبد من حماد بن سلمة، ولكن ما رأيت أشد مواظبة على الخير وقراءة القرآن والعمل لله من حماد بن سلمة. وقال ابن مهدي: لو قيل لحماد بن سلمة إنك تموت غداً ما قدر أن يزيد في العمل شيئاً. وقال ابن حبان: كان من العباد المجابين الدعوة في الأوقات" اهـ[1].

* وقال ابن عيينة: "كان بالكوفة ثلاثة، لو قيل لأحدهم إنك تموت غداً، ما كان يقدر أن يزيد في عمله: محمد بن سوقة وعمرو بن قيس الملائي وأبو حيان التيمي. قال سفيان: وكان محمد بن سوقة لا يحسن أن يعصي الله" اهـ[2].

قلت: تأمل – رحمك الله – حال هؤلاء الأئمة الأخيار في توسلهم، حتى لو قيل لأحدهم إنه يموت غداً ما قدر أن يزيد في عمله شيئاً، ولم يكن توسلهم إلا بالطاعات المشروعة، لا بغيرها من المحدثات المخترعة، فشغلت كل الوقت حتى لم يبق فضل لزيادة عمل.

وهناك قصص مثل هذه، وأعجب منها، مدونة في السير والتراجم، وكلها تدل دلالة واضحة على أن في التوسل المشروع غنىً وشغلاً عن غيره، لو كانوا يعلمون. قال الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) تهذيب التهذيب [٣/١٣].
(٢) تهذيب التهذيب[٩/٢١٠].

فصـــل:

التوسل بالشفاعة ودعاء الغير

وثمة نوع آخر من أنواع التوسل المشروع، وهو سؤال الشفاعة والدعاء ممن أذن الله له في الشفاعة، وهذا يسمى توسلاً واستشفاعاً، وهو مما تواترت على مشروعيته وجوازه أدلة الكتاب والسنة وأجمع عليه الصحابة وسلف الأمة، واتفقت عليه كذلك شرائع الأنبياء السابقين. قال الله تعالى عن بني يعقوب عليه السلام ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ۞ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يوسف : ٩٧-٩٨].

وقال عن بني إسرائيل ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ [البقرة : ٦١].

وقد تقدم قول عمر ﷺ «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا».

وهذا الذي قاله عمر ﷺ، مما اشتهر نقله عن الصحابة في الاستشفاع بدعاء النبي ﷺ في الاستسقاء وغيره.

١ - ففي الصحيحين من حديث أنس ﷺ، في قصة الأعرابي الذي جاء النبي ﷺ وهو يخطب يوم الجمعة، فقال«يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا، فرفع النبي ﷺ يديه وقال: اللهم أغثنا...» الحديث.

ثم قال أنس«والله ما رأينا الشمس سبتاً. ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائماً فقال: يا رسول الله

هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها عنا. قال فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا ...» الحديث.

قال أنس ﵁ « فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس » (١).

٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت«شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى ووعد الناس يوماً يخرجون فيه ...» الحديث. وفيه ذكرت خطبته وصلاته(٢).

٣- وفي الصحيحين من حديث أنس ﵁ أن أمه أم سليم رضي الله عنها قالت: يا رسول الله: أنس خادمك، ادع الله له، فقال«اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته» (٣).

٤- وفيهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، في خبر السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة من غير حساب ولا عذاب، قال: فقام عكاشة بن محصن فقال لرسول الله ﷺ «ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعله منهم» (٤).

٥- حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، في الوسيلة، وقد تقدم، وفيه قال«ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد ا لله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة»(٥).

٦- وعن عمر بن الخطاب ﵁ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول«إن خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة، وكان به بياض، فمروه فليستغفر

(١) رواه البخاري [٢/٥٠١] ومسلم [٨٩٧].
(٢) رواه أبو داود [١١٧٣] وقال:هذا حديث غريب، إسناده جيد.
(٣) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [٣/١٦٣].
(٤) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [١/٥٤].
(٥) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [٣/٢٣٠].

لكم» وفي لفظ« له والدة، هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل. قال عمر لأويس: فاستغفر لي. فاستغفر له» (١).

قلت: والأدلة من السنة أكثر من أن تحصر. وقد دل حديث الوسيلة وحديث عمر في قصة أويس على أن الاستشفاع ليس خاصاً من المفضول بالفاضل، بل قد يستشفع الأعلى بالأدنى والفاضل بالمفضول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله "ولفظ التوسل قد يراد به ثلاثة أمور، يراد به أمران متفق عليهما بين المسلمين. أحدهما: هو أصل الإيمان والإسلام، وهو التوسل بالإيمان به (يعني بالرسول ﷺ) وبطاعته.

والثاني دعاؤه وشفاعته، وهذا أيضاً نافع يتوسل به من دعا له وشفع فيه باتفاق المسلمين ومن أنكر التوسل به بأحد هذين المعنيين فهو كافر مرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قتل مرتداً" (٢).

وقال في موضع آخر "ومحمد ﷺ أعظم جاهاً من جميع الأنبياء والمرسلين، لكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع بهما من شفع له الرسول ودعا له، فمن دعا له الرسول وشفع له توسل إلى الله بشفاعته ودعائه، كما كان أصحابه يتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته، وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى الله تبارك وتعالى بدعائه وشفاعته، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

ولفظ التوسل في عرف الصحابة كانوا يستعملونه في هذا المعنى. والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الإيمان به، وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة..." إلى أن قال: "لكن دعاء الأنبياء وشفاعتهم ليس بمنزلة الإيمان بهم وطاعتهم، فإن الإيمان بهم وطاعتهم توجب سعادة الآخرة والنجاة من العذاب مطلقاً وعاماً.

(١) رواه مسلم [٣٨٤].
(٢) التوسل والوسيلة ص ١٧ .

وأما الشفاعة والدعاء فانتفاع العباد به موقوف على شروط وله موانع، فالشفاعة للكفار بالنجاة من النار والاستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم ولو كان الشفيع أعظم جاهاً" اهـ[1] باختصار.

قلت: وما قاله ابن تيمية رحمه الله حق وصدق، فإن التوسل بالإيمان بالأنبياء وطاعتهم ومحبتهم واتباعهم أعظم من التوسل بدعائهم وشفاعتهم من وجوه، منها:

* أن الإيمان بهم وطاعتهم فرض على كل حال وفي كل حين، في مشهدهم وفي مغيبهم وفي حياتهم وبعد مماتهم، لا يسع من قامت عليه الحجة من الخلق الخروج عن ذلك، بل لا يسعهم التأخر عنه ولا الخيرة فيه، وهذا وإن كان خاصاً بالذين بعث فيهم الأنبياء من أقوامهم، فهو بالنسبة لنبينا محمد ﷺ عام لكل الخلق من الثقلين، فلا يسع أحداً الخروج عن شريعته أو يختار غير طريقته وسنته، سواء كان على ملة غيره من اليهود والنصارى أم كان ممن لا دين له من الملاحدة والمشركين.

أما دعاؤهم وشفاعتهم فليس فرضاً على الخلق أن يسألوهم إياه، ولم يأت نص يوجب على المؤمنين أن يسألوا رسولهم الدعاء لهم والشفاعة فيهم.

ثم هو موقوت بوقت حياتهم وفي حضورهم، فلا يجوز سؤالهم الدعاء والشفاعة لا في مغيبهم ولا بعد مماتهم، كما تقدم تقريره في المبحث السابق، "حياة الأنبياء في قبورهم".

* والتوسل بالإيمان بهم وطاعتهم موجب لحصول الشفاعة والدعاء، فضلاً عن بلوغ المطلوب في الدنيا والآخرة، قال الله عز وجل عن عبده نوح عليه السلام ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً ﴾ [نوح : ٢٨].

(١) التوسل والوسيلة ص [٤-٧].

وقال سبحانه عن عبده إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٤١].

فهذا دعاؤهم للمؤمنين وشفاعتهم فيهم في الحياة الدنيا قد وجبت لكل المتوسلين بالإيمان بهم من غير طلب منهم أو سؤال.

والمؤمنون من هذه الأمة قد حظوا بأكثر مما حظي به من قبلهم من الأمم، من دعاء نبيهم وشفاعته فيهم فقد أمر الله جل وعلا عبده ورسوله محمداً ﷺ بالدعاء لهم في أكثر من موضع في كتابه، فقال ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩].

وقال ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

وقال ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور : ٦٢].

وقال في المؤمنات المهاجرات ﴿ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ ﴾ [الممتحنة : ١٢].

وقال سبحانه ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣].

ومعلوم بالضرورة أنه النبي ﷺ قد امتثل لتلك الأوامر الإلهية، بل عُلم من سنته وسيرته أنه زاد على ما أمر به، تطوعاً، فكان دائم الدعاء لأمته عامة وللمؤمنين منهم خاصة.

فمن ذلك حديث أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال«يا أُبي أرسل إليَّ أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه: أن هون على أمتي. فردَّ إليَّ الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه: أن هون على أمتي. فردَّ إليَّ الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها. فقلت: اللهم اغفر لأمتي. اللهم اغفر لأمتي. وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليَّ الخلق كلهم حتى إبراهيم ﷺ »(١).

ومن ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ «أنه تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ الآية. وقال عيسى عليه السلام ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، فرفع يديه وقال "اللهم أمتي أمتي" وبكى فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك» (٢).

وعن عائشة رضي الله عنها، في حديث لها طويل، وفيه قال النبي ﷺ «فإن جبريل أتاني ... فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم» (٣) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الثابتة التي دعا فيها النبي ﷺ لأمته أو لقوم معينين أو لأشخاص، أو يدعو لمن يتصف بصفات معينة أو لمن يعمل عملاً من الأعمال الصالحة، وهذا مما تواترت به سنته، فيعم كل عامل من أمته إلى قيام الساعة.

---

(١) رواه مسلم [٨٢٠].

(٢) رواه مسلم [٢٠٢].

(٣) رواه مسلم [٩٧٤].

كقوله ﷺ «اللهم فأرشد الأئمة واغفر للمؤذنين» (١)، وكقوله«نضر الله امرءاً سمع منا مقالة فوعاها ...» الحديث (٢)، وكقوله«رحم الله امرءاً صلى قبل العصر أربعاً» (٣)، وكقوله«رحم الله امرءاً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى ...» الحديث (٤)، وهكذا.

وأما الشفاعة في الآخرة فقد أخبر النبي ﷺ أن أحق الناس بها هم المتوسلون بالإيمان به وبطاعته كما جاء في حديث الشفاعة المشهور«انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان...» ثم قال«أخرج من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان...»(٥)، وكقوله ﷺ «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»(٦).

فهذه الأحاديث ونحوها صريحة في إيجاب الشفاعة للمؤمنين والصالحين وأنهم أحق الناس بها وأهلها. وأما التوسل بدعاء الأنبياء وشفاعتهم فهو موقوف على شروط، أعظمها وأجلها: الإيمان بهم وطاعتهم، وله موانع، أكبرها الشرك والكفر.

فهذا نوح عليه السلام، أول رسل الله إلى الأرض، منع الشفاعة في ابنه الذي هو من صلبه أن ينقذه من الغرق، كما حكى الله عنه ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۝ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : ٤٥،٤٦] ، وذاك إبراهيم عليه السلام، خليل الرحمن، لم تقبل شفاعته في أبيه لما قال ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۝ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ [الشعراء : ٨٦،٨٧].

---

(١) رواه أبو داود [٥١٧] والترمذي [٢٠٧].

(٢) رواه الترمذي [٢٦٥٨].

(٣) رواه أبو داود [١٢٧١]، والترمذي [٤٣٠].

(٤) رواه البخاري [٣٠٦/٤].

(٥) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [٤٨/١-٤٩].

(٦) رواه البخاري [١٩٣/١].

وثبت في الصحيح أنه يشفع له يوم القيامة فيقول الله له«إني حرمت الجنة على الكافرين»[1].

وهذا سيد الأنبياء وإمام الشفعاء محمد ﷺ قد منع الشفاعة والدعاء في طوائف من الناس: فقيل له في حق المنافقين ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠]. وأصرح منه قوله تعالى ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ [التوبة : ٨٤]. وقيل له في المشركين، حتى الأقربين ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : ١١٣].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال« استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ...» الحديث[2].

قلت: وسيأتي مزيد بحث وتفصيل في هذه المسألة في مبحث الشفاعة، إن شاء الله تعالى. والمقصود أن الإيمان والعمل الصالح هما الوسيلة العظمى التي يتوسل بها العباد لتحصيل الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي التي فرضها الله وأمر بها وشرعها على لسان كل الرسل، وما سواها من الوسائل إما أنه تبع لها أو نافلة، إذ لو كان واجباً أو مفروضاً لكان داخلاً فيها أصالة.

وأختم هذا الفصل بما رواه الرسول ﷺ عن ربه في الحديث القدسي«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يمشي بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ...» الحديث[3].

---

(١) رواه البخاري [٦/٣٨٧]، مسلم [٩٧٦].

(٢) رواه مسلم [٩٧٦]. (٣) رواه البخاري [١١/٣٤٠].

فدل هذا الحديث الإلهي على أن أفضل الوسائل وأكملها وأقربها لمحبة الله ورضوانه، فرائضه التي افترضها على عباده، ويليها النوافل من الأعمال الصالحة، التي شرعها الله على لسان رسله *عليهم السلام* وهي التي يرجى للمكثر منها أن ينال محبة الله له، وهي الغاية التي يسعى إليها المتوسلون، وما سواها من الغايات ثمرة لها وتبع لها.

ولذا قال "ولئن سألني لأعطينه" وهو وعد محقق، ولن يخلف الله وعده، أن يعطيه كل مسئول ومرغوب مما فيه صلاحه وسعادته في العاجل والآجل.

وشرح ما تضمنه هذا الحديث العظيم من فوائد جليلة يطلب من مظانه، فالحديث ذو شجون، وأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يدخلنا في زمرة أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

فصـــــل:

أقسام التوسل المبتدع

والتوسل المبتدع أنواع، منهـا، وهـو شرها، اتخاذ الوسـائط مـن دون الله، وهذا كان فعل المشركين الذيـن أخـبر الله عنهـم بقولـه ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣].

فقد صرحوا، كما أخبر الله عنهم، أنهم ما عبدوهم إلا توسلاً إليـه سبحانه وتقرباً، فاتخذوهم آلهة وشفعاء ووسطاء، يدعونهم ويرجونهم لجلب نفع أو دفع ضر، وما علموا أنهم قد ارتكبوا أقبح الأفعال وأشنعها وأبغضها إلى المتوسل إليه سبحانه، وأنهم صاروا بذلك العمل من المطرودين المبعدين بدلاً من أن يكونوا من المقربين، وحق عليهم سخط الله وغضبه وعذابه، بدلاً من أن يحظوا بمرضاته ومحبته وثوابه.

ولقد تعـددت صـور تلـك الوسـائط المتخـذة مـن دون الله أوليـاء وشـفعاء، فمنهم من توسل بالملائكة الكرام ومنهم من توسل بالأنبيـاء *عليهم السلام* كـاليهود بعزير والنصارى بالمسـيح، ومنهـم مـن توسـل بالصـالحين كـوَد وسـواع ويغـوث وغيرهم، ومنهم من توسل بالشمس والقمر والنجوم ونحوها من الأفلاك، وتوسل بعضهم بغير ذلك، كالشجر والحجر والقبر ونحوها من الجمادات.

والحكم فيها كلها واحد، أنـه شـرك لا يغفـره الله ولا يقبـل معـه صرفـاً ولا عدلاً، كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

وقال ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ [التوبة: ٢٨].

* وسمى الله عز وجل هذه الوسائط آلهة، كما في قوله ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم :٨١،٨٢]. وقوله ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾. [الأحقاف: ٢٨].

* وسماها الله تعالى شركاء، كما في قوله ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [الرعد: ٣٣]. وكقوله ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ [الكهف: ٥٢].

* وسماها الله تعالى شفعاء، فقال ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

* وسماها أرباباً، فقال عز وجل ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَآئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٠].

فهذه كلها أسماء لمسمىً واحد، والعبرة بالمعنى، فكل من اتخذ مخلوقاً يدعوه من دون الله ويرجوه ويستغيث به ويتوكل عليه ويرغب إليه ويرهب، فقد اتخذ مع الله إلهاً ونداً ورباً وشريكاً، وإن سماه بغير اسمه أو أطلق عليه غير وصفه.

ومن ذلك تسمية بعض غلاة هذه الأمة لمن يدعونه ويرجونه من دون الله: ولياً، وشفيعاً، ووسيلة وواسطة، ونحو ذلك.

* وقد سُئل ابن تيمية رحمه الله عن رجل قال: لابد لنا من واسطة بيننا وبين الله، فإنا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك.

فأجاب رحمه الله: "إن أراد بذلك أنه لابد من واسطة تبلغنا أمر الله، فهذا حق، فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه، وما أعده لأوليائه من كرامته، وما وعد به أعداءه من عذابه، ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التي تعجز العقول عن معرفتها، وأمثال ذلك، إلا بالرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده.

وإن أراد بالواسطة: أنه لابد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم، يسألونه ذلك ويرجون إليه فيه، فهذا من أعظم الشرك، الذي كفَّر الله به المشركين، حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار.

فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنب وهداية القلوب وتفريج الكروب وسد الفاقات ... فهو كافر بإجماع المسلمين" اهـ[1] باختصار.

قلت: ويلحق بهذا النوع ما كان بمعناه، كشرك المحبة وشرك الطاعة، فهو إلى جانب الأول، الذي هو شرك العبادة باتخاذ الوسطاء والشفعاء من دون الله، أكثر الأنواع شيوعاً وذيوعاً في الأمم من عهد نوح *عليه السلام* إلى وقتنا الحاضر وإلى ما شاء الله.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) مجموع الفتاوى [١/١٢١ - ١٢٤].

فصــــل:

ودون ذلك التوسل، الذي هو محض الشرك وعين الكفر، أنواع أخرى كثيرة لا يحصرها عدد، فهي تشمل كل ما أحدثه الناس من البدع في الأعمال والأقوال تقرباً بها إلى الله عز وجل، وهي دركات:

* فمنها ما هو قريب من الكفر أو ذريعة إليه، كتلك الأقوال المنقولة عن المتكلمين في الإيمان والصفات والقدر، وكالغلو في النبي ﷺ والصالحين والعكوف على قبورهم واتخاذها مساجد وشد الرحال إليها، ونحو ذلك من الذرائع المفضية إلى الشرك.

* ومنها عبادات مخترعة بكيفية معينة في أزمنة مخصوصة أو أمكنة يعتقد فيها البركة.

* ومنها أقوال وأفعال زيدت في العبادات المشروعة، كما زاد بعضهم أذكاراً في الصلاة لم ترد في الشرع، وكما زاد بعضهم في مناسك الحج ما ليس منها...، وهكذا.

وبسط الكلام على تلك الأنواع، فضلاً عن أفرادها، مما يخرجنا عن المقصود، ولا تكفي الإشارة إلى بعضها لأن ذكرها يتطلب شرحها وبيانها ثم تفنيدها وردها، وسيأتي في الفصل التالي بيان نوع آخر من أنواع التوسل المبتدع.



فصــــل:

بدع التوسل في الدعاء

ومن ذلك ما شاع على ألسنة كثير من العامة من التوسل في الدعاء بالمخلوقين، فيسألون الله تعالى بحقهم وجاههم وحرمتهم، كأن يقول أحدهم: اللهم اغفر لي بحق هذا اليوم الفاضل، أو بحق الشهر الكريم، أو بجاه النبي ﷺ ...، ونحو ذلك.

وهذا النوع من التوسل هو الذي شغب به المخالفون وأكثروا فيه القيل والقال، واستدلوا عليه بأدلة زعموا أنها تنصر بدعتهم وتقوي حجتهم، وقد تقدم نقل بعضها من كتابي المخالف في مقدمة هذا المبحث، وما هي إلا سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، كما سيظهر عند التحقيق.

وقبل النظر في أدلتهم، أو شبهاتهم، ومناقشتها، نذكر أولاً حجتنا في أن هذا التوسل بدعة منكرة ما أنزل الله بها من سلطان، وذلك من وجوه كثيرة:

أولها: أن الدعاء عبادة، والعبادة لا تصح إلا بأمرين: الإخلاص لله وحده، والمتابعة للنبي ﷺ في الفعل والترك، في الهيئة والقصد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله "ودين الإسلام مبني على أصلين: أن نعبد الله وحده لا شريك له، وأن نعبده بما شرعه من الدين، وهو ما أمرت به الرسل أمر إيجاب أو أمر استحباب..." [١]. وقال في موضع آخر، عند الكلام على متابعة النبي ﷺ، "وذلك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل، فإذا فعل فعلاً على وجه العبادة، شرع لنا أن نفعله على وجه العبادة، وإذا قصد

(١) التوسل والوسيلة [ص ٦٥].

تخصيص مكان أو زمان بالعبادة، خصصناه بذلك. كما كان يقصد أن يطوف حول الكعبة، وأن يلتمس الحجر الأسود، وأن يصلي خلف المقام..." إلى أن قال: "وأما ما فعله بحكم الاتفاق، ولم يقصده، مثل: أن ينزل بمكان ويصلي فيه، لكونه نزله، لا قصداً لتخصيصه به بالصلاة والنزول فيه، فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه، أو النزول، لم نكن متبعين، بل هذا من البدع التي كان ينهى عنها عمر بن الخطاب" (١).

قلت: وكذا متابعته ﷺ في الترك، تكون في الهيئة والقصد، فما تركه النبي ﷺ قصداً على وجه التعبد، فالسنة تركه كذلك، فما تركه على الدوام تُرك على الدوام، وما تركه أحياناً تُرك أحياناً.

فمن ذلك: مداومته ﷺ على ترك الجهر بالقراءة في الصلوات السرية والركعتين الأخريين من العشاء، والأخيرة من المغرب، وكذا تركه للأذان والإقامة في صلاة العيدين، وتركه الصعود على الجبل يوم عرفة ...، وهكذا.

إذاً فالتوسل في الدعاء بالجاه والحق والحرمة ونحو ذلك، مما لم يثبت عن النبي ﷺ أنه فعله ولا أمر به ولا أقره، بل داوم على تركه، فمن فعله فقد خالف سنته وهديه وابتدع في دين الله ما لم يأذن به الله.

الوجه الثاني: إجماع الصحابة رضوان الله عليهم على ترك هذا التوسل، مع أنهم حصل لهم من الخطوب، كالجدب والقحط والمشكلات والمحن، فلم يؤثر عنهم التوسل بذات النبي ﷺ لا في الاستسقاء ولا في غيره، بل استعاضوا عن ذلك إلى ما هو خير منه وهو المشروع، فتوسلوا بالعباس ﷺ، أي بدعائه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله، بعد أن ذكر التوسل المشروع، وهو التوسل بطاعة النبي ﷺ، والتوسل بدعائه وشفاعته، "والثالث: التوسل به بمعنى الإقسام

---

(١) التوسل والوسيلة [ص ٢٠٢-٢٠٣].

على الله بذاته والسؤال بذاته فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة، أو عن من ليس قوله حجة، كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى" اهـ(١).

وقال رحمه الله في موضع آخر "فأما التوسل بذاته - يعني النبي ﷺ - في حضوره أو مغيبه أو بعد موته، مثل الإقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم، لا بدعائهم، فليس هذا مشهوراً عند الصحابة والتابعين.

بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان ومن بحضرتهما من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان، لما أجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حياً كالعباس وكيزيد بن الأسود، ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا في هذه الحال بالنبي ﷺ، لا عند قبره ولا غير قبره، بل عدلوا إلى البدل كالعباس وكيزيد.

بل كانوا يصلون عليه في دعائهم، وقد قال عمر: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، فجعلوا هذا بدلاً عن ذاك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه.

وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره ويتوسلوا هناك ويقولوا في دعائهم: بالجاه ونحو ذلك من الألفاظ التي تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل أو السؤال به، فيقولون: نسألك أو نقسم عليك بنبيك، أو بجاه نبيك ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس..." (٢) إلى آخر كلامه.

---

(١) التوسل والوسيلة [ص ٨٢].

(٢) التوسل والوسيلة [ص ٢٥١ - ٢٥٢].

قلت: أما أثر عمر بن الخطاب ﷺ، فقد تقدم ذكره وتخريجه في أول المبحث، وبينا هناك أن قوله "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا": أي بدعائه ﷺ، ويدل على ذلك أمور:

* منها: عدول عمر ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم عن التوسل به ﷺ بعد موته، فلو كان توسلهم بذاته أو بحرمته أو بحقه وجاهه لما استعاضوا عنه بغيره، لا العباس ولا غيره، إذ من المعلوم بداهة أن جاهه ﷺ ومنزلته لم تنقص بموته، بأبي هو وأمي، بل لم يزل هو أرفع الخلق منزلة وأعظمهم جاهاً وأكرمهم على ربه عز وجل، فعلم من ذلك أن التوسل به قبل موته ﷺ إنما كان بدعائه.

* ومنها: أن التوسل بالبدل، وهو العباس ﷺ، لم يكن بذاته بل بدعائه، كما جاء مصرحاً به في رواية الزبير بن بكار في "الأنساب"، حيث ذكر أن العباس لما استسقى به عمر قال: "اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث..."، فهذا نص قاطع بأن معنى قول عمر ﷺ "وإنا نتوسل إليك بعم نبينا" أي بدعائه.

* ومنها: تواتر النصوص الأخرى على أن توسل الصحابة بالنبي ﷺ في الاستسقاء وغيره إنما كان بدعائه، وقد تقدم ذكر بعضها، كحديث أنس ﷺ في قصة الأعرابي الذي جاء النبي ﷺ وهو يخطب يوم الجمعة فسأله الاستسقاء، فرفع ﷺ يديه وقال "اللهم أغثنا..." الحديث.

ويضاف إلى تلك الأمور أيضاً، فعل معاوية ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم، في عهده حيث استعاضوا عن التوسل بذات النبي ﷺ أو بجاهه، فتوسلوا بيزيد بن الأسود، والقصة رواها أبو زرعة الدمشقي ويعقوب بن سفيان في تاريخيهما بسند صحيح عن سليم بن عامر: "أن الناس قحطوا بدمشق فخرج

معاوية يستسقي بيزيد الأسود فسقوا" كذا قال الحافظ في الإصابة[1] في القسم الثالث في ترجمة يزيد بن الأسود الجرشي.

ورواها ابن سعد في الطبقات في ترجمته فقال (أخبرت عن أبي اليمان عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر الخبائري "أن السماء قحطت فخرج[2] معاوية ابن أبي سفيان وأهل دمشق يستسقون، فلما قعد معاوية على المنبر قال: أين يزيد بن الأسود الجرشي ؟ قال: فناداه الناس، فأقبل يتخطى فأمره معاوية فصعد المنبر فقعد عند رجليه، فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود الجرشي، يا يزيد ارفع يديك إلى الله.

فرفع يزيد يديه، ورفع الناس أيديهم، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في المغرب[3] وهبت لها ريح فسقينا حتى كاد الناس لا يصلون إلى منازلهم") اهـ[4].

وفعل مثل ذلك الضحاك بن قيس الفهري، فاستسقى كذلك بيزيد بن الأسود الجرشي، كما ذكر ذلك الحافظ في الإصابة ونسبه إلى تاريخ أبي زرعة الدمشقي، فقال "قال أبو زرعة: وحدثنا أبو مسهر حدثنا سعيد بن عبد العزيز: أن الضحاك بن قيس خرج يستسقي بالناس فقال ليزيد بن الأسود: قم يا بكّاء" اهـ[5].

وقال الحافظ في التلخيص[6] "وروى ابن بشكوال من طريق ضمرة عن ابن أبي حملة قال: أصاب الناس قحط بدمشق، فخرج الضحاك بن قيس يستسقي،

(١) الإصابة [٣/٦٣٤]. وانظر التلخيص الحبير [٢/١٠١]، وصححه الألباني في الإرواء [٣/١٣٩].
(٢) في المطبوعة: مخرج.
(٣) كذا في المطبوعة.
(٤) طبقات ابن سعد [٧/٤٤٤].
(٥) الإصابة [٣/٦٣٤]، وأعله الألباني في الإرواء [٣/١٤٠] بالانقطاع. وعزاه في (التوسل ص ٤٢) إلى ابن عساكر، وصحح إسناده.
(٦) التلخيص الحبير [٢/١٠١].

فقال: أين يزيد بن الأسود، فقام وعليه برنس ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أي رب إن عبادك تقربوا بي إليك فاسقهم. قال: فما انصرفوا إلا وهم يخوضون في الماء" (١).

قلت: ولم يزل ذلك عمل السلف من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ومن بعدهم من الأئمة، يتوسلون في الاستسقاء بالصالحين، أي بدعائهم، فيحضرونهم معهم ويطلبون منهم الدعاء، معرضين عن التوسل بذات النبي ﷺ أو بحرمته وجاهه، فضلاً عن غيره من الأنبياء أو الصالحين، فتتابعهم على ذلك الفعل وهذا الترك خلفاً عن سلف وكابراً عن كابر، دليل على بدعية هذا النوع من التوسل وما كان في معناه، مثل التوسل بحرمة الزمان الفاضل، كشهر رمضان ويوم الجمعة، وحرمة المكان الفاضل، كالكعبة المشرفة والمسجد النبوي، بل هذه أولى بالمنع.

الوجه الثالث: إنكار عامة السلف وكثير من فقهاء الخلف هذا النوع من التوسل بعينه ولم يرخص فيه إلا قليل، على خُلْفٍ بينهم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) قال الألباني في الإرواء [٣/١٤٠]: " ابن أبي حملة هذا لا أعرفه ".

شبهات المخالفين في التوسل المبتدع

وقد استدل المخالفون على مثل هذا النوع من التوسل بجملة من الأدلة، أسوقها باختصار:

الدليل الأول:

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥].

قال المخالف "ابتغاء الوسيلة إليه هو التوسل إليه بما يقربه إليه، سواء في ذلك الأعمال والأشخاص أولوا المكانة والجاه عنده، إبقاءً للمطلق على إطلاقه" (١).

والجواب: قد تقدم بيان معنى الآية في أول الباب، وأن الوسيلة هي القربة والطاعة، وقد اتفق على ذلك علماء اللغة والتفسير، ولم يقل أحد ممن يعتد بقوله أن معناها التوسل بالأشخاص.

وكذا القول في معنى الوسيلة في قوله تعالى ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء : ٥٧].

وزعم هذا المخالف وأضرابه أن الوسيلة تكون بالأشخاص أولي المكانة والجاه، يحتمل معنيين:

الأول: اتخاذهم وسائط يدعونهم ويرجونهم ويستغيثونهم من دون الله ليقربوهم إلى الله زلفى، وهذا هو الشرك بعينه، وهو دين المشركين الأولين. كما تقدم.

والمعنى الثاني: سؤال الله تعالى بجاههم ومنزلتهم عنده، كأن يقول في دعائه "اللهم إني أسألك بحق فلان وجاهه عندك أن تغفر لي"، فهذا القول بدعة، وهو مما زعم المخالفون أن لهم عليه أدلة، وهي ما نحن بصدد تفنيده الآن والرد عليه.

---

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٥٦].

الدليل الثاني:

حديث أنس ﷺ: أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون" [1].

والجواب: أن هذا الأثر لا يدل على ما ذهبوا إليه من جواز التوسل بجاه الأشخاص، بل هو على نقيض ذلك، كما تقدم تفصيله، إذ لو كان كذلك لما عدل الصحابة رضوان الله عليهم عن التوسل بالنبي ﷺ بعد موته إلى غيره، فجاهه ﷺ ومنزلته عند ربه لم تنقص بعد موته، بأبي هو وأمي.

وقول عمر "إنا كنا نتوسل إليك بنبينا" أي بدعائه كما دلت عليه النصوص الأخرى التي ذكرت من قبل، وهذا قد انقطع بموته ﷺ. فعدل عمر إلى العباس.

وقوله "وإنا نتوسل إليك بعم نبينا" أي بدعائه، كما جاء مصرحاً به في رواية أخرى، وفيها أن العباس ﷺ دعا فقال "اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب..." الخ.

وهذا الذي فعله الصحابة في عهد عمر ﷺ، فعلوا مثله في عهد معاوية حين استسقى بيزيد بن الأسود الجرشي، وقال "يا يزيد ارفع يديك إلى الله" فرفع يديه ودعا، فأمطروا، كما تقدم ذكره من قبل.

فدل ذلك على أن التوسل كان بدعائهم لا بأشخاصهم.

الدليل الثالث: توسل آدم بالرسول

وهو الحديث المروي عن عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ قال «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله: يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ ...» الحديث.

(١) رواه البخاري [٢/ ٤٩٤].

قال المخالف "وفي الحديث التوسل برسول الله ﷺ قبل أن يتشرف العالم بوجوده فيه ..." إلى أن قال "ومنه يعلم أن القول بأن التوسل لا يصح بأحد إلا وقت حياته في دار الدنيا قول من اتبع هواه بغير هدى من الله" [1].

والجواب: إن هذا الذي استدل به المخالف حديث باطل موضوع، وكلامه المذكور عقبه لا يمت إلى العلم والأدب بصلة، وهو أحق بما وصف به غيره باتباع الهوى بغير هدى، كما سيظهر بعد قليل.

فالحديث رواه البيهقي في الدلائل[2] والحاكم في المستدرك[3] من طريق عبد الله بن مسلم الفهري ثنا إسماعيل بن مسلمة أنبأ عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب.

قال البيهقي عقب إخراجه "تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه عنه، وهو ضعيف". وتعقب الذهبي تصحيح الحاكم، فقال "بل موضوع. وعبد الرحمن واهٍ. رواه عبد الله بن مسلم الفهري، ولا أدري من ذا، عن إسماعيل بن مسلمة عنه".

قلت: وقد أشار الحافظ في لسان الميزان[4] إلى احتمال أن يكون عبد الله بن مسلم هذا هو ابن رشيد، الذي قال عنه ابن حبان في المجروحين "متهم بوضع الحديث" [5].

وأما عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فقد اتفقوا على تضعيفه، وقال عنه ابن حبان: كان ممن يقلب الأخبار فاستحق الترك[6].

والعجب من الحاكم في تصحيح إسناده، وهو الذي قال عن راويه عبد الرحمن بن زيد في "المدخل": "روى عن أبيه أحاديث موضوعة، لا يخفى على من

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٥٨ – ١٥٩].
(٢) دلائل النبوة [٥/ ٤٨٨].
(٣) المستدرك [٢/ ٦١٥].
(٤) لسان الميزان [٣/ ٣٦٠].
(٥) المجروحين [٢/ ٤٤].
(٦) انظر المجروحين [٢/ ٥٧] والتهذيب [٦/ ١٧٧].

تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه" [١].

ومما يدل على بطلان هذا الحديث أن الله تعالى ذكر خطيئة آدم في أكثر من موضع في كتابه الكريم ولم يذكر أنه توسل بغيره سبحانه، كما في قوله تعالى ﴿ فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾، وقد جاء تفسير تلك الكلمات التي ألهمها إياه ليتوب عليه، وهي قوله تعالى ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

فتوسل آدم بأعظم ما يتوسل به وهو اسم الله تعالى، فقال "ربنا"، مع اعترافه بظلمه وفقره إلى رحمة ربه ومغفرته، وهذا هو توسل الأنبياء والصالحين، كما دل على ذلك سائر النصوص من الكتاب والسنة.

الدليل الرابع: توسل اليهود بالرسول

وفيه أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال "كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلما التقوا هزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء: اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم. قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله: وقد كانوا يستفتحون بك يا محمد على الكافرين" [٢].

والجواب: هذا الأثر موضوع، وعجب ممن ينتسب إلى العلم ويحتج بمثله، وهو لو كان صحيحاً فليس فيه إلا فعل اليهود، فمنذ متى كان فعلهم حجة في شيء من الدين ؟

(١) المدخل [ص ١٥٤].

(٢) انظر شفاء الفؤاد [ص ١٥٩].

وقد رواه الحاكم في المستدرك [١] من طريق عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال الحاكم "أدت الضرورة إلى إخراجه في التفسير، وهو غريب من حديثه". وتعقبه الذهبي فقال "لا ضرورة في ذلك، فعبد الملك متروك هالك".

قلت: وعبد الملك بن هارون، كذبه ابن معين والسعدي وابن حبان، وضعفه غيرهم. وقال الحاكم عنه "ذاهب الحديث جداً، روى عن أبيه أحاديث موضوعة" [٢].

وأبوه هارون بن عنترة، قال عنه الدارقطني "متروك"، وقال ابن حبان "منكر الحديث جداً، لا يجوز الاحتجاج به بحال".

لكن وثقه أحمد وابن معين، وقال أبو زرعة "لا بأس به مستقيم الحديث" [٣].

قلت: وقد أعله شيخ الإسلام رحمه الله بعلة أخرى من جهة المتن أيضاً، وهي أن قوله تعالى ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة : ٨٩] إنما نزلت، باتفاق المفسرين، في اليهود المجاورين للمدينة، الذين كانوا يحالفون الأوس والخزرج ويحصل بينهم قتال، لا يهود خيبر وغطفان، فإن هذا من كذاب جاهل لم يحسن كيف يكذب [٤].

ومعنى قوله تعالى ﴿ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، أي: يستنصرون به، وهو قول يهود: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى يعذب المشركين ويقتلهم. ذكر هذا ابن جرير في تفسيره [٥] وذكر أقوالاً أخرى نحوه، وهذا يؤكد بطلان رواية عبد الملك بن هارون.

(١) المستدرك [٢/٢٦٣].

(٢) انظر الميزان [٢/٦٦٦] واللسان [٤/٧١] والمجروحين [٢/١٣٣].

(٣) انظر الميزان [٤/٢٨٤] والتهذيب [١١/٩] والمجروحين [٣/٩٣].

(٤) التوسل والوسيلة [ص ٢٢٨].

(٥) تفسير الطبري [٢/٣٣٥].

الدليل الخامس: التوسل بحق الأنبياء

روي عن أنس ﷺ قال«لما ماتت فاطمة بنت أسد، دخل عليها رسول الله ﷺ، فجلس عند رأسها...» إلى أن قال« فحفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده، وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه، وقال: الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي ... » الحديث.

ذكره المخالف وقال صححه ابن حبان والطبراني والحاكم[١].

والجواب: وهذا من نمط ما قبله في الاحتجاج بما لا يثبت عند العلماء، وفيه كذب صريح كما سيأتي.

والحديث رواه الطبراني في الأوسط[٢] وفي الكبير[٣] من طريق روح بن صلاح قال: حدثنا سفيان الثوري عن عاصم الأحول عن أنس.

قال الطبراني عقيب إخراجه "لم يرو هذا الحديث عن عاصم الأحول إلا سفيان الثوري، تفرد به روح بن صلاح".

قال الهيثمي في المجمع[٤] "رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه روح بن صلاح، وثقه ابن حبان والحاكم، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح".

وروح هذا قال عنه ابن عدي في الكامل "ضعيف، في بعض حديثه نكرة"[٥].

وترجمه في لسان الميزان[٦] ونقل توثيق ابن حبان والحاكم له، وقال: ذكره

---

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٦٢].
(٢) معجم الطبراني الأوسط [١/١٥٢].
(٣) معجم الطبراني الكبير [٢٤/٢٧٧].
(٤) مجمع الزوائد [٩/٢٦٠].
(٥) الكامل في الضعفاء [٣/١٠٠٦].
(٦) لسان الميزان [٢/٤٦٥].

ابن يونس في الغرباء وقال "رويت عنه مناكير". وقال الدارقطني "ضعيف في الحديث". وقال ابن ماكولا "ضعفوه".

قلت: فتفرد مثل هذا الضعيف بالحديث يصيره منكراً.

وقول المخالف "صححه ابن حبان والطبراني والحاكم" كذب صريح، فإن الطبراني لم يزد على قوله "تفرد به روح بن صلاح" وهذا ليس تصحيحاً بل هو إلى التضعيف أقرب.

وأما ابن حبان والحاكم فأين صححاه ؟ ومن نقل ذلك عنهما من العلماء ؟ وتوثيقهما للرجل أمر، وتصحيح الحديث أمر آخر، كما هو معلوم عند عامة المشتغلين بهذا الفن.

الدليل السادس: التوسل بحق السائلين

روي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال« من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة...» الحديث.

قال المخالف "وقوله ﷺ هنا« بحق السائلين»، شامل للأحياء والأموات جميعاً، فصح التوسل بهما معاً" [١].

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: من حيث السند، فالحديث رواه الإمام أحمد في المسند[٢] وابن ماجه في سننه[٣] من طريق فضيل بن مرزوق عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري. وهذا إسناد ضعيف.

---

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٦٢].
(٢) مسند أحمد [٣/٢١].
(٣) سنن ابن ماجه [١/٢٥٦].

قال البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه "هذا إسناد مسلسل بالضعفاء: عطية، هو العوفي، وفضيل بن مرزوق والفضل بن الموفق كلهم ضعفاء، لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق، فهو صحيح عنده" اهـ[1].

قلت: أما الفضل بن الموفق فهو في إسناد ابن ماجه، وقد تابعه يزيد بن هارون في رواية أحمد.

وأما عطية العوفي، فقد ترجمه في التهذيب[2] ونقل تضعيفه عن أحمد وهشيم وأبي حاتم وأبي زرعة والنسائي والجوزجاني وابن عدي وابن حبان. وقال أبو داود: ليس بالذي يعتمد عليه. وقال الساجي: ليس بحجة. ثم هو شيعي مدلس، كان يجالس الكلبي الكذاب ويكنيه أبا سعيد، فإذا روى عنه قال: حدثني أبو سعيد، يوهم أنه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه.

وأما فضيل بن مرزوق: فقد ترجمه في التهذيب[3] ونقل توثيق الثوري وابن عيينة له، وكذا ابن معين في رواية. وقال في رواية أخرى: صالح الحديث، إلا أنه شديد التشيع.

وقال أبو حاتم: صالح الحديث صدوق يهم كثيراً يكتب حديثه، وقال: لايحتج به. وضعفه النسائي وابن حبان وقال: كان يخطئ على الثقات ويروي عن عطية الموضوعات.

وذكر الألباني في السلسلة الضعيفة[4] له علة ثالثة، وهي الاضطراب فقد روي مرفوعاً وموقوفاً.

الوجه الثاني: من حيث المعنى، فإن هذا ليس فيه توسل بالأشخاص، بل

(١) مصباح الزجاجة [١/١٦٦].
(٢) تهذيب التهذيب [٧/٢٢٤].
(٣) تهذيب التهذيب [٧/٢٩٨].
(٤) السلسلة الضعيفة [ح ٢٤].

بالأعمال، لأنه قال "أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي"، فإن سؤال الله ودعاءه والمشي في مرضاته، أعمال يتوسل بها، كما تقدم.

وهو أيضاً: توسل إلى الله بأفعاله، لأنه سبحانه يجيب دعاء السائلين ويثيب الطائعين.

قال ابن تيمية "وحق السائلين أن يجيبهم، وحق الماشين أن يثيبهم، وهذا حق أوجبه الله تعالى، وليس للمخلوق أن يوجب على الخالق تعالى شيئاً.

وإذا كان حق السائلين والعابدين له هو الإجابة والإثابة بذلك، فذاك سؤال لله بأفعاله" اهـ[1] باختصار.

وقال في موضع آخر "وهذا بمنزلة الثلاثة الذين سألوه في الغار بأعمالهم" [2].

وزعم المخالف أن قوله "بحق السائلين" يشمل التوسل بالأحياء والأموات، جهل منه بمعنى الحديث، على ضعفه، لأن قوله "السائلين" وقوله "ممشاي" لا يدخل فيه الأموات كما هو بين واضح، فإنهم قد انقطع عنهم العمل والسؤال.

الدليل السابع: التوسل بقبر النبي

ذكروا فيه أثراً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت، لما شكوا إليها القحط "انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كُوًّا إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف". قال الراوي "ففعلوا، فمطرنا مطراً حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق".

قال المخالف "فهذا توسل بقبره ﷺ، لا من حيث كونه قبراً، بل من حيث كونه ضم جسد أشرف المخلوقين وحبيب رب العالمين، فتشرف بهذه المجاورة العظيمة واستحق بذلك المنقبة الكريمة".

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة [ص ٢٧٧ – ٢٧٨].
(٢) المرجع السابق [ص ٢١٥].

ثم قال "فهذا إسناد لا بأس به، بل هو جيد عندي، فقد قبله العلماء واستشهدوا بكثير من أمثاله، وبمن هم أقل حالاً من رجاله" [١].

والجواب: بل هو أثر باطل لا تقوم به حجة.

فقد رواه الدارمي[٢] عن أبي النعمان محمد بن الفضل قال حدثنا سعيد بن زيد ثنا عمرو بن مالك النكري حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبد الله ، فذكره. وهذا إسناد ضعيف من عدة وجوه:

الأول: عمرو بن مالك النكري، قال ابن عدي في الكامل[٣] "منكر الحديث عن الثقات ويسرق الحديث. سمعت أبا يعلى يقول: عمرو بن مالك النكري كان ضعيفاً". وساق له أحاديث، ثم قال "ولعمرو غير ماذكرت أحاديث مناكير بعضها سرقها من قوم ثقات" اهـ.

وذكره ابن حبان في ثقاته وقال "يغرب ويخطئ" [٤].

وقال الحافظ في التقريب "صدوق له أوهام، من السابعة" [٥].

ووثقه الذهبي في الميزان[٦] .

قلت: وقول من ضعفه مقدم، لأن الجرح المفسر مقدم على التعديل.

الثاني: سعيد بن زيد، ترجمه في التهذيب[٧] ونقل اختلاف الأئمة فيه. فقال يحيى بن سعيد: ليس بشيء. وقال أبو حاتم والنسائي: ليس بالقوي. وقال الجوزجاني: يضعفون حديثه وليس بحجة. وقال البزار: لين. وضعفه الدارقطني. وقال ابن حبان: كان صدوقاً حافظاً ممن كان يخطئ في الأخبار ويهم حتى لا يحتج به إذا انفرد.

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٥٢ – ١٥٣].
(٢) سنن الدارمي [٤٣/١].
(٣) الكامل في الضعفاء [١٧٩٩/٥].
(٤) الثقات لابن حبان [٤٨٧/٨].
(٥) التقريب [رقم ٥١٠٤].
(٦) ميزان الاعتدال [٢٨٦/٣].
(٧) التهذيب [٣٢/٤].

ووثقه ابن معين وابن سعد والعجلي وسليمان بن حرب.

قلت: ومثل هذا لا يحتج به إذا انفرد، بل يعتبر بحديثه عند المتابعة.

الثالث: أبو النعمان محمد بن الفضل، وهو وإن كان ثقة إلا أنه اختلط آخر عمره. قال ابن حبان في المجروحين "اختلط في آخر عمره وتغير حتى كان لا يدري ما يحدث به، فوقع المناكير الكثيرة في روايته ... وإذا لم يعلم التمييز بين سماع المتقدمين والمتأخرين منه يترك الكل ولا يحتج بشيء منه" [١].

لكن قال الدارقطني: تغير بأخرة، وما ظهر له بعد اختلاطه حديث منكر، وهو ثقة. وانتصر الذهبي لكلام الدارقطني وشنع على ابن حبان [٢] .

قلت: والعجب من الذهبي رحمه الله في تشنيعه على ابن حبان، فقد مشى على القاعدة في المختلطين من الثقات، ثم هو لم ينفرد بذلك، بل وافقه الأئمة عليه. منهم أبو حاتم إمام الجرح والتعديل، فقد قال: اختلط في آخر عمره وزال عقله، فمن سمع منه قبل الاختلاط فسماعه صحيح.

وقال النسائي: كان أحد الثقات قبل أن يختلط.

وذكر الذهبي نفسه أن أبا داود لم يسمع منه لتغيره. فعلام التشنيع على ابن حبان رحمه الله وقد وافقه هؤلاء الأئمة وغيرهم ؟

وعليه فسماع الدارمي منه هذا الحديث لا يعلم أكان بعد الاختلاط أم قبله، فمثله يرد ولا يقبل.

فهذه ثلاث علل في إسناد الحديث كلها تبطل الاحتجاج به، وله علة أخرى ذكرها شيخ الإسلام في الرد على البكري فقال "ومما يبين كذب هذا أنه في مدة

(١) المجروحين لابن حبان [٢٩٤/٢].
(٢) انظر التهذيب [٤٠٢/٩] والميزان [٧/٤].

حياة عائشة لم يكن للبيت كوة، بل كان بعضه باقياً كما كان على عهد النبي ﷺ، بعضه مسقوف وبعضه مكشوف، وكانت الشمس تنزل فيه، كما ثبت في الصحيحين[1] عن عائشة أن النبي ﷺ كان يصلي العصر والشمس في حجرتها، لم يظهر الفيء بعد.

ولم تزل الحجرة كذلك حتى زاد الوليد بن عبد الملك في المسجد في إمارته لما زاد الحجر في مسجد الرسول ﷺ".

إلى أن قال "ثم إنه بني حول حجرة عائشة التي فيها القبر جدار عال، وبعد ذلك جعلت الكوة لينزل منها من ينزل إذا احتيج إلى ذلك لأجل كنس أو تنظيف. وأما وجود الكوة في حياة عائشة فكذب بين" اهـ[2].

ويقال أيضاً: قد كان رسول الله ﷺ وهو حي يمشي على الأرض وليس بينه وبين السماء سقف، وكان يصيبهم القحط والجدب، فلو كان مجرد كشف الحجاب بين جسده الشريف والسماء سبباً لنزول الغيث، لما احتيج إلى الدعاء والاستسقاء، ولكانت السماء ممطرة على الدوام، أو في أكثر الأحيان.

وكل ذلك لم يكن، بل كان الصحابة يسألونه الدعاء وكان يستسقي لهم، وسن لهم وللأمة الدعاء والاستسقاء بعد مماته من غيرذهاب إلى قبره، ولا قبر غيره، وهذا الذي أجمعت عليه الصحابة، كما تقدم في استسقاء عمر بالعباس، ومعاوية بيزيد بن الأسود.

وهذا، بلا ريب، مقدم على فعل عائشة رضي الله عنها، لو صح، لأنه إجماع من الصحابة، والعصمة في الإجماع لا في اجتهاد أفراد، كما هو مقرر في الأصول.

الدليل الثامن: التوسل بالقبر النبوي في عهد عمر

ذكروا فيه أثراً عن مالك الدار قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب فجاء

(١) البخاري [٢/٢٥] ومسلم [٦٦١].

(٢) الرد على البكري [١/١٦٣ – ١٦٤].

رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: «إيت عمر فأقرئه مني السلام وأخبرهم أنهم مسقون، وقل له: عليك بالكيس الكيس».

فأتى الرجل فأخبر عمر فقال: يا رب لا آلو إلا ما عجزت عنه.

قال المخالف "وهذا إسناد صحيح، كذا قال الحافظ ابن كثير في البداية [١/٩١] [1] في حوادث عام ثمانية عشر". إلى أن قال "وقد روى سيف في الفتوح أن الذي رأى في المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة. قال ابن حجر: إسناده صحيح" [2].

والجواب: وهذا الأثر أيضاً لا تقوم به حجة، على فرض صحة إسناده.

فقد رواه البيهقي عن أبي نصر بن قتادة وأبي بكر الفارسي قالا حدثنا أبو عمر بن مطر حدثنا إبراهيم بن علي الذهلي حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن مالك. فذكره.

قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح.

وقال الحافظ في الفتح[3] "وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الداري – وكان خازن عمر – قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر..." فذكر نحوه.

(١) كذا، والصواب هو [٧/٩١]، وليس هذا خطأً مطبعياً لأن المخالف كرره من قبل في كتابه " مفاهيم يجب أن تصحح " [ص ٦٧، ٧٧]، وقد نبه على ذلك الشيخ صالح آل الشيخ في رده عليه، وها هو ذا يعيد الخطأ نفسه، كما أعاد نفس الأخطاء السابقة في الاعتقاد وغيره، عناداً منه ومكابرة.

(٢) شفاء الفؤاد [ص ١٥٤ – ١٥٥]، وقد سقت لفظ الرواية من تاريخ ابن كثير [٧/٩١] أما اللفظ الذي ساقه المخالف فهو مختلف، ويظهر أنه ينقل من كتب غيره لا من الأصول.

(٣) فتح الباري [٢/٤٩٥].

ثم قال "وقد روى سيف في الفتوح أن الذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني، أحد الصحابة".

وزواه البخاري في التاريخ الكبير[1] عن علي عن محمد بن خازم عن أبي صالح عن مالك الدار.

قلت: وعلي هو ابن المديني، ومحمد بن خازم هو أبو معاوية. ولم يذكر في هذا الإسناد الأعمش، وهذا يخالف ما تقدم.

فلو فرض أن الأول هو المحفوظ، وأن إسناده صحيح، كما قال ابن كثير وغيره، فإنه لا حجة فيه من وجوه:

الأول: أن صاحب القصة رجل مجهول، فكيف يحتج بفعل مجهول ؟

الثاني: أنه لو فرض كونه من الصحابة، كما ذكر في بعض الطرق أنه بلال بن الحارث، فليس فعله حجة أيضاً، إذ هو غيرمعصوم، والخلاف في فعل الصحابي هل هو حجة أم لا، محله إذا لم يكن مخالفاً لنص شرعي، وهاهنا هو مخالف لسائر النصوص الشرعية التي تحرم الإتيان إلى القبور وسؤال أصحابها الاستسقاء وغيره، والتي تحرم اتخاذها أعياداً ومساجد، وقد تقدم ذكرها من قبل.

ثم هو مخالف لإجماع الصحابة رضوان الله عليهم، فما كانوا يستسقون به ﷺ بعد موته ولا بقبره، بل عدلوا عن ذلك واستسقوا بغيره، كما فعل عمر رضي الله عنه في استسقائه بالعباس، وكانوا يستسقون أيضاً بصلاة الاستسقاء وبالدعاء في خطب الجمعة وغيرها، وهو العمل الذي تتابعت عليه الأمة من زمن الرسول ﷺ، وهي سنته التي سنها لهم وأرشدهم إليها.

الثالث: أن هذا الفعل لو كان مشروعاً لدلهم عليه النبي ﷺ، وهو أرحم

(١) التاريخ الكبير [٧/٣٠٤].

بالأمة من أنفسها، وما من خير إلا دلهم عليه، ولا من شر إلا حذرهم منه، وهو لم يرشدهم إلا إلى الدعاء وصلاة الاستسقاء.

الرابع: ولو كان هذا الفعل مشروعاً لما خفي على علماء الصحابة وأكابرهم، وفيهم عمر بن الخطاب وعثمان وعلي وبقية المبشرين والعبادلة وغيرهم، فكيف جهله هؤلاء كلهم، وهم أعلم الصحابة وأفقههم ؟

الخامس: أن ذكر بلال بن الحارث المزني في بعض الطرق إنما هو في قصة أخرى ولم تثبت، إذ رواها سيف بن عمر الضبي، وهو ضعيف، كما سيأتي عند ذكر ترجمته.

والقصة ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية[1] قبل رواية البيهقي، ونصها "أن رجلاً من مزينة عام الرمادة سأله أهله أن يذبح لهم شاة فقال: ليس فيهن شيء. فألحوا عليه فذبح شاة فإذا عظامها حمر، فقال يا محمداه. فلما أمسى أري في المنام أن رسول الله ﷺ يقول له: أبشر بالحياة، إيت عمر فأقرئه مني السلام..." الخ.

وفيها أن عمر لما أخبرهم بخبر الرجل قالوا: إنما استبطأك في الاستسقاء فاستسق بنا. ففعل عمر، واستسقى لهم.

وقوله في أثناء القصة "فأخبرهم بقول المزني، وهو بلال بن الحارث"، لا يعرف من القائل، ولعله وهم من بعض الرواة، إذ في أول القصة ما يشعر أنه غيره، لأنه قال "أن رجلاً من مزينة سأله أهله" فلو كان بلالاً المزني الصحابي المعروف لما أبهم.

وهذه القصة ليس فيها أنه أتى القبر وقال "يارسول الله استسق لأمتك"

(١) البداية والنهاية [٧/٩١].

كما في رواية البيهقي، بل فيها الإرشاد إلى السنة المتبعة في ذلك، وهي فعل صلاة الاستسقاء.

على أن قول الرجل "يا محمداه" باطل لا يجوز، والقصة باطلة أصلاً، لأنها من رواية سيف الضبي، وهذه ترجمته:

ترجمة سيف بن عمر الضبي

ذكر في التهذيب[1] عن ابن معين قال: فلس خير منه. وقال أبو حاتم: متروك الحديث. وقال أبوداود: ليس بشيء. وقال النسائي: ضعيف.

وقال الدارقطني: متروك. وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات. اتهم بالزندقة. وقال الحاكم: اتهم بالزندقة، وهو في الرواية ساقط.

قلت: فروايته إذاً ساقطة لا يحتج بها بحال.

السادس: أن راوي القصة، مالك بن عياض الدار لم يوثقه أحد، فمثله يحتاج إلى متابع.

فقد ذكره البخاري في التاريخ الكبير[2] وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل[3] ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً.

فإن احتج المخالف بتصحيح ابن كثير وابن حجر[4] لإسناده، وهو مصير

(١) تهذيب التهذيب [٢٩٥/٤].
(٢) التاريخ الكبير [٣٠٤/٧].
(٣) الجرح والتعديل [٢١٣/٨].
(٤) تصحيح ابن حجر لإسناده يحتمل أن يريد به كل الإسناد، وهو الذي يظهر لي، وقد نص عليه الشيخ عبد العزيز في تعليقه على الأثر المذكور، ويحتمل أن يريد صحيح الإسناد إلى أبي صالح كما رجحه الألباني في التوسل [ص ١٢٠]. والله أعلم.

منهما إلى توثيقه، فجوابه أن هذا معارض بقول المنذري في الترغيب[1]، بعد أن أورد أثراً عن مالك الدار عن عمر، "رواه الطبراني في الكبير، ورواته إلى مالك الدار ثقات مشهورون، ومالك الدار لا أعرفه".

وكذا قال الهيثمي في المجمع[2] بعد أن ذكر نفس الأثر "رواه الطبراني في الكبير، ومالك الدار لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات"

فليس قول ابن كثير وابن حجر بأرجح من قول المنذري والهيثمي، رحمهم الله تعالى، بل الترجيح هنا مطلوب، وقول الأخيرين موافق لقواعد الحديث وأصول الجرح والتعديل، كما لا يخفى على المشتغلين بهذا الفن.

الدليل التاسع: مناظرة الإمام مالك لأبي جعفر المنصور

ذكروا فيه ما جرى بين الإمام مالك بن أنس وأبي جعفر المنصور، لما سأله فقال "يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال الإمام مالك: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم *عليه السلام* إلى الله تعالى يوم القيامة..."[3].

قلت: وهذه القصة لا تساوي حكايتها، فهي باطلة سنداً ومتناً، ولو صحت لم يكن فيها أدنى حجة، لأن قائلها غير معصوم، وهي مخالفة لنصوص الشرع فلا اعتبار بها بحال.

وقد رواها القاضي عياض في الشفاء[4] عن أبي عبد الله محمد الأشعري وأبي القاسم أحمد بن بقي الحاكم وغير واحد قالوا أخبرنا أبو العباس أحمد بن

(١) الترغيب والترهيب [٥٥/٢].
(٢) مجمع الزوائد [١٢٨/٣].
(٣) شفاء الفؤاد [ص ١٤٧].
(٤) الشفاء [٤١/٢].

عمر بن دلهاث حدثنا أبو الحسن علي بن فهر حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج حدثنا أبو الحسن عبد الله بن المنتاب حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل حدثنا ابن حميد قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً... فذكره.

وهذا إسناد مسلسل بالمجاهيل وفيه ضعف وانقطاع.

قال ابن عبد الهادي في الصارم المنكي[1] "إسناده مظلم منقطع، وهو مشتمل على من يتهم بالكذب وعلى من يجهل حاله. وابن حميد هو محمد بن حميد الرازي، وهو ضعيف كثير المناكير غير محتج بروايته، ولم يسمع من مالك شيئاً ولم يلقه".

ثم ساق ابن عبد الهادي ترجمة ابن حميد الرازي.

وقال ابن تيمية في التوسل والوسيلة[2] "وهذه الحكاية منقطعة، فإن محمد بن حميد الرازي لم يدرك مالكاً لا سيما في زمن أبي جعفر المنصور، فإن أبا جعفر توفي بمكة سنة ثمان وخمسين ومائة، وتوفي مالك سنة تسع وسبعين ومائة، وتوفي محمد بن حميد الرازي سنة ثمان وأربعين ومائتين، ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم إلا وهو كبير مع أبيه.

وهو مع هذا ضعيف عند أكثر أهل الحديث ..." وساق ترجمته، ثم قال "وفي الإسناد أيضاً من لا يعرف حاله. وهذه الحكاية لم يذكرها أحد من أصحاب مالك المعروفين بالأخذ عنه.

ومحمد بن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند، فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته ؟ ".

ثم وجه شيخ الإسلام الرواية، على فرض ثبوتها، بما يوافق الحق وأصول الشرع.

(١) الصارم المنكي [ص ٢٥٥].
(٢) التوسل والوسيلة [ص١٢٢-١٢٥].

قلت: ويكفي وجود مثل هذا الضعيف في الإسناد، لبطلانه وسقوط الإستدلال به.

وقد ترجمه في التهذيب[1] ونقل عن ابن معين توثيقه، وكأنه رجع عن ذلك بعد.

وقال يعقوب بن شيبة: كثير المناكير. وقال البخاري: في حديثه نظر. وقال النسائي : ليس بثقة. وقال الجوزجاني: رديء المذهب غير ثقة. وكذبه أبو زرعة وابن خراش وابن وارة والنسائي.

الدليل العاشر: توسل الأعرابي بالقبر

ذكروا فيه عن علي ﷺ قال "قدم علينا أعرابي بعدما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر النبي ﷺ وحثى على رأسه من ترابه، وقال: يا رسول الله: قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله عز وجل ما وعينا عنك، وكان فيما أنزل الله عز وجل عليك ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر إنه قد غفر لك[2] .

والجواب: ذكر هذا الأثر الحافظ ابن عبد الهادي في الصارم المنكي[3]، وساق إسناده من طريق أبي الحسن الكرخي عن علي بن محمد بن علي حدثنا أحمد بن محمد بن الهيثم الطائي قال حدثني أبي عن سلمة بن كهيل عن أبي صادق عن علي بن أبي طالب.

(١) تهذيب التهذيب [١٢٧/٩].
(٢) انظر الذخائر [ص ١٠٠]، وقد ساقه بنحوه، ونقلت نصه من الصارم المنكي [ص ٣٢٣].
(٣) الصارم المنكي [ص ٣٢٣].

وقال "هذا خبر منكر موضوع وأثر مختلق مصنوع، لا يصلح الاعتماد عليه، ولا يحسن المصير إليه، وإسناده ظلمات بعضها فوق بعض".

قلت: أما أبو صادق، فقد ترجمه في التهذيب[1] وفي التقريب[2] وقال "صدوق، وحديثه عن علي مرسل". وسلمة بن كهيل، قال عنه في التقريب[3] "ثقة". وباقي الإسناد لم أجد له ترجمة.

وقد روي نحو هذه القصة من طرق أخرى ضعيفة.

قال ابن عبد الهادي في الصارم المنكي "وهذه الحكاية التي ذكرها – يعني السبكي – بعضهم يرويها عن العتبي بلا إسناد، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب الهلالي، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب عن أبي الحسن الزعفراني عن الأعرابي.

وقد ذكرها البيهقي في كتاب شعب الإيمان بإسناد مظلم عن محمد بن روح بن يزيد البصري حدثني أبو حرب الهلالي قال "حج أعرابي، فلما جاء إلى باب مسجد رسول الله ﷺ أناخ راحلته فعقلها، ثم دخل المسجد حتى أتى القبر...".

إلى أن قال "وفي الجملة: ليست هذه الحكاية المذكورة عن الأعرابي مما يقوم به حجة، وإسنادها مظلم مختلف، ولفظها مختلف أيضاً. ولو كانت ثابتة لم يكن فيها حجة على مطلوب المعترض، ولايصلح الاحتجاج بمثل هذه الحكاية، ولا الاعتماد على مثلها عند أهل العلم. وبالله التوفيق" اهـ[4].

ورواية العتبي التي أشار إليها ابن عبد الهادي، ذكرها ابن كثير[5] رحمه الله، وعنه نقل المخالف[6]، فقال "وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه "الشامل" الحكاية المشهورة عن العتبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ،

(١) تهذيب التهذيب [١٣٠/١٢].
(٢) تقريب التهذيب [رقم ٨١٦٧].
(٣) تقريب التهذيب [رقم ٢٥٠٨].
(٤) الصارم المنكي [ص ٢٤٦].
(٥) تفسير ابن كثير [٣٠٦/٢] طبعة الشعب.
(٦) شفاء الفؤاد [ص ٨-٩].

فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له".

وهذا الإسناد أيضاً مما لا تقوم به حجة، فالشيخ أبو نصر بن الصباغ، شيخ الشافعية، ولد سنة أربعمائة للهجرة [1]، وتوفي العتبي، وهو محمد بن عبد الله بن عمر بن معاوية بن عمر بن عتبة بن أبي سفيان، سنة ثمان وعشرين ومائتين للهجرة [2].

فبينهما مفاوز تنقطع دونها أعناق المطي، حتى إذا بلغته إذا هي بأعرابي ورؤيا منام !! فأي حجة في هذا، معشر الأنام ؟

والقوم لهم ولع شديد بقصص الأعراب، فقد ذكروا قصة أخرى عن أعرابي آخر، قالوا إنه وقف مقابل القبر الشريف فقال "اللهم هذا حبيبك وأنا عبدك والشيطان عدوك، فإن غفرت لي سر حبيبك وفاز عبدك وغضب عدوك ... إلى أن قال: وإن هذا سيد العالمين فأعتقني على قبره" [3].

وزعموا أن الأصمعي كان شاهداً فقال للأعرابي "يا أخا العرب إن الله قد

(١) سير أعلام النبلاء [٤٦٤/١٨].
(٢) وفيات الأعيان [٥٢٢/١].
(٣) شفاء الفؤاد [ص ١١٠]، وعزاها إلى " الجوهر المنظم " للهيتمي.

غفر لك[١] وأعتقك بحسن هذا السؤال". ولا أظن عاقلاً يجهل أن هذه الحكايات المنقولة عن الأعراب، لا تصلح أن تكون حجة في أمر من أمور الدين، لا في الفضائل ولا في الأحكام، حتى لو أجمع عليه من بأقطارها من الأعراب، فهم كما وصفهم الله تعالى بقوله ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٩٧].

وإذا كانت أقوال أئمة العلم وأفعالهم ليست حجة في شرع الله ، فكيف بأعراب مجهولين ؟

ولست أشك أن هذه القصص كلها مختلقة مكذوبة، على الأصمعي والعتبي والهلالي حتى الأعرابي، وأنهم برءاء من عهدتها، وإثمها على من اخترعها ومن صدقها واحتج بها في مسألة من أجل مسائل الدين، وهي التوسل.

الدليل الحادي عشر: حديث الأعمى

واحتجوا بالحديث المشهور، الذي رواه الترمذي من حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه «أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني قال: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك. قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه فيَّ» [٢].

وفيه قصة موقوفة، وقد سيقت سبباً للحديث المرفوع، رواها الطبراني في

(١) إخباره بذلك يفتقر إلى وحي ينزل من السماء، وقد انقطع بموت النبي ﷺ.

(٢) سنن الترمذي [٥٦٩/٥].

الكبير[١] أن عثمان بن حنيف رضي الله عنه علم رجلاً هذا الدعاء، وكانت له حاجة عند أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقضاها له، وكان من قبل لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته.

قال المخالف "وحاصل القصة أن عثمان بن حنيف الراوي للحديث المشاهد للقصة علم من شكا إليه إبطاء الخليفة عن قضاء حاجته، هذا الدعاء الذي فيه التوسل بالنبي ﷺ والنداء له مستغيثاً به بعد وفاته ﷺ" [٢].

والجواب: هذا الحديث هو أصح ما يمكن أن يتمسك به من قال بالتوسل بذات رسول الله ﷺ في حياته وبعد وفاته، والشبهة فيه أقوى من غيره، وهي مع ذلك شبهة باطلة وحجة داحضة، كما سيتضح عما قريب.

وقد اختلف في إسناده ومتنه، وزيادة القصة الموقوفة لم ترد في أكثر الطرق، وانفرد بنقلها من لا يحتمل تفرده، وإليك التفصيل:

أولاً: الرواية المرفوعة

رواها الترمذي[٣] والنسائي في عمل اليوم والليلة[٤] وابن ماجه[٥] وابن خزيمة[٦] وغيرهم من طريق شعبة بن الحجاج عن أبي جعفر الخَطْمي عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف، فذكره، ولفظ الدعاء الذي علمه النبي ﷺ الرجل "اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه فيَّ". وزاد ابن خزيمة[٦] والحاكم[٧] "وشفعني فيه". إلا أن ابن خزيمة نقل عن شيخه شكه في هذه الزيادة. وزاد

(١) المعجم الكبير [٣٠/٩].

(٢) شفاء الفؤاد [ص ١٥٩-١٦١].

(٣) سنن الترمذي [٥٦٩/٥].

(٤) عمل اليوم والليلة [ص ٤١٧].

(٥) سنن ابن ماجه [٤٤١/١].

(٦) صحيح ابن خزيمة [٢٢٥/٢].

(٧) مستدرك الحاكم [٣١٣/١].

البيهقي في الدلائل[١] "وشفعني في نفسي" بدلاً من "وشفعني فيه".

وتابع شعبة، حماد بن سلمة عند النسائي في اليوم والليلة[٢] وأحمد في المسند[٣]. وتابعه أيضاً مسلم بن إبراهيم عند ابن أبي خيثمة في تاريخه، ذكر ذلك ابن تيمية في التوسل[٤].

الحكم على الحديث

والحديث إسناده صحيح، فإن رجاله كلهم ثقات، وأبو جعفر الخطمي وثقه ابن معين والنسائي والعجلي وابن حبان والطبراني والذهبي. وقال عنه ابن حجر: صدوق[٥]. وقد صحح الحديث الترمذي، فقال عقب إخراجه "حسن صحيح غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث أبي جعفر، وهو الخطمي" [٦]. وصححه ابن خزيمة والحاكم وغيرهم.

فقه الحديث ومعناه

وليس في الحديث دلالة للمخالفين على التوسل بذات النبي ﷺ، وإنما هو توسل بدعائه، وهو مشروع كما تقدم.

وقوله « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك» أي بدعائه، ويدل عليه أمور:

الأول: أن هذا هو مراد الرجل، حيث جاء إلى النبي ﷺ وقال "ادع الله أن يعافيني" ولما خيره النبي ﷺ بين إجابة سؤاله بالدعاء له، وبين أن يصبر، اختار الدعاء، فقال "فادعه".

(١) دلائل النبوة [١٦٦/٦].
(٢) عمل اليوم والليلة [ص ٤١٧].
(٣) مسند أحمد [١٣٨/٤].
(٤) التوسل والوسيلة [ص ١٩٦].
(٥) انظر التهذيب [١٥١/٨] والتقريب [٥١٩٠] والكاشف [٣٠٣/٢].
(٦) كذا في النسخة المطبوعة [طبعة شاكر]، وكذا الطبعة المصرية بتحقيق إبراهيم عطوة، وعارضة الأحوذي [٨١/١٣] وتحفة الأشراف [٢٣٦/٧]، وهو الصواب. لكن وردت بلفظ " وهو غير الخطمي " في تحفة الأحوذي [٣٤/١٠] وذكرها ابن تيمية في التوسل [ص ١٨٦].

الثاني: أنه علمه أن يقول في دعائه "اللهم شفعه فيَّ"، وشفاعة النبي ﷺ هي دعاؤه له، فأراد النبي ﷺ أن يجتمع له سببان موجبان للقبول: دعاء النبي ﷺ له، ودعاؤه هو أن يقبل الله دعاء النبي ﷺ له.

الثالث: ويؤكد ذلك قوله، في بعض الألفاظ "اللهم شفعه فيَّ، وشفعني فيه". فشفاعة النبي ﷺ فيه، هي دعاؤه له أن يقضي الله حاجته ويرد بصره. وشفاعة الرجل في النبي ﷺ، هي دعاؤه الله أن يقبل دعاء النبي له. فدل ذلك على أن النبي ﷺ كان داعياً له، وأن التوسل كان بدعائه وشفاعته، لابذاته وجاهه.

الرابع: أن هذا المعنى هو المطابق لسائر الأدلة الأخرى من الكتاب والسنة والإجماع. فقد تواترت الآيات على إباحة التوسل بدعاء الأنبياء، كما في قوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ۞ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يوسف : ٩٧،٩٨].

وتواترت عليه الأحاديث، كحديث أنس رضي الله عنه في قصة الرجل الذي سأل النبي ﷺ الاستسقاء يوم الجمعة[١].

وقد أجمع الصحابة والسلف على ذلك، كما في الأثر الذي رواه أنس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا" [٢].

وكذا فعل معاوية رضي الله عنه حين استسقى بيزيد بن الأسود، فقال "اللهم إنا نستشفع إليك بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود الجرشي. يا يزيد ارفع يديك إلى الله" [٣].

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [١٧٣/١].
(٢) رواه البخاري [٤٩٤/٢].
(٣) طبقات ابن سعد [٤٤٤/٧].

فقوله "نستشفع بيزيد" وقول عمر "نتوسل بنبينا" وقوله "نتوسل بعم نبينا" أي بدعائه. وهكذا هنا في قوله "أتوجه بنبيك" وقوله "إني توجهت بك" أي بدعائه.

ثانياً: الرواية الموقوفة

وأما الأثر الموقوف عن عثمان بن حنيف في تعليمه الرجل أن يدعو بهذا الدعاء في عهد عثمان بن عفان ﵁، فقد رواه الطبراني في الكبير[1] والصغير[2] وفي الدعاء[3] قال: حدثنا طاهر بن عيسى بن قيرس المصري التميمي حدثنا أصبغ ابن الفرج حدثنا عبد الله بن وهب عن شبيب بن سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف ﵁ "أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان ﵁ في حاجة له..." فذكره بطوله.

ورواه البيهقي في الدلائل[4] عن عبد الملك بن أبي عثمان قال أنبأنا الإمام أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي القفال قال: أنبأنا أبو عروبة حدثنا العباس بن الفرج حدثنا إسماعيل بن شبيب حدثنا أبي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني[5] عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف "أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان ﵁ في حاجته، وكان عثمان لا يلتفت إليه..." فذكره.

قال البيهقي عقبه "وقد رواه أحمد بن شبيب بن سعيد عن أبيه أيضاً بطوله. أخبرنا أبو علي الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن شاذان أنبأنا عبد الله بن جعفر بن درستويه حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا أحمد بن شبيب بن سعيد، فذكره بطوله. وهذه زيادة ألحقتها به في شهر رمضان سنة أربع وأربعين".

(١) معجم الطبراني الكبير [٣٠/٩].
(٢) معجم الطبراني الصغير [٣٠٦/١].
(٣) الدعاء [١٢٨٧/٢].
(٤) دلائل النبوة [١٦٧/٦].
(٥) هو الخطمي.

قلت: فمدار هذه الرواية الطويلة، التي فيها الأثر الموقوف، الذي سيق سبباً للحديث المرفوع، على شبيب بن سعيد، وقد رواها عن شبيب ثلاثة أشخاص: عبد الله بن وهب المصري، وإسماعيل بن شبيب، وأحمد بن شبيب. فلو فرضنا أن رواية هؤلاء الثلاثة عن شبيب بن سعيد صحيحة، فإن الإسناد ضعيف شاذ، لتفرد شبيب بتلك الزيادة عن سائر الثقات الذين رووا الحديث واقتصروا فيه على المرفوع فقط. وهذا ملخص لإسناد الحديث:

١ – فراوي الحديث في الأصل هو عثمان بن حنيف ﵁.

٢ – ورواه عنه ثقتان، هما: عمارة بن خزيمة، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف.

٣ – ورواه عنهما أبو جعفر الخطمي، وهو ثقة، وقد تفرد بالحديث.

٤ – ثم رواه عن أبي جعفر الخطمي أربع ثقات: شعبة وحماد بن سلمة، عنه عن عمارة بن خزيمة. وهشام الدستوائي وروح بن القاسم عنه عن أبي أمامة.

٥ – واقتصر شعبة وحماد بن سلمة وهشام الدستوائي على رواية الحديث المرفوع دون الموقوف. وانفرد روح بن القاسم برواية الموقوف، لكن من طريق شبيب فقط.

٦ – وشبيب أيضاً لم يتفق الرواة عنه بذكر الموقوف، بل اختلف عليه، فمرة رووه، ومرة اقتصروا على المرفوع فقط. ولننظر أولاً في ترجمة شبيب هذا، وهو ابن سعيد الحَبَطي.

قال ابن عدي في الكامل[1] "حدث عن يونس عن الزهري أحاديث مستقيمة، وحدث عنه ابن وهب بأحاديث مناكير. وكان شبيب إذا روى عنه ابنه أحمد بن شبيب ليس هو شبيب بن سعيد الذي يحدث عنه ابن وهب بالمناكير التي يرويها عنه.

(١) الكامل في الضعفاء [١٣٤٦/٤].

ولعل شبيباً بمصر في تجارته إليها كتب عنه ابن وهب من حفظه فيغلط ويهم، وأرجو أن لا يتعمد شبيب هذا الكذب" اهـ.

وقال الذهبي في الميزان(١) "صدوق يغرب. قال ابن عدي: كان شبيب لعله يغلط ويهم إذا حدث من حفظه، وأرجو أنه لا يتعمد، فإذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس فكأنه شبيب آخر. يعني يجوّد" (٢).

وقال الحافظ في التقريب(٣) "لابأس بحديثه من رواية ابنه أحمد عنه، لا من رواية ابن وهب". وقال في هدي الساري(٤) "أخرج البخاري من رواية ابنه عن يونس أحاديث، ولم يخرج من روايته عن غير يونس، ولامن رواية ابن وهب عنه شيئاً".

فتبين من ترجمته، أن رواياته على ثلاثة أقسام:

الأولى، وهي أعلاها: رواية ابنه عنه عن يونس بن يزيد.

الثانية، وهي دونها: رواية ابنه عنه عن غير يونس بن يزيد.

الثالثة، وهي منكرة: رواية ابن وهب عنه.

قلت: وهذه الرواية الموقوفة على عثمان بن حنيف رويت عنه من طريق عبد الله بن وهب، وابنيه إسماعيل بن شبيب، وأحمد بن شبيب فالأولى منكرة، كما تقدم.

والثانية محل نظر، فإني لم أجد لإسماعيل بن شبيب ترجمة في كتب الجرح والتعديل.

---

(١) ميزان الاعتدال [٢٦٢/٢].

(٢) وفيما نقله الذهبي عن ابن عدي اختلاف في اللفظ عن النسخة المطبوعة من الكامل، كما ترى، فإما أن يكون من اختلاف النسخ، أو تصرف من الذهبي.

(٣) تقريب التهذيب [٢٧٣٩].

(٤) هدي الساري [ص٤٠٩].

والثالثة: لا بأس بها(١)، وهي رواية أحمد عنه، ولكن في الشواهد والمتابعات فيقبل ما تابعه فيها غيره، أما عند المخالفة، كما في هذا الحديث، حيث اقتصرت رواية الثقات الأثبات على المرفوع فقط، فتعد رواية أحمد هنا منكرة. ويؤيد ذلك ما جاء في ترجمة أحمد بن شبيب حيث قال الأزدي عنه: منكر الحديث غير مرضي. وقال ابن عبد البر: أحمد بن شبيب عن أبيه متروك(٢). ثم إن الرواة عن أحمد قد اختلفوا، فبعضهم تابع الثقات في الاقتصار على المرفوع، وبعضهم خالف.

فرواه محمد بن علي الصائغ عن أحمد بن شبيب عن أبيه، عند الحاكم(٣) وعند البيهقي في الدلائل(٤).

ورواه العباس بن فرج الرياشي، والحسين بن يحيى الثوري عن أحمد عن أبيه، عند ابن السني في عمل اليوم الليلة(٥).

فهؤلاء تابعوا الثقات في الاقتصار على المرفوع دون ذكر الموقوف.

وهؤلاء ثقات، فمحمد بن علي الصائغ ترجم له في سير أعلام النبلاء(٦) وقال "المحدث الإمام الثقة"، وذكره ابن حبان في الثقات(٧).

والعباس بن فرج الرياشي قال عنه في التقريب(٨) "ثقة".

إلا الحسين بن يحيى الثوري، فلم أجد له ترجمة.

وخالفهم يعقوب بن سفيان الفسوي، وهو ثقة حافظ، كما في التقريب(٩) فرواه عن أحمد عن أبيه، عند البيهقي في الدلائل(١٠)، فزاد الرواية الموقوفة.

---

(١) فهي ليست من رواية أحمد عنه عن يونس بن يزيد، المخرج لها في الصحيح.

(٢) انظر الميزان [١٠٣/١] والتهذيب [٣٦/١].

(٣) مستدرك الحاكم [٥٢٦/١].

(٤) دلائل النبوة [١٦٧/٦].

(٥) عمل اليوم والليلة لابن السني[ص٢٩٦].

(٦) سير أعلام النبلاء [٤٢٨/١٣].

(٧) الثقات لابن حبان [١٥٢/٩].

(٨) تقريب التهذيب [٣١٨١].

(٩) تقريب التهذيب [٧٨١٧].

(١٠) دلائل النبوة [١٦٨/٦].

والخلاصة

أن الحديث قد صح مرفوعاً، وأما الأثر الموقوف فهو ضعيف. وقد أطال شيخ الإسلام في بيان ذلك وتقريره، ثم قال "وبالجملة فهذه الزيادة لو كانت ثابتة لم تكن فيها حجة، وإنما غايتها أن يكون عثمان بن حنيف ظن أن الدعاء يدعى ببعضه دون بعض، فإنه لم يأمره بالدعاء المشروع، بل ببعضه، وظن أن هذا مشروع بعد موته ﷺ..." إلى أن قال "ومثل هذا لا تثبت به شريعة، كسائر ما ينقل عن آحاد الصحابة، في جنس العبادات أو الإباحات أو الإيجابات أو التحريمات، إذا لم يوافقه غيره من الصحابة عليه، وكان ما ثبت عن النبي ﷺ يخالفه لا يوافقه، لم يكن فعله سنة يجب على المسلمين اتباعها، بل غايتها أن يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد، ومما تنازعت فيه الأمة، فيجب رده إلى الله والرسول". ثم ذكر ما انفرد به بعض الصحابة من اجتهادات مخالفة للسنة، ثم قال "ومن قال من العلماء: إن قول الصحابي حجة، فإنما قاله إذا لم يخالفه غيره من الصحابة ولا عرف نص يخالفه. ثم إذا اشتهر ولم ينكروه، كان إقراراً على القول، فقد يقال: هذا إجماع إقراري، إذا عرف أنهم أقروه، لم ينكره أحد منهم. وهم لا يقرون على باطل.

وأما إذا لم يشتهر، فهذا إن عرف أن غيره لم يخالفه، فقد يقال: هو حجة، وأما إذا عرف أنه خالفه فليس بحجة بالاتفاق.

وأما إذا لم يعرف هل وافقه غيره أو خالفه، لم يجزم بأحدهما. ومتى كانت السنة تدل على خلافه، كانت الحجة في سنة رسول الله ﷺ، لا فيما يخالفها، بلا ريب عند أهل العلم.

وإذا كان كذلك، فمعلوم أنه إذا ثبت عن عثمان بن حنيف أو غيره أنه جعل من المشروع المستحب أن يتوسل بالنبي ﷺ بعد موته من غير أن يكون النبي

ﷺ داعياً له ولا شافعاً فيه، فقد علمنا أن عمر وأكابر الصحابة لم يروا هذا مشروعاً بعد مماته، كما كان يشرع في حياته، بل كانوا في الاستسقاء في حياته يتوسلون به، فلما مات لم يتوسلوا".

إلى أن قال "وحديث الأعمى حجة لعمر وعامة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فإنه إنما أمر الأعمى أن يتوسل إلى الله بشفاعة النبي ﷺ ودعائه، لا بذاته. وقال له في الدعاء قل: اللهم شفعه فيّ" [١].

قلت: فسقط الاحتجاج بهذا الحديث على جواز التوسل بذوات الأشخاص أو بجاههم في الحياة وبعد الممات.

تنبيه

زعم المخالف أن في الحديث دليلاً على جواز سؤال الميت واستغاثته لأنه قال في دعائه، كما جاء في بعض الطرق "اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فتقضى لي حاجتي".

فزعم أن هذا نداء واستغاثة بالنبي ﷺ بعد وفاته.

والجواب أن يقال:

أولاً: هذه اللفظة ثابتة، وهي قوله "يا محمد"، فقد وردت في أكثر من طريق، منها:

١ – عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي عن عمارة بن خزيمة عن عثمان. عند النسائي في اليوم والليلة [٢].

٢ – وعن شعبة عن أبي جعفر به. عند أحمد[٣] وابن ماجه[٤] وأبي زرعة[٥] وابن خزيمة[٦].

---

(١) التوسل والوسيلة [ص ١٩٦-٢١٠].
(٢) عمل اليوم والليلة [ح ٦٥٨].
(٣) مسند أحمد [٤/١٣٨].
(٤) سنن ابن ماجه [١/٤٤١].
(٥) علل ابن أبي حاتم [٢/١٩٠].
(٦) صحيح ابن خزيمة [٢/٢٢٥].

٣ – وعن هشام الدستوائي عن أبي جعفر الخطمي عن أبي أمامة بن سهل عن عثمان. عند النسائي في اليوم والليلة[1].

٤ – وعن عون بن عمارة عن روح بن القاسم عن أبي جعفر به. عند الحاكم[2].

٥ – وعن إسماعيل بن شبيب عن أبيه عن روح بن القاسم به. عند البيهقي في الدلائل[3].

٦ – وعن ابن وهب عن شبيب عن روح بن القاسم به. عند الطبراني في الصغير[4] والكبير[5].

ثانياً: إن هذا القول لا يقصد به النداء والاستغاثة، كما توهم المخالف، بل هو كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية "نداء يطلب به استحضار المنادى في القلب، فيخاطب الشهود بالقلب، كما يقول المصلي: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. والإنسان يفعل مثل هذا كثيراً، يخاطب من يتصور في نفسه، وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب"[6].

فقوله "يا محمد إني توجهت بك" مثل قول المصلي "السلام عليك أيها النبي"، ولم يقل أحد من العقلاء: إن المقصود أن يخاطبه المصلي بذلك ليسمع خطابه.

وهذا الأسلوب مما اشتهر على الألسنة، فيُخاطَبُ الميتُ أو الغائبُ وينادى بغير قصد إسماعه النداء والخطاب، بل المنادي متيقن أنه لا يسمعه.

ثالثاً: يؤيد ذلك أن الرجل أتى النبي ﷺ ليدعو له، فأمره أن يذهب

(١) عمل اليوم والليلة [ح ٦٦٠].
(٢) مستدرك الحاكم [١/٥٢٦].
(٣) دلائل النبوة [٦/١٦٧].
(٤) معجم الطبراني الصغير [١/٣٠٦].
(٥) معجم الطبراني الكبير [٩/٣٠].
(٦) اقتضاء الصراط المستقيم [٢/٧٨٤].

فيتوضأ ويدعو بهذا الدعاء، فهل يسوغ أن يأمره أن يستغيث به ويناديه من بعيد، وهو قد جاءه واستشفع به وخاطبه وكلمه من قريب ؟

فإما أن يقال إنه ﷺ لا يجيب من دعاه ولا من استغاث به من قريب، ويستجيب له من بعيد حيث لا يراه ولايخاطبه، وهذا لا يقول به من عنده أدنى مسكة من عقل.

أو يقال إنه ﷺ يستوي عنده القريب والبعيد، في السمع والإجابة، وهذا شأن الرب وحده، فهو شرك أكبر في الربوبية، وقد قاله المخالف، فيما نقله عن بعضهم:

يا من نناديه فيسمعنا على ... بعد المسافة سمع أقرب أقرب[1]

ومع ذلك نقول: إنه لا يسوغ من المُعِين المُغِيث، السميع المجيب، أن يقول لمن دعاه في حضرته: اذهب بعيداً وادعني أجبك وأغثك.

رابعاً: إن الأعمى لم يلجأ إلى رسول الله ﷺ ليغيثه ويرد إليه بصره، وإنما سأله أن يدعو الله له في ذلك، فأمره النبي ﷺ أن يدعو الله، ولم يأمره أن يدعوه هو، وعلمه أن يقول "اللهم إني أسألك" فالدعاء والسؤال إنما هو لله وحده، لا للنبي معه. وهذا الذي علمه ﷺ لهذا الرجل، من سؤال الله وحده واستغاثته وحده، هو الذي كان يأمر به أصحابه وأهله وأمر به أمته. فقال لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»[2].

وعلمهم الأدعية التي تقال في الكرب والشدة، ومنها« الله. الله ربي لا أشرك به شيئاً»[3] و«لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله رب العرش

(١) شفاء الفؤاد [ص ٢١٢].
(٢) رواه الترمذي [٢٥١٦].
(٣) رواه أبو داود [١٥٢٥] وله شاهد يقويه.

العظيم. لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض. لا إله إلا الله رب العرش الكريم» (١) و« اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت» (٢) و« ياحي يا قيوم برحمتك أستغيث» (٣).

فسن لهم عند الكرب والشدة والاضطرار أن يستغيثوا بالله وبرحمته، لا بملائكته ولا برسله ولا بأحد من خلقه، بل ألفاظها مشتملة على التوحيد ونفي الشريك، ففيها التوسل بالإخلاص لله في الاستغاثة والدعاء، والتوسل باسمه الأعظم، وقد قيل: هو الله ، وقيل: الله لا إله إلا هو، وقيل: الحي القيوم.

وسائر الأدعية والأذكار التي سنها رسول الله ﷺ على ذلك ليس في واحد منها ذكر غير الله أو الاستغاثة بأحد سواه.

خامساً: إنه لو ساغ أن يعلّم النبي ﷺ أحداً أن يستغيث به في حياته وحال حضوره ويسأله فيما هو بمقدوره، فإن ذلك لا يجوز في مغيبه ولا بعد وفاته، لأنه من الشرك المخرج عن ملة الإسلام، المطابق لفعل عبدة الأوثان والأصنام.

قال شيخ الإسلام "فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم، وخطاب تماثيلهم، هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى" (٤).

وقد تقدم بيان ذلك وتفصيله من قبل.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري [١١/١٢٣] ومسلم [٢٧٣٠].
(٢) رواه أبو داود [٥٠٩٠].
(٣) رواه الترمذي [٣٥٢٢].
(٤) التوسل والوسيلة [ص٢٥].

فصل:

تفسير قوله تعالى:
﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ... ﴾

يكثر المخالفون من إيراد هذه الآية الكريمة للاستدلال بها على عدة مسائل:

الأولى: استحباب زيارة القبر النبوي وشد الرحل إليه.

الثانية: إباحة التوسل بالنبي ﷺ والاستشفاع به بعد موته.

وليس في الآية أدنى إشارة إلى ما ذهبوا إليه واستدلوا به عليه وذلك من عدة أوجه:

الأول: أن هذه الآية الكريمة إنما سيقت في حق المنافقين المعرضين عن التحاكم إلى الرسول ﷺ، المستبدلين به حكم الطاغوت. يدل على ذلك سياق الآيات السابقة واللاحقة.

قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ إلى أن قال ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ ثم قال ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٠-٦٥].

فالآيات كما ترى، تخبر عن حال المنافقين المعرضين عن المجيء إلى الرسول ﷺ ليحكم بينهم، وهم يزعمون مع ذلك أنهم مؤمنون به وبما أنزل عليه.

ويؤيد ذلك ما جاء في سبب نزولها، فيما ذكره ابن جرير في تفسيره[١] عن الشعبي ومجاهد والربيع بن أنس أنها نزلت في المنافقين في تحاكمهم إلى الطاغوت وإبائهم التحاكم إلى الرسول ﷺ.

فإن قيل: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فالجواب: نعم، لكنها تعم المنافقين المعرضين عن التحاكم إلى الرسول ﷺ، فهي ليست خاصة بذلك المنافق الذي قيل إنها نزلت فيه.

وهذا في حياته، أما بعد موته ﷺ، فلم يقل أحد إنه يتحاكم إليه عند قبره، بل المجيء إليه والتحاكم إليه حينئذ يكون لسنته وشريعته.

ولفظ المجيء، والتحاكم، والإتيان، والرد، ونحوها، الواردة في القرآن، كما في قوله تعالى ﴿ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ ﴾ وقوله ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ وقوله ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ وقوله ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ وقوله ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وقوله ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ ونحوها، كلها خاص بحياته، لم يقل أحد أبداً إنه يشرع فعل ذلك بعد موته عند قبره.

ولو قدر أن أحداً قال إنه يتحاكم إليه بعد موته عند التنازع ويرد إليه الأمر ويطلب منه الفصل في الخصومات، وأنه يستأذن للخروج أو لغيره من الأمور، لكان هذا القول من أبطل الباطل، ولعد هذا من قائله جنوناً وسفهاً.

(١) تفسير الطبري [٨/٥٠٨-٥١٣].

وهذه إما أمور قد انقطعت بموته ﷺ، كالإتيان إليه ومبايعته والهجرة إليه والجهاد معه ولزومه للتعلم منه والحظوة برؤيته وسماع كلامه والتبرك بجسده الشريف، واستئذانه، وسؤاله والاستعانة به على شيء من الأمور الدنيوية ، ونحو ذلك، فهذه لا يشك عاقل أنها منقطعة بوفاته ﷺ.

وإما أمور تحال إلى سنته وشريعته، وهي باقية لم تمت بموته، ولم تتغير بعد وفاته، وهي تركته التي خلفها لأمته، وميراثه الذي ورثه إياهم، كما قال«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه» [١].

وقال«وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم ...» الحديث [٢].

فيقال: الرد إليه والتحاكم إليه بعد موته، يكون إلى سنته وهديه، كما قال الشافعي "ومن تنازع ممن بعد رسول الله رد الأمر إلى قضاء الله ، ثم قضاء رسوله" [٣] .

وكذا المجيء إليه يكون لسنته، كما قال شيخ الإسلام في معنى قوله تعالى ﴿ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ ﴾ "قوله ﴿ جَآءُوكَ ﴾ ، المجيء إليه في حضوره معلوم، أما بعد موته، فبالرجوع إلى سنته، مثل قوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾. ومثل قوله ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾. وكذلك المجيء إليه لمن ظلم نفسه هو الرجوع إلى ما أمره به، فيدخل في طاعته ويرجع عن

(١) رواه مالك بلاغاً [ص ٨٩٩] والحاكم [١/٩٣] قال ابن عبد البر في التمهيد [٢٤/٣٣١] محفوظ معروف مشهور.

(٢) رواه أبو داود [٣٦٤١] والترمذي [٢٦٨٢].

(٣) الرسالة [ص ٨١].

معصيته...". إلى أن قال "وأما الإتيان إلى قبر الرسول ﷺ [1]، فلم يفعله السلف، ولو حصل لكان مما تتوفر الدواعي لنقله" [2].

الثاني: أن الله تعالى لم يشترط على المنافقين إتيانهم إلى الرسول ﷺ للاستغفار عنده بمجرد أنهم أذنبوا، بل لأنهم أعرضوا عن التحاكم إليه ﷺ، وتحاكموا إلى غيره من الطواغيت. يؤيده قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٥]. وقد قيل إن سبب نزول هذه الآية، قول عبد الله بن أُبي رأس النفاق ﴿ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾، وقوله ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون : ٧، ٨]. فمجيئهم إلى الرسول ﷺ ليستغفر لهم دليل على إذعانهم لأمره وحكمه وتوبتهم من نفاقهم وإيذائهم له بسافل القول السالف في حقه ﷺ وصحبه من فقراء المهاجرين.

الثالث: أن القول بدخول كل العصاة في عموم الآية، بأن عليهم أن يأتوا الرسول ﷺ في حياته ليستغفروا الله عنده، ويستغفر لهم الرسول، قول باطل لا دليل عليه، والنصوص ترده، فإن الكفار، لو فرض أنه يلزمهم الإتيان إليه، فإنما ذلك لمبايعته أو الهجرة إليه في حياته، لا ليستغفروا الله من كفرهم وشركهم، إذ الاستغفار والتوبة إلى الله من ذلك لا يختص بزمان ولا بمكان، كما قال سبحانه وتعالى ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١]. وقال ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٣٨]. وقال

(١) أي للاستغفار والتوبة عنده.

(٢) انظر جامع الرسائل والمسائل [٢/٣٧٣].

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٢٨]. وقال ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣].

ويؤيد ذلك أن من أراد الدخول في الإسلام، لا يقال له إن توبتك من الكفر لا تقبل أو لا تكتمل إلا بالإتيان إلى القبر والاستغفار عنده. فإذا كان الأمر كذلك في الكفار، فعصاة المؤمنين أولى وأحرى أن لا يشترط عليهم ذلك.

الرابع: وقد أخبر الله تعالى عن توبته على العصاة من المؤمنين من غير شرط المجيء إلى النبي ﷺ والاستغفار عنده، كما في قوله تعالى ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨].

وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٥]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فإذا كان هذا في حياة النبي ﷺ، فبعد موته أولى أن لا يشترط المجيء إلى قبره للاستغفار والتوبة.

الخامس: أن النبي ﷺ لم يشرع لأصحابه وأهله إذا أذنبوا أن يأتوا إليه ليتوبوا أو يستغفروا عنده، ولو كان ذلك واجباً عليهم أو مستحباً، لأمرهم به وحثهم عليه، فقد كان أرحم بهم وأحرص على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

فإما أن يقال إنهم لم يكونوا يذنبون، وهذا لا يعقل، أو يقال إنهم كانوا يأتونه كلما أذنبوا ليستغفروا عنده، وهذا يحتاج إلى إثبات، ولا دليل عليه.

نعم كان يأتيه من أصاب منهم حداً، لا ليستغفر عنده، وإنما ليطهره بإقامة الحد عليه، كما في قصة ماعز والغامدية والذي أصاب من امرأة قبلة[1] وغيرهم.

وحتى هؤلاء كره إتيانهم إليه، وأعرض عنهم مراراً، كما صنع مع ماعز، وقال له«ارجع فاستغفر الله وتب إليه» وكرر ذلك عليه فلما أبى أقام عليه الحد[2].

وكذا قال للغامدية لما أتته ليطهرها من الزنا« ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه»، فلما أبت أقام عليها الحد[2].

وقد قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك« أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه» [3].

فإذا كان من أصاب حداً، لم يأمره أن يأتي إليه ليقيم عليه الحد، أو ليستغفر عنده، حتى لو فرض وقوعه من أهله، فغيره أولى أن لا يؤمر بذلك، بل حسبه أن يستغفر الله ويتوب إليه.

السادس: ولا يقال إن قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية كافٍ في الدلالة على المطلوب، لأننا نقول حينئذ: من الذي فهم منها هذا الفهم ؟ آلرسول ﷺ ؟ أم الصحابة ؟ أم التابعون ؟ أم غيرهم ممن لا يعتد بقوله ولا يوثق في نقله ؟

فالآية تتضمن حكماً شرعياً في أمر من أهم الأمور، وهو اشتراط المجيء إلى القبر لقبول التوبة والاستغفار، حسب زعم المخالفين، وهم لم يوردوا نصاً واحداً

(١) روى مسلم في صحيحه [٢٧٦٣] " أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة " وفي لفظ " إما قبلة أو مساً بيد أو شيئاً " قال " فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له " قال الراوي " كأنه يسأل عن كفارتها " الحديث.

(٢) صحيح مسلم [ح ١٦٩٥].

(٣) رواه البخاري [٤٦٩٠] ومسلم [٢٧٧٠].

في ذلك عن الرسول ﷺ ولا عن أصحابه ولا التابعين ولا الأئمة المشهورين وإنما نقلوا ذلك عن أعرابي[1] ، ومتى كان فعل الأعراب أو قولهم حجة في دين الله!

السابع: ثم لو فرضنا أن المجيء إليه ﷺ للاستغفار عنده واجب أو مستحب، لكان ذلك مختصاً بحياته منقطعاً بوفاته، إذ قد تقرر أن قصد القبر للدعاء أو الاستغفار يصيره مسجداً وعيداً، وقد نهي عن ذلك، كما تقدم تفصيله وبيانه.

وأصرح منه في النهي وأعظم، سؤاله الشفاعة والاستغفار بعد موته، إذ قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن ذلك ذريعة إلى الشرك، بل هو من الشرك، كما تقدم ذكر الأدلة عليه من قبل، وسيأتي مزيد بيان لذلك في مبحث الشفاعة.

الثامن: أن الآية الكريمة ليس فيها طلب الاستغفار من الرسول ﷺ، وإنما فيها استغفار الله عنده، وأما استغفاره ﷺ فإنه حاصل لهم من غير سؤال، فقوله تعالى ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ أي شفع لهم من غير سؤال منهم لذلك.

ولم يأمر الله أحداً من الخلق أن يسأل نبياً أو غيره شفاعة أو استغفاراً، لا أمر إيجاب ولا استحباب، ولو كان ذلك واجباً أو مستحباً لذكره الله في كتابه ولذكره رسوله ﷺ لأمته، وإنما أمرهم سبحانه بالإيمان برسله وطاعتهم واتباعهم، كما تواترت الآيات على ذلك. وقد أخبر سبحانه أن الإيمان بهم وطاعتهم موجبة لمغفرة ذنوبهم، كما في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح : ٣، ٤] وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨]. وقال ﴿ يَا أَيُّهَا

(١) ولم يصح الإسناد إليه.

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الصف : ١٠-١٢]. وقال ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١].

فعلق سبحانه مغفرته لهم وفلاحهم في الدارين بالإيمان بالرسل وطاعتهم واتباعهم. والرسل لم يأمروا أقوامهم بأن يأتوا إليهم ليستغفروا الله عندهم ويتوبوا إليه بحضرتهم، بل أمروهم بالتوبة والاستغفار مطلقاً، كما أخبر سبحانه عن نوح ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح : ١٠]. وقال عن هود ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٥٢]. وعن شعيب ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٩٠]. وقال عن صالح ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل : ٤٦].

وأمر سبحانه المؤمنين من هذه الأمة بالاستغفار والتوبة إليه، وحضهم عليها، فقال تعالى ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا ﴾ [هود : ٣]. وقال ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المزمل : ٢٠]. وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم : ٨].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال« يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة» (١).

(١) رواه مسلم [٢٧٠٢].

والمقصود أن الله تعالى لم يأمر الخلائق بأن يسألوا الرسل الدعاء والاستغفار ولا أن يشفعوا لهم عند الله ، بل أمرهم بالإيمان والطاعة، وهي الوسيلة العظمى لمرضاته، كما أنها وسيلة لنيل شفاعة المرسلين والملائكة المقربين.

فأخبر عن شفاعة نوح في المؤمنين ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [نوح : ٢٨].

وشفاعة إبراهيم ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٤١].

وشفاعة الملائكة ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ [غافر : ٧].

فهذه شفاعتهم في المؤمنين، من غير سؤال منهم ولا طلب.

بل أمر سبحانه عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يستغفر للمؤمنين، فقال ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [محمد : ١٩].

فهذه الشفاعة نائلة إن شاء الله كل من آمن به من أمته إلى قيام الساعة.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

فصـــــل:

ويقال أيضاً: إنه لو قدر أن سؤال النبي ﷺ الدعاء والاستغفار واجب أو مستحب، لمن ظلم نفسه، فإن هذا خاص بوقت حياته، أما بعد وفاته فإنه ممتنع شرعاً وقدراً.

أما من حيث الشرع، فإنه لا يجوز سؤال الميت الدعاء أو الاستغفار لا عند قبره ولا بعيداً عنه، فإن ذلك شرك، كما دلت الآيات على ذلك. قال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦]. وقال ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

ولفظ "الذين" دال على العموم، فهو يعم كل مدعو من دون الله ممن لا يقدر على إعانة ولا إغاثة، كالموتى والأحياء الغائبين.

ومعلوم أن هؤلاء المدعوِّين من دون الله كانوا إما ملائكة وإما رسلاً وإما صالحين، كما يدل عليه سبب النزول، وكما هو معروف من حال المشركين، فهم لم يلجأوا إلى هؤلاء إلا لكونهم مقربين ووجهاء، فاتخذوهم وسائط وشفعاء ليقربوهم إلى الله زلفى، وليشفعوا لهم عند الله، كما تقدم تفصيل ذلك في غير ما موضع.

وهنا يقال "العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب"، فالآيات المذكورة، ونحوها، تعم كل المدعوين من الموتى والغائبين، وتعم كل الداعين، سواء كانوا ممن ينتسب إلى اليهود أو النصارى أو الصابئين أو المشركين أو ممن ينتسب إلى المسلمين.

* وأما امتناعه قدراً، فإن الميت قد انقطع عمله، وارتفع عنه التكليف، وهذا عام في كل الأموات، حتى الرسل والأنبياء، كما تقدم تقريره.

ويدل عليه قول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ وقد أمر نبيه بالإكثار من الاستغفار في آخر حياته، فعلم ﷺ أن منيته قد قربت، فكان يكثر من الاستغفار.

فدل ذلك على أن استغفاره موقوت بحياته منقطع بموته، وهذا استغفاره لنفسه، فكذلك استغفاره لأمته من باب أولى.

ويدل عليه أيضاً ما ثبت في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: وارأساه. فقال رسول الله ﷺ «ذاكِ لو كان وأنا حي فأستغفر لكِ وأدعو لكِ» [1].

فأخبرها أنها لو ماتت قبله، لكان ذلك خيراً لها، فيستغفر لها ويدعو لها. ومفهومه أن ذلك ممتنع بوفاته.

ولا يرد على ذلك ما ثبت أن الأنبياء يصلون في قبورهم، فإن هذه الصلاة مما يتنعمون به ويلهمونه، كما يلهم أهل الجنة التسبيح[2].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري [٥٦٦٦].

(٢) تقدم بيان ذلك في مبحث حياة الأنبياء في قبورهم.

فصـــل:

حديث «حياتي خير لكم...»

ولا يرد على ذلك أيضاً ما روي أنه ﷺ تعرض عليه أعمال أمته فيستغفر لذنوبهم، لأن الحديث ضعيف. فقد رواه البزار في مسنده، قال حدثنا يوسف بن موسى ثنا عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله عن النبي ﷺ قال« إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام». قال: وقال رسول الله ﷺ «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم يعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم».

قال البزار عقبه "لا نعلمه يروى عن عبد الله إلا بهذا الإسناد" [1]. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد[2] "رجاله رجال الصحيح".

قلت: وإسناده ضعيف. فعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، وإن أخرج له مسلم، إلا أن فيه ضعفاً.

ترجمة ابن أبي رواد

قال في الميزان [3] "صدوق مرجىء كأبيه. وثقه الإمام يحيى بن معين وغيره. وقال أبو داود: ثقة داعية إلى الإرجاء. وقال ابن حبان: يستحق الترك، منكر الحديث جداً، يقلب الأخبار، ويروي المناكير عن المشاهير.

وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، يكتب حديثه. وقال الدارقطني: لا يحتج به،

(١) انظر كشف الاستار [٣٩٧/١].

(٢) مجمع الزوائد [٢٧/٩].

(٣) ميزان الإعتدال [٦٤٨/٢].

القاضي في "فضل الصلاة على النبي ﷺ "[١]، وأبو نعيم عند البغوي في شرح السنة[٢]، والفضيل بن عياض عند الطبراني في الكبير[٣] وأبو إسحق الفزاري عند الحاكم[٤]. ولم يذكروا الزيادة، وهي قوله "حياتي خير لكم..." الخ. فدل ذلك على نكارتها.

وقد قال الذهبي رحمه الله "وإن تفرد الثقة المتقن يعد صحيحاً غريباً. وإن تفرد الصدوق ومن دونه يعد منكراً". ويدل على نكارتها أيضاً، أن الأعمش تابع سفيان عن عبد الله بن السائب في هذا الحديث، ولم يذكر الزيادة.

ورواية الأعمش رواها الحاكم في المستدرك[٤] مقرونة برواية سفيان، ورواها الطبراني في الكبير[٥].

وذكر الدارقطني في العلل[٦] متابعة الحسين الخلقاني[٧] والعوام بن حوشب وشعبة وغيرهم لسفيان عن عبد الله بن السائب، في رواية هذا الحديث دون الزيادة المنكرة.

قلت: وقد وردت هذه الزيادة من طريق آخر مرسل، رواه إسماعيل القاضي في "فضل الصلاة على النبي ﷺ "[٨] قال: حدثنا سليمان بن حرب قال ثنا حماد بن زيد قال حدثنا غالب القطان عن بكر بن عبد الله المزني قال رسول الله ﷺ، فذكره. وهذا مرسل، فإن بكر المزني من ثقات التابعين، قال في التقريب[٩]: "ثقة ثبت جليل. من الثالثة".

ولا يقال إن هذا المرسل يقوى بالإسناد السابق، لأننا قدمنا الدليل على أنه

---

(١) فضل الصلاة على النبي [ص ٣٤].
(٢) شرح السنة [٣/١٩٧].
(٣) معجم الطبراني الكبير [١٠/٢٢٠].
(٤) مستدرك الحاكم [٢/٤٢١].
(٥) معجم الطبراني الكبير [١٠/٢١٩].
(٦) علل الدارقطني [٣/٢٠٦].
(٧) رواية الحسين الخلقاني عند الخطيب في تاريخه [٩/١٠٤].
(٨) فضل الصلاة على النبي [ص ٣٦].
(٩) تقريب التهذيب [٧٤٣].

غلط من راويه عبد المجيد، وأن روايته له منكرة، ومثل هذا لا يصلح للاستشهاد أو الاعتضاد. والله أعلم.

وقد دل مفهوم حديث عائشة المتقدم« ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك، وأدعو لك» (١) على انقطاع الاستغفار والدعاء بموته ﷺ لأقرب الناس إليه وأحبهم إليه، فيدخل في ذلك عموم أمته من باب أولى. وهذا يدل على ضعف الحديث المذكور.

ويدل على ضعف الحديث أيضاً، قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١٠٩].

وهذه الآية عمت جميع الرسل *عليهم السلام*، وفيهم نبينا محمد ﷺ، فنفى سبحانه علمهم بما فعلته أقوامهم. فلو كانت الأعمال تعرض عليه ﷺ لعلم ما تفعله أمته.

وأصرح من ذلك في حق نبينا ﷺ، ما أخبر به في الحديث الصحيح «وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصيحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾. قال: فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم» (٢) .

وعلى كل حال، فلو فرض أن الحديث ثابت، وأنه ﷺ يستغفر لأمته بعد موته، فليس فيه أدنى إشارة إلى إباحة سؤال ذلك منه، كما أن الملائكة تستغفر

(١) رواه البخاري [٥٦٦٦].

(٢) رواه البخاري [١١/٣٧٧] ومسلم [٢٨٦٠].

للمؤمنين، ولا يلزم من ذلك إباحة سؤالهم وطلب ذلك منهم، وقد صح أن الملائكة تشفع لمن يشهد الصلاة مع الجماعة ويمكث في مصلاه بعد الصلاة، كما في حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال« الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه، ما لم يحدث، اللهم اغفر له اللهم ارحمه ...» الحديث (١) . ولم يقل أحد إنه يباح أن يسألهم المصلي ذلك.

وصح أيضاً أن بعض الخلائق يشفعون في العلماء، كما في حديث أبي الدرداء ﵁ «وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء».

فهل يقول عاقل: إنه يشرع للعالم سؤال الحيتان وغيرها من المخلوقات الاستغفار؟! فبطل الاحتجاج بالآية (٢) والحديث(٣) على التوسل بالنبي ﷺ والاستشفاع به بعد موته، من كل وجه.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري [٢/١٤٢] ومسلم [٦٤٩].

(٢) أي قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ ... ﴾

(٣) حديث «حياتي خير لكم ...».

المبحث الخامس

الشفاعة

ومن شبهات المخالفين التي تعلقوا بها في القديم والحديث مسألة الشفاعة، حيث عمدوا إلى النصوص الواردة في إثبات الشفاعة للنبي ﷺ، وهي حق، فحرفوها عن معناها المراد وصرفوها إلى معاني باطلة مضاهاة للمشركين الذين اتخذوا من دون الله شفعاء ووسطاء يدعونهم ويرجونهم ويستغيثونهم.

فقد ذكر المخالف تحت عنوان "زيارة نبوية" ما نصه: "...وقد وفدت عليك زائراً وبك مستجيراً وجئتك مستغفراً من ذنبي سائلاً منك أن تشفع لي إلى ربي، وأنت شفيع المذنبين المقبول الوجيه عند رب العالمين، وها أنا معترف بخطئي مقر بذنبي متوسل بك إلى الله مستشفع بك إليه ... فاشفع لي يا رسول رب العالمين وشفيع المذنبين، فها أنا في حضرتك وجوارك ونزيل بابك ...

أنت الشفيع وآمالي معلقة ... وقد رجوتك يا ذا الفضل تشفع لي
هذا نزيلك أضحى لا ملاذ له ... إلا جنابك يا سؤلي ويا أملي
ضيف ضعيف غريب قد أناخ بكم ... ومستجير بكم يا سادة العرب
يا مكرمي الضيف يا عون الزمان ... ويا غوث الفقير ومرمى القصد والطلب
هذا مقام الذي ضاقت مذاهبه ... وأنتم في الرجا من أعظم السبب" (١)

وقال في موضع آخر "نحن وفدك يا رسول الله وزوارك جئناك لقضاء حقك والتبرك بزيارتك والاستشفاع بك مما أثقل ظهورنا وأظلم قلوبنا فليس لنا شافع

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٠٩].

غيرك نؤمله ولا رجا غير بابك نصله فاستغفر لنا واشفع لنا إلى ربك...» (١)

قلت: وهذا الذي ذكره المخالف وكرره في أكثر من موضع وأطال في تقريره هو عين ما كان عليه المشركون الأولون الذين اتخذوا من دون الله آلهة وسموهم شفعاء وأولياء يدعونهم ويتوسلون بهم ويستشفعون بهم ليقربوهم إلى الله زلفى.

وهذه هي الشفاعة الشركية التي نفاها القرآن وندد بها وبأصحابها وهي التي توارثها المشركون في كل زمان، وهي نقيض الشفاعة الأخرى التي أثبتها لأهل الإيمان كما سيأتي توضيحه في الفصول الآتية.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) شفاء الفؤاد [ص ١١٧].

﴿ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾

قد تقرر من قبل أن المشركين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ لم يكونوا يعتقدون في آلهتهم التي كانوا يعبدون، أنها تخلق وترزق وتحيي وتميت وتدبر الأمر، بل كانوا مقرين أن ذلك كله من اختصاص الخالق سبحانه، كما أخبر عنهم بقوله ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١].

وإنما اتخذوهم أولياء وشفعاء يتوسلون بهم إلى رب الأرض والسماء، قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[الزمر:٣].

وقال تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨].

فأنكر عليهم المولى جل وعلا اتخاذهم الشفعاء من دونه، يدعونهم ويرجونهم، وتلك كانت عبادتهم إياهم، وسماها الله شركاً فقال ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وقال سبحانه ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

قوله ﴿ مِنْ دُوْنِ اللهِ ﴾ أي: من دون إذنه وأمره، فأنكر عليهم سبحانه اتخاذهم الشفعاء على هذه الصفة، فالشفاعة لا تكون إلا بإذنه ورضاه، وهي الشفاعة المقبولة عنده.

وأكد ذلك بقوله ﴿ قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيْعاً ﴾ أي: هو مالكها كلها، فليس لمن تدعونهم منها شيء ولو كانوا وجهاء مقربين عنده، إذ لا يستقلون بالشفاعة، ولا يقدمون عليها إلا من بعد إذنه لهم فيها، ورضاه عن المشفوع فيهم.

ثم أكد ذلك أيضاً بقوله ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فأبطل ما كانوا عليه من اتخاذهم الشفعاء، بكونه مالك الملك كله، فاندرج في ذلك ملك الشفاعة، فإذا كان هو مالكها بطل اتخاذ الشفعاء من دونه كائناً من كان.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

﴿ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾

نفى الله عز وجل الشفاعة في مواضع من كتابه الكريم، كما في قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوْا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُوْنَ ﴾ [البقرة : ٤٨].

وكما في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَنْفِقُوْا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيْهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالكَافِرُوْنَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤].فنفى الشفاعة مطلقاً في ذلك اليوم العصيب، لكنه قيد النفي في مواضع أخرى فقال ﴿ اللهُ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ مَالَكُمْ مِنْ دُوْنِهِ مِن وَلِيٍ وَلاَ شَفِيْعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُوْنَ ﴾ [السجدة : ٤].

فنفى الشفاعة التي تكون من دونه، أي من دون إذنه وأمره.

فإن قيل: لعل هذا النفي مخصوص بالكافرين. فالجواب أن يقال: بل الآيات عمت الجميع، فإن الله تعالى لا يقبل شفاعة أحد من دونه كائناً من كان. وقوله ﴿ مَالَكُم مِّنْ دُوْنِهِ مِنْ وَلِيٍ وَلاَ شَفِيْعٍ ﴾ الخطاب فيه عام يشمل الكفار والمؤمنين كما هو ظاهر.

وأصرح من ذلك قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِيْنَ يَخَافُوْنَ أَنْ يُحْشَرُوْا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُوْنِهِ وَلِيٍ وَلاَ شَفِيْعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ ﴾ [الأنعام : ٥١].

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره "وأنذر، يا محمد، بالقرآن القوم الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم علماً منهم بأن ذلك كائن، فهم مصدقون بوعد الله ووعيده، عاملون بما يرضي الله ، دائبون في السعي فيما ينقذهم في معادهم من

عذاب الله " اهـ [1] باختصار.

فهذه الآية الكريمة خاصة بالمؤمنين، ويدخل فيها غيرهم من باب أولى، وقد نفت الشفاعة التي يعتقدها المشركون، وهي الشفاعة من دون إذن الله ومن دون أمره، وعلى ذلك تحمل الآيات التي نفت الشفاعة مطلقاً، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ وقوله ﴿ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ وقوله ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾. فالمعنى: لا تنفع الشفاعة غير المأذون فيها، ومفهومه أن الشفاعة المأذون فيها تنفعهم، وفي هذا إثبات للشفاعة الشرعية، وهي حيث يأذن الله ويرضى، كما جاء مصرحاً به في مواضع كثيرة من القرآن والسنة، كما سيتضح في الفصل التالي.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) تفسير الطبري [٣٧٣/١١].

﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾

وقد أثبت الله عز وجل الشفاعة في مواضع من كتابه الكريم مشروطة بإذنه فقال تعالى ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٣].

وقال ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥].

قال ابن جرير في تفسيره "يعني بذلك: من ذا الذي يشفع لمماليكه إن أراد عقوبتهم، إلا أن يخليه ويأذن له بالشفاعة لهم.

وإنما قال ذلك تعالى ذكره، لأن المشركين قالوا: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى. فقال الله تعالى ذكره لهم: لي ما في السموات وما في الأرض فلا تنبغي العبادة لغيري، فلا تعبدوا الأوثان التي تزعمون أنها تقربكم مني زلفى، فإنها لا تنفعكم عندي ولا تغني عنكم شيئاً، ولا يشفع عندي أحد لأحد إلا بتخليتي إياه والشفاعة لمن يشفع له، من رسلي وأوليائي وأهل طاعتي" اهـ[1].

فتضمنت هذه الآية نفي الشفاعة الشركية، وهي اتخاذ الشفعاء من دونه، وإثبات الشفاعة الشرعية، وهي المأذون فيها لمن شاء سبحانه من رسله وأوليائه.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) تفسير الطبري [٣٩٥/٥].

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾

وثمة شرط آخر لقبول الشفاعة عند الله سوى إذنه للشفيع، وهو رضاه سبحانه عن المشفوع له. قال تعالى ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَٰوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦].

فنفى الله عز وجل شفاعة ملائكته المقربين إلا من بعد إذنه لهم في الشفاعة ورضاه عن المشفوع له، فذكر الشرطين: الإذن والرضا.

قال ابن الجوزي "المعنى أنهم لا يشفعون إلا لمن رضي الله عنهم" اهـ[١].

وقال الشوكاني "﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ ﴾ لهم بالشفاعة. ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أن يشفعوا له. ﴿ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ بالشفاعة له لكونه من أهل التوحيد، وليس للمشركين في ذلك حظ ولا يأذن الله بالشفاعة لهم ولا يرضاها لكونهم ليسوا من المستحقين لها" اهـ[٢] .

وقال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه : ١٠٩].

قال القرطبي "أي لا تنفع الشفاعة أحداً إلا شفاعة من أذن له الرحمن ﴿ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ أي: رضي قوله في الشفاعة. وقيل: المعنى: أي إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يُشفع له وكان له قول يُرضى. قال ابن عباس: هو قول لا إله إلا الله " اهـ[٣].

---

(١) زاد المسير [٧٤/٨].
(٢) فتح القدير [١١٠/٥].
(٣) تفسير القرطبي [٢٤٧/١١].

وقال سبحانه ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦-٢٨].

قال القرطبي " ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ قال ابن عباس: هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد: هم كل من رضي الله عنه. والملائكة يشفعون غداً في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره، وفي الدنيا أيضاً، فإنهم يستغفرون للمؤمنين ولمن في الأرض كما نص عليه التنزيل على ما يأتي" اهـ[1].

قلت: وسيأتي ذكر الأحاديث الدالة على هذا المعنى قريباً إن شاء الله تعالى.

والمقصود أن الشفاعة المثبتة في القرآن وردت مقيدة بهذين الشرطين:

الأول: إذن المولى عز وجل للشفيع في أن يشفع.

الثاني: رضاه سبحانه عن المشفوع له.

وهو لا يرضى إلا عن المؤمنين، ولا يأذن في الشفاعة للكافرين، ولو كان الشفيع وجيهاً عنده مقرباً إليه، كالملائكة والنبيين صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(١) تفسير القرطبي [١١/٢٨١].

فصـــل:

أقسام الشفاعة

وبهذا يظهر الفرق بين الشفاعة التي نفاها القرآن، وهي الشفاعة الشركية، وهي اتخاذ الشفعاء من دون الله ورجاؤهم لجلب النفع ودفع الضر، والشفاعة التي أثبتها القرآن، وهي الشفاعة الشرعية، ولا تكون إلا بإذن الله ورضاه.

ومنشأ الضلال في الخلق هو الجهل بحقيقة التوحيد وما يضاده، وهو الشرك، والخلط بينهما، وعدم التفريق بين ما أمر الله به وما نهى عنه، وما أذن فيه وما منع منه، وسوء الظن برب العالمين والتسوية بينه وبين خلقه.

وسر المسألة أن الله تعالى بيده الأمر كله وهو الذي يملك النفع والضر، لا يملكهما أحد سواه، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهو سبحانه أرحم بعباده من أنفسهم ومن سائر الخلق، ومن رحمته إذنه بشفاعة الشافعين، ولو شاء أن يمنعهم لمنعهم.

بل هو سبحانه الذي تفضل على هؤلاء الشفعاء واصطفاهم وجعلهم مقربين إليه ولولاه سبحانه لما كانوا شيئاً، كما قال لخيرهم وأكرمهم وأفضلهم ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ [الضحى : ٧] وقال ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [الشورى : ٥٢] وقال ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء : ١١٣]. وقال عن الخليل إبراهيم *عليه السلام* ﴿ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : ١٢١] وقال ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] وهو الذي أودع في قلوب الشفعاء الرحمة بالخلق، كما قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

وهو سبحانه الذي ألهم الشفعاء أن يشفعوا، كما أخبر عن أقرب الملائكة إليه وهم حملة العرش أنهم يشفعون في المؤمنين ويستغفرون لهم، فقال ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ [غافر : ٧-٩] الآية.

بل أمر عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يستغفر للمؤمنين فقال ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] وقال ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩] وقال ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣].

ثم هو سبحانه الذي يأذن في الشفاعة يوم القيامة لمن يشاء من عباده، كما وردت بذلك الأحاديث.

منها حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال«إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربك...» ثم ساق حديث الشفاعة وفيه قال «فيأتوني فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع. فأقول يا رب أمتي أمتي، فيقال انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع. فأقول: يا رب أمتي أمتي فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل

يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجه من النار. فأنطلق فأفعل. ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله . فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله» متفق عليه[1].

قلت: فأخبر النبي ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة حتى يلهمه الله عز وجل محامد يحمده بها ثم يخر له ساجداً ثم يأذن الله له بالشفاعة فيقول: سل تعطه واشفع تشفع، ويعين له من يشفع فيه، فيبدأ بالأفضل والأكمل ممن في قلبه مثقال شعيرة من الإيمان ثم من في قلبه مثقال خردلة وهكذا ...

فرجع الأمر إلى الله وحده، فهو المتفضل على الخلق كلهم، على الشافعين والمشفوعين.

وفي لفظ من حديث أنس قال«فأستأذن على ربي فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله ...» إلى أن قال«فيحد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجداً...» الحديث.

فقوله «فيدعني ما شاء الله» وقوله «فيحد لي حداً» ظاهر في أن الأمر كله راجع إلى الله وإلى مشيئته وأمره.

* ومنها حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال« أنا سيد الناس يوم القيامة...» ثم ذكر حديث الشفاعة، وفيه قال« فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي. ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب أمتي يا رب. فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من

(١) اللؤلؤ والمرجان [١/٤٨، ٤٩].

لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب» متفق عليه[١].

فقوله«أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن...» الخ، صريح في أن أمر الشفاعة إلى الله وحده، فهو الذي يعيّن لرسوله ﷺ المأذون لهم في الشفاعة، ويعين له الباب الذي يدخلون منه الجنة.

ومن رحمته سبحانه بعباده المؤمنين إذنه لأكثر من شفيع في الشفاعة يوم القيامة، فيأذن للملائكة والنبيين والصالحين.

* ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال« هل تضارون في رؤية الشمس والقمر...» فساق الحديث، وفيه قال« فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون. فيقول الجبار بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امتحشوا، فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له ماء الحياة فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبة في حميل السيل... فيخرجون كأنهم اللؤلؤ فيجعل في رقابهم الخواتيم فيدخلون الجنة فيقول أهل الجنة هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه فيقال لهم لكم ما رأيتم ومثله معه» [٢] .

قلت: فهؤلاء عتقاء الرحمن ممن لم يشفع فيهم أحد غيره سبحانه، والآخرون أذن للشفعاء من الملائكة والنبيين والمؤمنين أن يشفعوا فيهم، رحمة منه عز وجل بعباده وفضلاً، وتكريماً للشافعين وتشريفاً لهم، فللَّهِ الأمر من قبل ومن بعد، وله وحده المنة على سائر الخلق.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) اللؤلؤ والمرجان [١/٩].
(٢) اللؤلؤ والمرجان [١/٤٦].

فصـــل:

ومن رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين إذنه بالشفاعة بينهم في الدنيا وندبهم إليها وإثابتهم على فعلها.

* فمن ذلك دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب، كما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال« دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين. ولك بمثل» [١].

* ومن ذلك الصلاة على الميت والدعاء له في الصلاة وعقب الدفن. فقد صح عن النبي ﷺ أنه صلى على جنازة ودعا فقال« اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله...» الحديث[٢].

وصح أنه ﷺ أمر أصحابه بالاستغفار للميت بعد دفنه فقال «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل» [٣].

ورغب في دعاء الولد لوالده، فقال« إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» [٤].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) رواه مسلم [ح ٢٧٣٣].
(٢) رواه مسلم [ح ٩٦٣].
(٣) رواه ابو داود [ح ٣٢٢١].
(٤) رواه مسلم [ح ١٦٣١].

﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾

وسبب ضلال هؤلاء المخالفين وأسلافهم من المشركين في الشفاعة هو سوء الظن برب العالمين، ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده ولما أشركوا به أحداً غيره، ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره، وكيف يقدره حق قدره من اتخذ من دونه نداً أو شفيعاً يدعوه، ويخافه ويرجوه ويذل له ويخضع له ويسويه برب العالمين كما أخبر تعالى عن أهل النار قولهم ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٩٧، ٩٨].

ومعلوم أنهم ما ساووهم به سبحانه في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن الآلهة والشفعاء خلقوا السموات والأرض، أو أنهم يحيون ويميتون وينصرون ويرزقون، وإنما ساووهم بهم في المحبة والتعظيم والعبادة وهذا ما عليه المشركون في كل زمان حتى المنتسبون منهم إلى الإسلام من هذه الأمة.

وإنما كان ذلك هضماً لحق الربوبية وتنقصاً لعظمة الإلهية وسوء ظن برب العالمين، لأن المتخذ الشفعاء والأنداد، إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو معين، وهذا أعظم التنقص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشفيع، وإما أن يظن أنه لا يعلم حتى يعلمه الشفيع، أو لا يرحم حتى يجعله الشفيع يرحم، أو لا يكفي وحده أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده كما يشفع عند المخلوق، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الشفيع أن يرفع حاجتهم إليه، كما هو حال ملوك الدنيا.

أو يظن أنه لا يسمع حتى يرفع الشفيع إليه ذلك، أو يظن أن للشفيع عليه

حقاً، فهو يقسم عليه بحقه ويتوسل إليه بذلك الشفيع كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ولا تمكنهم مخالفته.

وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها، وهذا أصل شرك الخلق الذي أخبر الله عنه ونزه نفسه عنه فقال ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨].

وتدبر قوله سبحانه وتعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۞ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ : ٢٢،٢٣].

فقد قطع الله جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون، وأوهى حجتهم وأبطلها من أصلها.

فالمشرك إنما يتخذ معبوده من دون الله لما يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن يكون فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولاظهيراً كان شفيعاً عنده. فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع وإن لم يأذن له لم يتقدم في الشفاعة بين يديه، بخلاف شفاعة المخلوقين فإن الشافع يشفع من قبل أن يؤذن له، والمشفوع عنده يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع ومعونته ونصرته، فإن ملكه وجاهه وسلطانه لا يتم

ولايستقيم إلا بجنده وأعوانه، وليس كذلك ملك الملوك ورب الأرباب، فهو الغني بذاته عن كل ما سواه، وغيره فقير إليه بذاته فقراً لازماً، فكيف يشفع عنده أحد من دون إذنه ؟

وقوله سبحانه ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ إنما هو أمر تعجيز، أمرهم بدعاء آلهتهم وشفعائهم، والمراد بهم هنا الملائكة، ويدخل غيرهم من باب أولى، فأوضح سبحانه أنهم لا يملكون شيئاً، فلا يدعون لشفاعة ولا غيرها. ثم أخبر أنهم هم الذين اتخذوهم بزعمهم شفعاء، فنسبه إلى زعمهم وإفكهم الذي ابتدعوه من غير برهان ولاحجة ولا سلطان.

فإذا كان اتخاذ الملائكة شفعاء من دون الله شركاً، فكيف باتخاذ الأموات كما يفعله عباد القبور ؟



﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾

وقد أوضح الحق سبحانه في غير ما آية من كتابه العزيز تفرده بتصريف أمور الخلق وتدبير شئونهم، خلقاً ورزقاً وهداية وإحياءً وإماتة وبعثاً ونشوراً، وأنه لم يكلهم إلى أحد غيره، لا إلى الملائكة ولا إلى الرسل ولا إلى غيرهم من عباده.

* فمن ذلك قوله تعالى ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام : ٦٦] وقوله ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : ٥٤] وقوله ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٣] وقوله ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال ابن جرير الطبري "يقول تعالى ذكره: فبلغهم ما أوحيته إليك فإنك إنما أنت نذير تنذرهم عقابي وليس عليك إلا البلاغ والإنذار ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يقول: و الله القيم بكل شيء وبيده تدبيره فانفذ لما أمرتك به..." اهـ[1] باختصار.

* وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [الشورى :٦]. وقال ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٧].

قال ابن جرير "يقول جل ثناؤه: وإنما بعثتك إليهم رسولاً مبلغاً ولم نبعثك حافظاً عليهم ما هم عاملوه، تحصي ذلك عليهم، فإن ذلك إلينا دونك.

(١) تفسير الطبري [١٥/٢٥٨].

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ يقول: ولست عليهم بقيّم تقوم بأرزاقهم وأقواتهم ولا بحفظهم، فيما لم يجعل إليك حفظه من أمرهم" اهـ[1] .

* وقال تعالى ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : ٩].

وقال تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١].

وقال تعالى ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤]. والآيات في النهي عن اتخاذ الأولياء من دون الله كثيرة.

قال ابن جرير "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثان والأصنام والمنكرين عليك إخلاص التوحيد لربك الداعين إلى عبادة الآلهة والأوثان: أشيئاً غير الله تعالى ذكره أتخذ ولياً أستنصره وأستعينه على النوائب والحوادث" اهـ[2] .

والمقصود أن الله تعالى لم يكل أمور الخلق إلى غيره، فهو سبحانه القيم على أرزاقهم وأقواتهم، وهو الحفيظ على أعمالهم والمدبر لأمورهم لا يشركه أحد من خلقه في شيء من ذلك.

* وأصرح من ذلك قول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٨].فهي في غاية الوضوح

(١) تفسير الطبري [١٢/٣٣] .
(٢) تفسير الطبري [١١/٢٨٢] .

والبيان للمطلوب، وسبب نزولها يبين لك أن الله عز وجل بيده مقاليد كل شيء، وأن مفاتيح أقفال القلوب لا يملكها إلا هو، وأنه لا أرحم بعباده منه سبحانه.

قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية "وتأويل قوله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾، ليس إليك يا محمد من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري، وتنتهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إليَّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم وأحكم بالذي أشاء، من التوبة على من كفر بي وعصاني وخالف أمري، أو العذاب إما في عاجل الدنيا بالقتل والنقم المبيرة، وإما في آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بي " اهـ[1].

ثم ذكر ابن جرير سببين لنزول هذه الآية الكريمة:

* الأول: لما أصيب النبي ﷺ يوم أحد، فأسند الحديث عن أنس رضي الله عنه قال «قال النبي ﷺ يوم أحد، وكسرت رباعيته وشُجَّ فجعل يمسح عن وجهه الدم ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم. فأنزلت ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الآية» [2] .

وفي لفظ من حديث الربيع بن أنس مرسلاً قال«فهمَّ أن يدعو عليهم فأنزل الله عز وجل ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾. فكفَّ رسول الله ﷺ عن الدعاء عليهم».

وفي لفظ من حديث الحسن البصري مرسلاً قال«فقال رسول الله ﷺ كلمة، علم الله أنها قد خالطت غضباً: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم...» الحديث.

(١) تفسير الطبري [١٩٤/٧] .
(٢) رواه مسلم [ح١٧٩١] والبخاري تعليقاً [٣٦٥/٧].

* الثاني: كان النبي ﷺ قد دعا على قوم من أهل الكفر في صلاته، فأنزل الله عز وجل هذه الآية. وأسند ابن جرير الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة نفر، فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الآية. قال: وهداهم الله للإسلام»[1].

وقد ورد في بعض الروايات ذكر أسماء من دعا عليهم وهم: أبوسفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية[2].

قلت: فهؤلاء لم يطمع رسول الله ﷺ في إسلامهم، بل دعا عليهم في صلاته، ولعنهم، فأنزل الله عز وجل عليه ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ فكف النبي ﷺ عن الدعاء عليهم، وتاب الله عليهم كلهم وهداهم إلى الإسلام، مع ما كانوا عليه من قبل من الكفر وشدة الأذى لرسول الله ﷺ وللمسلمين. وقد هدى الله تعالى للإسلام قوماً ممن أمعنوا في الكفر والأذى للإسلام وأهله حتى أيس المسلمون من إسلامهم وأهدر رسول الله ﷺ دماءهم يوم الفتح، فجاءوا مسلمين[3].

وفي مقابلة هؤلاء قوم حرص رسول الله ﷺ على هدايتهم والشفاعة لهم كعمه أبي طالب وأمه آمنة وبعض المنافقين فمنع من ذلك كما سيأتي تفصيله، مما يبين أن الأمر كله لله وأن الشفاعة ملك له وحده وليس لأحد من خلقه من الأمر شيء.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أحمد في المسند [ح ٥٨١٣] والترمذي [٥/٢٢٨]. وقال حسن غريب صحيح يستغرب من هذا الوجه.

(٢) رواه الترمذي [٥/٢٢٧] وقال: هذا حديث حسن غريب، يستغرب من حديث عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه. وعلقه البخاري [٧/٣٦٥] وذكر سهيل بن عمرو بدلاً من أبي سفيان.

(٣) ذكر الحافظ في الفتح [٨/١١] ممن أهدر دمهم يوم الفتح وأسلموا: ابن أبي السرح وعكرمة بن أبي جهل وهبار بن الأسود وكعب بن زهير ووحشي بن حرب وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان.

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

فقد تبين إذاً أن أمر الشفاعة لله وحده، إذناً ومنعاً، وأنه هو الذي يشفّع من يشاء فيمن يشاء وقتما يشاء، لا كما يظن الجاهلون المتخذون من دون الله شفعاء وشركاء وأولياء يدعونهم ويرجونهم ويتوسلون بهم إلى الله ، كما قال المخالف، يخاطب الرسول ﷺ، "قد وفدت عليك زائراً وبك مستجيراً وجئتك مستغفراً من ذنبي سائلاً منك أن تشفع لي إلى ربي، وأنت شفيع المذنبين... فاشفع لي فها أنا في حضرتك وجوارك ونزيل بابك".

فهذا هو عين الشرك الذي وقع فيه أسلافه عبدة الملائكة والصالحين، كما تقدم بيانه وتقريره.

وقد أكد المخالف ذلك وكرره في مواضع كثيرة من كتابيه، تقدم نقل جملة منها في الكتاب الأول "جلاء البصائر"، بما لا حاجة بنا إلى إعادته هنا.

و الله عز وجل ما أنكر شفاعة هؤلاء المعبودين، ولا وجاهتهم عنده، بل أثبت لهم الشفاعة بإذنه فيمن يشاء، فقال ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ وقال ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾.

وأخبر بوجاهتهم عنده وكرامتهم عليه فقال عن الملائكة ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ وقال عن المسيح عليه السلام ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ لكنه سبحانه أنكر عبادة المشركين إياهم واتخاذهم أولياء وشفعاء من دونه.

ولاشك أن رسول الله ﷺ أعظم الخلق جاهاً وأفضلهم وأكرمهم عند الله ، لكن هذا لا يبيح دعاءه وعبادته واتخاذه من دون الله شفيعاً وولياً. وكونه ﷺ

شفيعاً للخلق يوم القيامة، وصاحب الشفاعة العظمى فهذا تشريف له وإظهار لعلو قدره ورفعته على سائر الأنبياء والمرسلين، وهذا هو المقام المحمود الذي وعده ربه به، فقال ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩].

وقد فسر المقام المحمود بالشفاعة العامة، كما جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث(١). وهذا لا يعني استقلاله بالشفاعة من دون الله ، بل لله الشفاعة جميعاً، لا يشفع أحد إلا بإذنه وأمره، حتى رسول الله ﷺ.

فإن قيل: أوليس قد أعطي ﷺ الشفاعة ؟ فنحن نسأله مما أعطاه الله .

فالجواب: بلى قد أعطي الشفاعة، كما ورد في حديث جابر عن النبي ﷺ قال«أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي...» الحديث، وفيه قال« وأعطيت الشفاعة» (٢).

قال ابن دقيق العيد "الأقرب أن اللام فيها للعهد، والمراد الشفاعة العظمى في إراحة الناس من هول الموقف" (٣) .

لكنها مشروطة بإذن الله تعالى ورضاه، كما تقدم ذكره في حديث الشفاعة الطويل حيث جاء فيه قوله ﷺ «فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن...» وقوله« فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله...» وقوله «فيحد لي حداً».

كل ذلك يدل على أن الشفاعة أمرها إلى الله وحده لا إلى الرسول ﷺ ولا إلى غيره من الخلق، فهو سبحانه الذي يأذن له بعد أن يدعه ما يشاء أن يدعه، ثم يحد له حداً يعينه له، وهم من في قلبه مثقال شعيرة من إيمان فقط، ثم يأذن له ثانية ويحد له من في قلبه مثقال خردلة من إيمان، ثم من في قلبه أدنى من ذلك.

(١) انظر الفتح [١١/٤٢٦-٤٢٧] وجامع الأصول [١٠/٤٨٠، ٤٨٨].
(٢) رواه البخاري [١/٤٣٦] ومسلم [ح٥٢١].
(٣) انظر فتح الباري [١/٤٣٨].

وتأمل قوله ﷺ في آخر الحديث «ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله. فيقول: ليس ذلك لك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله» (١) .

قال النووي "معناه لأتفضلن عليهم بإخراجهم من غير شفاعة" (٢) .

ويؤكد ذلك أن الله منع عبده ورسوله محمداً ﷺ من الشفاعة في أقرب الناس إليه.

* ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال«استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت» (٣).

* ولما مات عمه أبو طالب، وكان يحوطه وينصره، وكان له بمنزلة الوالد بعد جده عبد المطلب أراد ﷺ أن يستغفر له فقال«لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك»، فأنزل الله عليه ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴾ (٤) [التوبة : ١١٣].

* وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على هداية أبي طالب، وظل يدعوه إلى الإسلام حتى آخر ساعة من حياته فأبى ومات على الكفر، فنزل قول الله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (٤).

فمرد الأمور إلى الله وهداية القلوب إليه، لا إلى أحد سواه.

ولا يرد على ذلك شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب عن أبي طالب، كما في الصحيحين من حديث العباس بن عبد المطلب ؓ أنه سأل النبي ﷺ فقال: ما

(١) جامع الأصول [١٠/٤٧٩].
(٢) شرح مسلم [٣/٦٥].
(٣) صحيح مسلم [ح٩٧٦].
(٤) رواه البخاري [٨/٥٠٦] ومسلم [ح ٢٤].

أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال«هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» [١] .

وفي لفظ من حديث أبي سعيد الخدري«لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه» [٢].

فهذا لا يعارض ما تقدم، بل يؤيده ويوافقه، فإن الذي قبل الشفاعة هنا فخفف عنه العذاب هو سبحانه الذي ردها هناك فمنع الاستغفار له، بل حال بينه وبين الإسلام، مع علمه سبحانه بما كان يصنعه أبو طالب من تأييد ونصرة للرسول ﷺ طيلة حياته، ولم تجرؤ قريش على النيل منه ﷺ حتى مات أبو طالب[٣]، وعلمه كذلك بتمني الرسول ﷺ وحرصه الشديد على هداية عمه للإسلام وإنقاذه من عذاب النار، فرجع أمر الشفاعة إليه وحده سبحانه، إذناً ومنعاً.

* ومنع الله عز وجل نبيه ﷺ من الشفاعة في المنافقين فقال ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ﴾. [التوبة : ٨٠]، وقال تعالى ﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المنافقون : ٦] .

ولما صلى النبي ﷺ على رأس المنافقين عبد الله بن سلول نزل النهي الصريح عن الشفاعة فيهم فقال ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ ﴾ [التوبة : ٨٤].

قال الحافظ في الفتح "المقصود الأعظم من الصلاة على الميت طلب المغفرة للميت والشفاعة له" اهـ[٤].

(١) اللؤلؤ والمرجان [١/ ٥٣].
(٢) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [١/ ٥٣].
(٣) انظر الفتح [٧/ ١٩٤].
(٤) فتح الباري [٨/ ٣٣٥].

* وردَّ الله دعوة دعاها النبي ﷺ لأمته، كما صح عنه أنه قال« سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»[١] .

* وقد صح من حديث جمع من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال «أنا فرطكم على الحوض وليرفعن رجال منكم ثم ليختلجن دوني، فأقول: يارب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك». وفي لفظ«فأقول يارب مني ومن أمتي» [٢] .

* وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، قال«لاألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. وعلى رقبته بعير له رغاء يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك وعلى رقبته صامت فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. أو على رقبته رقاع تخفق فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك» [٣].

قال الحافظ في الفتح (قوله "لا أملك لك شيئاً"، أي: من المغفرة، لأن الشفاعة أمرها إلى الله) اهـ[٤].

* وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قال«يامعشر قريش "أو كلمة نحوها" اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا بني عبد مناف لا أغني

(١) رواه مسلم [ح ٢٨٩٠] من حديث سعد بن أبي وقاص.
(٢) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [٣/ ٩٥-٩٩].
(٣) البخاري [٦/ ١٨٥] ومسلم [٣/ ١٤٦١].
(٤) فتح الباري [٦/ ١٨٦].

عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً» (١).

قال النووي "معناه: لا تتكلوا على قرابتي فإني لا أقدر على دفع مكروه يريده الله تعالى بكم" اهـ(٢) .

* وقد رد الله شفاعة إبراهيم الخليل عليه السلام في أبيه، لما قال ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ [الشعراء : ٨٦ ، ٨٧]

وصح في الخبر أن إبراهيم يلقى أباه يوم القيامة فيقول له إبراهيم «ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يارب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم: ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» (٣).

قال الحافظ في الفتح "قيل الحكمة في مسخه لتنفر نفس إبراهيم منه ولئلا يبقى في النار على صورته فيكون فيه غضاضة على إبراهيم" اهـ(٤).

* ورد الله عز وجل شفاعة عبده ورسوله نوح عليه السلام في ابنه لما أدركه الغرق وقال ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۝ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٥-٤٧].

(١) اللؤلؤ والمرجان [١/٥٢].
(٢) شرح مسلم [٣/٨٠].
(٣) رواه البخاري [٦/٣٨٧].
(٤) فتح الباري [٨/٥٠٠].

قال ابن جرير في تفسيره في معنى قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾. "إن سؤالك إياي ما تسألنيه في ابنك المخالف دينك الموالي أهل الشرك بي، من النجاة من الهلاك، عمل غير صالح، لأنه مسألة منك إلي أن لا أفعل ما قد تقدم مني القول بأني أفعله" اهـ(١) ملخصاً.

ففي هذه النصوص أكبر دليل على أن الشفاعة ملك لله وحده يأذن فيها لمن يشاء ويمنع من يشاء، وأنه لا يملك أحد لأحد نفعاً ولا ضراً، لا شفاعة ولاهداية ولا غيرها، إلا بإذن الله، ولو كان الشفعاء مقربين ووجهاء، ولو كان المشفوع فيهم أقرباء.

فقول النبي ﷺ «أعطيت الشفاعة» ليس معناه استقلاله بها بحيث يشفع لمن يشاء، أو أن شفاعته مقبولة دائماً، بل هي شفاعة أعطيها يوم القيامة لا تحصل قبل ذلك، ولا تكون إلا بعد إذن الله له بالشفاعة وتعيينه لمن يشفع فيهم كما دلت على ذلك النصوص الأخرى، وكذلك الشأن في سائر الشفاعات الأخرى التي ثبتت له ﷺ ولغيره من الشفعاء.

وقد يظن ظان أو يتوهم متوهم أن في ذلك تنقصاً من قدر النبي ﷺ وتقليلاً من شأنه، أن يقال إنه ﷺ لا يشفع إلا من بعد إذن الله وأمره، ولم تزل تلك سُبَّة الغلاة المخالفين يقذفون بها أهل الحق وشُنْعَةً يُشَنِّعون بها عليهم في كل زمان، إذا ما نصحوا لله ولرسوله ﷺ، وجردوا التوحيد وأعطوا كل ذي حق حقه، وقالوا بموجب ما قررته نصوص الوحي المنزل من رب العالمين، وآمنوا بالكتاب كله ولم يكفروا ببعضه ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه.

وهذا هو التعظيم الحق للرسول ﷺ، لا تعظيم أولئك المعاندين له المحرفين لكلامه المخالفين عن أمره المجتهدين في رد حكمه وقضائه.

(١) تفسير الطبري [١٥/٣٥١].

فالذي قال«أعطيت الشفاعة» هو الذي قال«فأستأذن على ربي فيؤذن لي فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله»، وقال«فيحد لي حداً»، وقال «يارب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله ، قال: ليس ذلك لك».

وهو الذي قال «استأذنت ربي في أن أستغفر لها – يعني أمه – فلم يؤذن لي»وهو الذي قال لابنته فاطمة رضي الله عنها «لا أغني عنك من الله شيئاً».

وهو الذي بلغ عن ربه قوله ﴿ مَا مِنْ شَفِيْعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ وقوله ﴿ قُلْ لِلّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيْعَاً ﴾ في آيات كثيرة محكمة ﴿ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيْمٍ خَبِيْرٍ ﴾.

فتبين إذاً أن قول النبي ﷺ «أعطيت الشفاعة» ليس معناه استقلاله بها وتصرفه فيها كما يشاء، بل هي شفاعة مقيدة بزمن مخصوص، وهو يوم القيامة، وبإذن الله ومشيئته.

وكل حديث أطلق فيه لفظ الشفاعة فيحمل على هذا المعنى الحق الذي دلت عليه النصوص المحكمة المقيدة.

وهاهنا شبهة قد يوردها بعض المخالفين، وهي أن يقال: إن رسول الله ﷺ قد أذن له في الشفاعة لأمته، وصح عنه أنه قال«إني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة» وأنه يشفع في أهل الكبائر وفي قوم استوجبوا النار فيشفعه الله فيهم بإذنه، وصح بل تواتر أن الخلائق كلهم يسألونه الشفاعة يوم القيامة، بعد أن ينتقلوا من نبي إلى نبي، وكلهم يقول: لست لها، حتى يصلوا إليه ﷺ فيقول: أنا لها، وكل ذلك مما قدره الله وأذن فيه، ولو كان سؤال الأنبياء الشفاعة شركاً فقد أشرك كل الخلائق إذاً، ثم إن الأنبياء عليهم السلام لم ينكروا عليهم سؤالهم الشفاعة بل اكتفوا بالاعتذار عنها عدا رسول الله ﷺ.

وصح أيضاً، بل تواتر، أن الصحابة كانوا يستشفعون به في حياته ويسألونه

الاستغفار والدعاء، ولم ينكر عليهم ﷺ بل كان يجيبهم، فدل ذلك على جواز، بل استحباب سؤاله الشفاعة والدعاء في كل الأحوال حتى بعد موته.

فالجواب: إن هذا الذي ذكر من سؤال الناس الشفاعة من النبي ﷺ ومن غيره في حياته ويوم القيامة حق وصدق، لا ينكره أحد، ولاينازع في جوازه أحد وليس هذا موضع الخلاف، إذ الشفاعة من جنس الدعاء، والدعاء يطلب من الحي القادر، كما يستعان به فيما هو مقدور عليه مأذون له فيه. وقد كان الصحابة وغيرهم يأتون رسول الله ﷺ في حياته فيسألونه أن يدعو الله لهم ويستسقي لهم ويستنصر لهم، كما كانوا يستعينونه في قضاء بعض حوائجهم ويستشفعون به في بعض أمورهم، فيعينهم في ذلك بما يقدر عليه، وقد يعتذر منهم في بعض الأحيان، كما اعتذر للذين استحملوه فقال ﴿ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾، واستحمله رهط من الأشعريين فقال«و الله لا أحملكم وما عندي ما أحملكم عليه» (١).

فهذا ونحوه لا خلاف في وقوعه وجوازه، وليس هذا مختصاً بالرسول ﷺ، بل هو عام في جميع الخلق، فيجوز أن يسأل الأدنى الأعلى، والأعلى الأدنى، كما تقدم بيانه وتفصيله في مبحث التوسل.

أما سؤال الأموات والأحياء الغائبين الشفاعة وغيرها فهذا هو المحذور وهو من جنس عمل المشركين، الذين كانوا يستشفعون بالملائكة والأنبياء والصالحين، وهم ما بين ميت وحي غائب، ودعاؤهم واستغاثتهم والاستشفاع بهم وهم في مثل هذا الحال هو عين الشرك بالله ، كما دلت على ذلك الآيات المحكمة.

---

(١) رواه مسلم [ح ١٦٤٩] من حديث أبي موسى الأشعري، وفيه أنه أتي بعد ذلك بإبل فأمر لهم بعدد منها.

منها قوله تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ : ٢٢، ٢٣].

وهذه الآية نزلت في الذين يدعون الملائكة ويستشفعون بهم، كما تقدم، ويدل عليه قوله ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا... ﴾ الآية.

وقد صح من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال«إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير» الحديث[1].

فإذا لم يجز دعاء الملائكة والاستشفاع بهم، فدعاء غيرهم من الأموات والأحياء الغائبين من باب أولى.

وكثير ممن يدعو الأموات من الأنبياء والأولياء ويستغيثون بهم ويسألونهم الشفاعة والاستغفار لا يدركون الفرق بين دعائهم في حياتهم وحضورهم، ودعائهم بعد موتهم، ويجعلون هذا كهذا، والفرق بينهما أبعد مما بين السماء والأرض، فالأول جائز والثاني محرم من أكبر الكبائر.

وما ضل المشركون إلا بجهلهم لهذا الفرق، ولما بُيّن هم على ألسنة الرسل عاند من عاند منهم وكَذَّب الرسل، فازدادوا كفراً على كفر.

وما مثل هؤلاء الجاهلين أو المعاندين إلا كمن سوّى بين النكاح المشروع والزنا المحرم، وبين البيع والربا، والخمر واللبن، والميتة والمذكاة، ... وهكذا.

(١) رواه البخاري [٨/٥٣٧].

ولا تكاد تجد في المنتسبين إلى الإسلام من يجهل الفرق بين هذه الأمور، لكن أكثرهم يجهل الفرق بين دعاء الحي ودعاء الميت ويجهل الفرق بين التوحيد والشرك، مع أن الآيات في بيانه وتوضيحه لا تحصى كثرة وتنوعاً في الأسلوب، فمنها القصص ومنها الأمثال ومنها الأخبار ومنها الأحكام.

ومن تدبر آيات القرآن حق التدبر وعقل معانيها لم يخف عليه الفرق بين التوحيد الذي أمر الله به وفرضه فرض عين على الخلائق، وأنزل من أجله الكتب وأرسل به الرسل، وأخبر أنه لا يقبل من عامل عملاً ولا قربة إلا به، وبين ما يضاده وينقضه وهو الشرك الذي حرمه ولعن فاعله وأوجب عليه الخلود في النار ما لم يتب منه.

وقد تقدم بيان ذلك وتوضيحه في أكثر من موضع من مباحث هذا الكتاب والكتاب السابق "جلاء البصائر".

والمقصود أن قياس دعاء الحي الحاضر على دعاء الغائب أو الميت وسؤاله من أفسد القياس.

يوضحه أن يقال لهؤلاء المخالفين: هل تفرقون بين سؤال رجل فقير لآخر غني يراه ويسمع قوله ويقدر على إعانته، أن يعينه بشيء من المال، وسؤاله له واستعانته إياه في مغيبه أو بعد موته حيث لا يراه ولا يسمعه ؟ فإن قالوا: هما سواء، فقد كفونا مؤنة الجدال معهم، إذ لم يقل أحد ممن له مسكة عقل بمثل هذا القول.

وإن قالوا بالفرق، حصل المطلوب.

فإن نازعوا في الجواب بأن قالوا: هذه المسألة ليست كمسألتنا، فإن هذا الميت عاجز عن نفع غيره بشيء، وليس كذلك الرسول ﷺ فإنه حي يسمع ويعلم ويقدر على أن يشفع إلى الله فيمن دعاه وسأله، والأدلة على ذلك متضافرة.

فالجواب أن يقال لهؤلاء: أتقولون بعدم الفرق بين حال الرسول ﷺ في حياته، وحاله بعد مماته، في سائر الوجوه، أم في بعضها ؟

ولاشك أنكم تقرون بفساد الأول وظهور بطلانه حساً وعقلاً، ففي حال حياته كان يأكل ويشرب وينكح ويمشي على الأرض ويكلم الناس ويدعوهم إلى الهدى ويعلمهم السنة ويقرئهم القرآن، ويؤمهم في الصلاة ويقضي بينهم ويجاهد في سبيل الله ويبعث السرايا وينزل عليه الوحي من السماء، وكل ذلك منتفٍ عنه في حال موته بلا نزاع.

فبقي النظر في الأمور الأخرى محل النزاع، فيقال: أثبتوا أولاً أنه ﷺ يسمع ويعلم ويشفع ويستغفر لمن سأله ودعاه بعد موته كما كان يفعل في حياته، ونحن ننفي ذلك كله.

* أما كونه ﷺ لا يسمع دعاءهم، فيدل عليه قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۞ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣، ١٤].

فهذه الآية عامة في كل من دعي من دون الله ، كما يدل عليه اللفظ[1]، فنفى عنهم سماع الدعاء، ثم تنزل معهم في الخطاب ليقطع عليهم الطريق ويقيم عليهم الحجة فقال ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾، ولا يوجد بيان أبلغ من هذا، لأن أولئك الداعين غير الله قد يشبه عليهم بمسألة السماع فيصدقون شياطينهم في زعمهم أن الأموات يسمعون الدعاء، لكنهم عاجزون عن إثبات الاستجابة، وصدق الله إذ قال ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾.

وقد وردت آيات كثيرة تدل على هذا المعنى، تقدم ذكرها من قبل.

(١) وهو الاسم الموصول "الذين"، فهو من صيغ العموم. انظر شرح الكوكب المنير [١٢٣/٣].

* وأما العلم فقد نفاه الله تعالى أيضاً في أكثر من موضع في كتابه، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وهذه الآية أيضاً عامة في كل من دعي من دون الله من الأموات والأحياء الغائبين، وقد نفى الله عنهم علمهم بدعاء الداعين واستغاثتهم، فقال ﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾، وإنما يعلمون بذلك يوم القيامة بإعلام الله لهم تبكيتاً لمن دعاهم، فيتبرءون منهم ومن عبادتهم.

وأخص من ذلك ما ذكره الله تعالى في شأن عيسى عليه السلام، وسؤاله إياه يوم القيامة ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ وتبرؤ عيسى من ذلك واعتذاره بعدم علمه وشهوده بما أحدثه قومه من بعده، فقال ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ إلى قوله ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : ١١٦، ١١٧].

وأصرح من ذلك في حق النبي ﷺ ما رواه البخاري ومسلم[1] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يارب أُصيحابي فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾» .

فإذا انتفى السمع والعلم عن النبي ﷺ بعد موته، انتفى ما عداهما كالشفاعة والاستغفار.

(١) البخاري [٣٧٧/١١]. ومسلم [٢٨٦٠].

فإن قيل: قد ورد أنه ﷺ تعرض عليه أعمال أمته بعد موته فيستغفر لمسيئهم.

فالجواب: قد تقدم بيان ضعف الحديث الوارد في ذلك، في مبحث التوسل، وعلى فرض ثبوته فليس فيه طلب الشفاعة والاستغفار منه ﷺ بل هو صريح في غير ذلك، إذ قال« تُعرض عليَّ أعمالكم» ولم يقل: اعرضوا عليَّ مطالبكم وحاجاتكم !

واستغفاره لأمته حاصل بدون سؤال منهم، لأنه لا يسمع ذلك ولايعلمه، وإنما تعرض عليه السيئات فيستغفر الله لهم.

فبطل الاستدلال بهذا الحديث على جواز طلب الشفاعة منه ﷺ بعد موته.

ثم يقال: قد ورد ما هو أصح من هذا الحديث وأثبت، وهو استغفار خاصة الملائكة للمؤمنين وشفاعتهم لهم عند ربهم، كما قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٧-٩].

فأخبر سبحانه أن الملائكة يستغفرون ويشفعون، وهم أحياء قادرون ويسمعون ويعلمون، ومع ذلك فسؤالهم الشفاعة والاستغفار كفر صريح وشرك فصيح، كما نصت على ذلك الآيات البينات. فسؤال غيرهم من الأموات أولى بالمنع والتحريم كما لا يخفى، حتى لو قيل إنهم يسمعون ويعلمون ويشفعون.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

فصل:

ثم نقول لهؤلاء المخالفين إن كانوا حريصين حقاً على أن تنالهم شفاعة الرسول ﷺ، فإن أقوم طريق إلى ذلك وآكده وأيسره هو الإخلاص لله في العبادة، وتوحيده في الدعاء والمسألة، فإن هذا كفيل بأن يحصل لهم مطلوبهم من الشفاعة وغيرها.

وقد دلت الآيات والأحاديث على ذلك، فمنها قوله تعالى ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [غافر : ١٤] ، وقوله ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ، وقوله ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل: ٦٢] وقوله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة :١٨٦].

فوعد الله المخلصين في الدعاء بالإجابة، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد.

وقال تعالى في شأن الشفاعة ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] وقال ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : ٢٦]. وقال ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه : ١٠٩].

وهو سبحانه لايرضى إلا الإخلاص والتوحيد، ولايأذن للشفعاء أن يشفعوا إلا في أهل التوحيد، كما قال تعالى ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] وقال رسول الله ﷺ «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً. فيرضى لكم أن تعبدوه

ولا تشركوا به شيئاً...» الحديث[1].

وقد تواترت الأحاديث على أن الشفاعة خاصة للموحدين المخلصين في دعائهم وعبادتهم.

* فمنها قوله ﷺ «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، أو نفسه» [2].

قال الحافظ في الفتح "قوله: "من قال لا إله إلا الله" احتراز من المشرك. وقوله: "خالصاً" احتراز من المنافق" اهـ[3].

وقال ابن القيم "قوله: "أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله"، سر من أسرار التوحيد، وهو أن الشفاعة إنما تنال بتجريد التوحيد، فمن كان أكمل توحيداً كان أحرى بالشفاعة، لا أنها تنال بالشرك بالشفيع، كما عليه أكثر المشركين، وبالله التوفيق" اهـ[4].

* ومنها قوله ﷺ «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً» [5].

* ومنها قوله ﷺ «أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، فهي نائلة من مات لا يشرك بالله شيئاً» [6].

* ومنها حديث الشفاعة الطويل، وفيه قال النبي ﷺ «ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله. قال: ليس ذلك لك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن

(1) رواه مسلم [ح ١٧١٥].
(2) رواه البخاري [١/١٩٣].
(3) فتح الباري [١/١٩٤].
(4) تهذيب السنن [٧/١٣٤].
(5) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان [١/٥١].
(6) رواه الترمذي [ح ٢٤٤٣].

منها من قال: لا إله إلا الله» الحديث[1].

وسائر الأحاديث الواردة في الشفاعة هي خاصة في الموحدين، ولو كانوا من العصاة المقترفين للكبائر، عدا الشرك، فإنه لا حظ فيها لأهل الإشراك، كما نصت على ذلك النصوص المحكمة من الكتاب والسنة.

ولو علم هؤلاء الذين يسألون الرسول ﷺ الشفاعة والاستغفار من ذنوبهم التي عملوها أنهم ربما حرموا أنفسهم من الشفاعة بفعلهم هذا واستعجالهم إياها قبل أوانها، وحرموا أنفسهم من استغفار الرسول ﷺ، إن كان يستغفر، واستغفار الملائكة لهم، لأنهم شابهوا المشركين الذين حرم الله عليهم الشفاعة والمغفرة والجنة، فقال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨].

وقال ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة : ١١٣].

وقال ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢].

ويصدق في هؤلاء المثل المشهور "من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه" إذ الشفاعة نائلة بإذن الله يوم القيامة عامة المؤمنين، حتى من في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان، والسابقون منهم حظهم أوفر، فلهم شفاعة أخرى وهي أن يدخلهم الله الجنة من غير حساب ولا عذاب، من غير سؤال منهم ولا طلب، وإنما السؤال وارد للشفاعة العظمى فقط، ومحدود بزمن مؤقت، وهو مما قضاه الله وقدره فلابد من وقوعه في ذلك اليوم لا قبله، ولم

(1) متفق عليه. انظر جامع الأصول [١٠/٤٧٧].

يرد نص واحد في الكتاب أو السنة يرغب في سؤال الشفاعة من أحد، وإنما المنصوص عليه على نوعين:

الأول: إخبار عن الشفعاء أنهم يشفعون بإذن الله، كشفاعة الملائكة والرسل والمؤمنين في الدنيا والآخرة. وهذا حق يجب على المكلف التصديق به وسؤال الله تعالى أن يدخله في زمرة المشفوع فيهم.

الثاني: التوسل إلى الله بأعمال تنال بها الشفاعة، ومن ذلك:

* قول النبي ﷺ «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» [(١)].

* ومنها الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال«لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة» [(٢)].

* ومنها إخلاص التوكل على الله، كما في حديث ابن عباس مرفوعاً في ذكر السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة من غير حساب ولا عذاب، وفيه قال «هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون» [(٣)].

* ومنها بل أعظمها على الإطلاق، إخلاص العبادة لله، كما تقدم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال« أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، أو نفسه» [(٤)].

(١) رواه مسلم [٣٨٤].
(٢) رواه مسلم [ح ١٣٧٧].
(٣) رواه البخاري [١٠/١٧٩] ومسلم [ح ٢٢٠].
(٤) رواه البخاري [١/١٩٣].

فالنوع الأول وهو الأخبار الواردة في شأن الشفاعة يجب اعتقاد صدقها بالقلب كما يجب في سائر ما أخبر الله عز وجل به ورسوله ﷺ.

والثاني يكون تصديقه بالعمل والتوسل إلى الله به لينجز له وعده فيحظى بالشفاعة.

ومما يؤيد ما ذكرناه، أن هؤلاء المخالفين لم يأتوا بنص واحد، لا من كتاب الله تعالى ولا من سنة رسوله ﷺ يبيح أو يرغب في سؤال الشفاعة من الرسول ﷺ أو من غيره بعد مماته، وكل الذي أوردوه وشغبوا به لا يتعدى هذين الأمرين: إما خبر عن الشفاعة، أو عمل يتوسل به إليها، ولو ظفروا بنص واحد، ولو ضعيف، يدل على مطلوبهم لبادروا إلى إيراده، وإنما اكتفوا بالقياس الفاسد، كما هو شأنهم وديدنهم، حين تعييهم الحيلة ويعوزهم الدليل.

قال المخالف في فصل "الزيارة والشفاعة" :

"واستغاثة الناس يوم القيامة بالنبي ﷺ ، لما كانت هي أعظم الاستغاثات لشدة كربهم وطول موقفهم وقتئذ ولظهور فضله ﷺ على سائر الخلائق، ولدلالة ذلك على جواز الاستغاثة به ونفعها بعد مماته لوقوعها في حياته الدنيوية والأخروية، لهذا كله ناسب ذكر أحاديث الشفاعة هنا" [(١)] .

ثم سرد أحاديث الشفاعة، وليس فيها أي دلالة على صحة قياسه، بل هي على نقيض مراده أدل منها على مطلوبه، حتى الأحاديث الواهية التي أوردها في فضل الزيارة، كحديث«من زار قبري وجبت له شفاعتي»، فهذا على ضعفه ليس فيه أنه يسأله الشفاعة عند قبره، بل فيه تحقيق حصول الشفاعة لمن زار قبره، فلم تبق مع المخالف حجة إلا القياس، وقد بينا أنه ظاهر الفساد لاختلاف الحالين، حال ما قبل الموت، وما بعده.

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٦٩].

ومما يبين فساد هذا القياس أيضاً معارضته للنصوص الدالة على تحريم سؤال الأموات والأحياء الغائبين، وهي عامة في الشفاعة وغيرها، وقد تقرر أنه لا قياس مع وجود النص.

ومما يدل على فساده كذلك، إجماع السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم من أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم، على خلاف ذلك، فلم ينقل عن أحد منهم أنه أتى قبر النبي ﷺ واستغاث به وسأله الشفاعة أو غيرها، ولو كان في ذلك خير لسبقونا إليه، ولو فعلوه لنقل ذلك عنهم الثقات العدول.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الشفاعة عند الفلاسفة

ومما يقضي منه العجب، من هؤلاء المخالفين، شغفهم بكل مذهب معوج وتعلقهم بكل بدعة مخالفة، فجمعوا الشر كله، فلا تكاد تسمع عن فرقة من تلك الفرق الضالة إلا ولهم من ضلالهم نصيب.

فأخذوا من اليهود، أمة الغضب، تحريفهم للكتب، وافتراءهم على الله الكذب، ومن النصارى، أمة الضلال، غلوهم في الأنبياء والأحبار والرهبان، ومن المجوس وأشباههم، عقيدة وحدة الوجود، ومن عرب الجاهلية شركهم وعبادتهم للصالحين، واتخاذهم للكهان والعرافين، الذين يدَّعون علم الغيب[1].

وأما الفرق المنتسبة للإسلام، كالقدرية والمرجئة والجبرية والشيعة الرافضة والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم، فلهم فيهم وفي بدعتهم أوفر الحظ والنصيب.

وقد بينا أنهم انتحلوا مذهب المشركين في الشفاعة، بل زادوا عليهم في اعتقادهم في الشفعاء، كما تقدم تفصيله في كتاب "جلاء البصائر" ، وفي مباحث هذا الكتاب، فأفردوهم بالعبادة والدعاء والرجاء، ولم يكتفوا بأن جعلوهم لله شركاء ووسطاء.

خذ مثلاً على ذلك قول المخالف:

أنت الشفيع وآمالي معلقة ... وقد رجوتك ياذا الفضل تشفع لي

هذا نزيلك أضحى لا ملاذ له ... إلا جنابك يا سؤلي ويا أملي

---

(١) ينتحل أكثر هؤلاء المخالفين المذهب الصوفي بطرقه المختلفة، وهذا المذهب قد جمع شتات ما في الأمم الضالة عبر القرون، ولا يتسع المقام إلى شرح ذلك وتفصيله، وانظر إن شئت كتاب " الكشف عن حقيقة الصوفية " لمحمود القاسم، وكتاب " هذه هي الصوفية " لعبد الرحمن الوكيل.

يا مكرمي الضيف يـاعون الزمـان ويا | غوث الفقير ومرمى القصد والطلب [١]

وقوله:

وإن رمتنا الخطايا وسط مهلكـة | فـأنت ملجـأ خلـق الله كلهـم
حسبي شفاعتك العظمى إذا صفرت | يداي أو أسـفرت عـن زلـة قدمـي
فالعفو شيمتك العظمـى التي شهـرت | إذ كانت الموبقـات الدهـم من شيمي [٢]

قلت: فمثل هذا لا يقال للشفيع والواسطة والوسيلة، بـل يقـال لمن يقـول للشيء كن فيكون.

هذا وقد انتحل المخالفون مذهباً آخر في الشـفاعة، وهـو مذهـب الفلاسـفة الدهريـة. يقـول المخـالف "تختلـف أحوال الزائريـن في اسـتفادتهم مـن زيـارتهم واسـتمدادهم مـن الله بواسـطة نبيهـم المصطفـى وحبيبهـم المجتبـى ﷺ، وبحسـب استعدادهم في تلقـي الفيوضـات الإلهيـة والـواردات الربانيـة بواسـطة الحضـرة المحمدية" [٣].

وقال في موضع آخر "اللهم صل وسلم على سيدنا محمد أول متلق لفيضك الأول ... صلاة نشهدك بها من مرآته ونصل بها إلى حضرتك من حضـرة ذاتـه قائمين لك وله بالأدب الوافر مغمورين منك ومنه بالمدد الباطن والظاهر" [٤].

فهذا الذي ذكره المخالف من أن الزائر للقبر يستمد من المقبـور مما يفيض على روحه من الفيوضات الإلهية، وما يحصل له من المـدد بواسـطة ذلـك الفيض، يشبه قول ملاحدة الفلاسفة في ذلك.

ومن فصل القول في ذلك من أئمة المخالفين، أبوحامد الغـزالي، الـذي قـال

(١) شفاء الفؤاد [ص ١٠٩].
(٢) شفاء الفؤاد [ص ١١٤].
(٣) شفاء الفؤاد [ص ١٢٤].
(٤) شفاء الفؤاد [ص ١١٧].

عنه تلميذه ابن العربي "شـيخنا أبـو حـامد بلـع الفلاسـفة وأراد أن يتقيـأهم فمـا استطاع" [١].

فقال في كتاب " المضنـون " : "وأمـا شـفاعة الأنبياء والأولياء، فالشـفاعة عبارة عن نور يشرق من الحضرة الإلهية على جوهر النبوة، وينتشر منهـا إلى كـل جوهر استحكمت مناسبته مـع جوهـر النبـوة لشـدة المحبة وكـثرة المواظبـة على السنن وكثرة الذكر بالصلاة عليه ﷺ ومثاله نور الشمس إذا وقع على الماء فإنـه ينعكس منه إلى موضع مخصـوص مـن الحـائط لا إلى جميـع المواضع، وإنمـا اختص ذلك الموضع لمناسبة بينه وبين الماء في الموضع...".

إلى أن قال "ومن استولى عليه التوحيد فقد تـأكدت مناسبته مـع الحضـرة الإلهية، فأشرق عليه النور من غير واسطة، ومن اسـتولت عليـه السـنن والاقتـداء بالرسول ومحبة أتباعه لم تستحكم مناسبته إلا مع الواسطة ... إلى مثل هذا ترجع حقيقة الشفاعة في الدنيا" اهـ[٢] باختصار.

وقد ذكر شيخ الإسلام مذهب الفلاسـفة في الشـفاعة وفنـده، فقـال "وقـد أحدث قوم من ملاحدة الفلاسـفة الدهريـة للشـرك شـيئاً آخـر ذكـروه في زيـارة القبور، كما ذكر ذلك ابن سينا ومن أخـذ عنـه كصـاحب الكتب المضنـون بهـا وغيرها [٣]، ذكروا معنى الشفاعة على أصلهم.

فيقولون: إن الإنسان إذا أحب رجلاً صالحاً قـد مـات لاسيما إن زار قـبره فإنه يحصل لروحه اتصال بـروح ذلـك الميـت، فمـا [٤] يفيـض علـى تلـك الـروح المفارقة من العقـل الفعـال عندهـم أو النفـس الفلكيـة، يفيـض علـى هـذه الـروح

(١) سير أعلام النبلاء [٣٢٧/١٩].
(٢) المضنون به على غير أهله [١٥١/٢].
(٣) كذا في النسخة المطبوعة، ولها وجه، والأولى أن تكون: وغيره. كما هي في مجموع الفتاوى [١٦٧/١].
(٤) في المطبوعة: فيما.

الزائرة المستشفعة من غير أن يعلم الله بشيء من ذلـك، بـل وقد لا تعلم الـروح المستشفع بها بذلك.

ومثلوا ذلك بالشمس، إذا قابلها مرآة فإنه يفيض على المرآة من شعاع الشمس، ثم إذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة، وإن قابل تلك المرآة حائط أو ماء فاض عليه من شعاع تلك المرآة، فهكذا الشفاعة عندهم، وعلى هذا الوجه ينتفع الزائر عندهم.

وفي هذا القول من أنواع الكفر ما لا يخفى على من تدبره" اهـ[1] باختصار.

قلت: ومن هنا تعلم سر شغف المخالفين بالقبر وزيارته، فهو عندهم وسيلة إلى تلقي الفيض الرباني بواسطة المقبور. وهذه هي الشفاعة في اعتقادهم، شابهوا فيها ملاحدة الفلاسفة، من هذا الوجه، كما شابهوا مشركي الجاهلية في اتخاذهم الشفعاء والوسطاء من دون الله، من وجه آخر، فجمعوا بين كفرين عظيمين.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) التوسل والوسيلة [ص: ٣٦، ٣٧]. تحقيق ربيع المدخلي.

الخاتمة

فها هي ذي حجج المخالفين وشبهاتهم التي تعلقوا بها وشبهوا بها على الناس، قد تهاوت أمام أدلة الحق، وظهر زيفها وفسادها، وأنها لا تعدو كونها سراباً بقيعة، ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾.

وقد تبين أن أدلتهم التي ساقوها لنصرة مذهبهم، إما صريح غير صحيح أو صحيح غير صريح، وبعضها لا صحيح ولا صريح.

* فالأدلة التي أوردوها في وجوب محبة النبي ﷺ، ليس فيها أي دلالة على جواز إطرائه والغلو فيه، وكذا الآيات التي توجب تعظيمه ﷺ، لا تعني الغلو فيه، بل الأدلة كلها متفقة على النهي عن ذلك. والمؤمنون متفقون جميعاً على أن محبته ﷺ من فروض الإيمان، وكذا تعظيمه ومعرفة قدره اللائق به، لا خلاف بينهم في ذلك وهم أحق بذلك من الأدعياء المخالفين الذين أظهروا محبته وتعظيمه، وادعوا الغلو فيه، وغرضهم في ذلك تعظيم الناس لهم وتقديسهم لأشخاصهم وتحصيل الرياسة والجاه وعرض الدنيا.

* وما ذكروه من أدلة على إثبات حياة الأنبياء في قبورهم، ليس فيها الحياة التي زعموها وشبهوا بها، ليبيحوا التوسل بهم واستغاثتهم من دون الله، وسؤالهم الشفاعة وغيرها، بل غاية ما تدل عليه، أنها حياة برزخية لا يعرف كنهها ولا حقيقتها أهل الدنيا، وهي لم تنف عنهم صفة الموت واستمراره إلى قيام الساعة. والأدلة الشرعية والعقلية متفقة على ذلك، غير مختلفة.

* وأما زيارة القبور فهي على أقسام: فالزيارة الشرعية، هي التي تكون

للسلام على الأموات والدعاء لهم وتذكر الآخرة، كما دلت على ذلك الأحاديث والآثار، ويدخل في ذلك زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام.

وزيارة القبر النبوي كذلك، إن قيل إن حكمه حكم سائر القبور، كما ذهب إليه بعض أئمة السلف، وأكثر علماء الخلف، والخلاف فيها لا يعدو أن يكون خلافاً فرعياً كسائر مسائل الفقه الفرعية، لا توجب تبديعاً ولا تفسيقاً.

وأما الزيارة البدعية، فهي التي يقصد بها الدعاء عند القبور واتخاذها مساجد وأعياداً وشد الرحال إليها، ونحو ذلك مما يفعله بعض العامة عند القبور، وعند القبر النبوي أيضاً، فهذا كله منهي عنه وهو ذريعة إلى الشرك.

وأشد من ذلك وأعظم، قصد القبور لدعاء الأموات واستغاثتهم وسؤالهم الشفاعة والاستغفار وغير ذلك من المسائل، فهذا شرك صريح، كما دلت على ذلك النصوص وتواترت عليه، ولا فرق في ذلك بين قبر النبي ﷺ وقبر غيره.

* وأما التوسل فهو أقسام أيضاً، فالتوسل الشرعي، هو الإيمان بالله ورسوله ﷺ وطاعته واتباعه، والتقرب إلى الله تعالى بسائر القرب والطاعات، وهو الوسيلة العظمى الموصلة إلى المطلوب.

ويدخل في ذلك أيضاً، الدعاء بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وبالإيمان والعمل الصالح.

والتوسل بدعاء الأنبياء والصالحين في حياتهم وحال حضورهم، بمعنى طلب ذلك منهم، وسؤالهم أن يدعوا الله تعالى، جائز بالاتفاق.

وأما التوسل بهم، في مغيبهم أو بعد موتهم بمعنى سؤال الله بهم، أو الإقسام بهم في الدعاء، فهذا من البدع المحدثة، وهذا هو الذي أورد عليه المخالفون أدلة وشبهاً، كحديث الأعمى، وغيره.

وأما التوسل بهم بمعنى اتخاذهم وسائط يدعونهم ويرجونهم ويستغيثون بهم من دون الله ، فهذا عين الشرك الذي كان عليه المشركون الذين بعث فيهم النبي ﷺ، وهذا لم يوردوا فيه نصاً واحداً، لا من قرآن ولا من سنة ولا من فعل أحد من السلف.

* والشفاعة على قسمين، فالشفاعة التي أثبتتها نصوص القرآن والسنة، هي حق وصدق، كشفاعة الملائكة والأنبياء والصالحين في الدنيا ويوم القيامة، وهذه لا تكون إلا بإذن الله تعالى وأمره للشفيع، ورضاه عن المشفوع له.

وأما ما سوى ذلك، كاتخاذ الشفعاء من دون الله ، فهذه هي الشفاعة المنفية، وهي دين المشركين الأولين، ومن ذلك سؤال الأنبياء وغيرهم من الأموات أو الأحياء الغائبين، الشفاعة والاستغفار.

والعجب من إصرار المخالفين على تلك البدع والمخالفات وإيراد مثل تلك الشبهات، رغم ظهور عوارها، وشهودهم سقوطها ومصارعها بالأدلة القاطعة، والبراهين الدامغة.

والقوم لم يؤتوا من جهل أو قلة فهم، بل فيهم من حظي بقدر وافر من فنون العلم، كالحديث والفقه والأصول واللغة وغيرها، ثم تراه عند تقرير المسائل يضرب بكل تلك الأصول عرض الحائط، ويخبط خبط عشواء، ويأتي بالعجائب التي لا تخطر على بال عاقل، ولاتنفق حتى على الصبيان، فضلاً عن غيرهم.

والحامل لهم على ارتكاب كل ذلك، هو الهوى، وقد قال الله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣]. ومما يؤكد أن هؤلاء المخالفين، على علم بفساد أقوالهم ومذهبهم، تواطؤهم على ذكر نفس الأخطاء،

وإيراد نفس الشبهات، وعلى كتمان الحق وتحريفهم لدلالات النصوص، وتقولهم على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ غير الحق، وعلى الصحابة الكرام وأئمة الإسلام أيضاً، فينسبون إليهم من الأقوال والأعمال، ما هم منه براء. وهذا لا يتأتى من جاهل بمعاني الألفاظ ودلالات النصوص، إذ الجاهل وإن كثرت أخطاؤه، فهو لا يحسن تبريرها وتنميقها وتحريف ما يضادها من أدلة وبراهين.

ولا يحسن الجاهل أيضاً البحث والتنقيب في كتب التفسير والحديث والتاريخ وغيرها ليستخرج من بواطنها الأقوال الشاذة والأحاديث الغريبة المنكرة والأخبار المختلقة المصنوعة.

خذ مثلاً على ذلك، تواطؤهم على الاستدلال بآية ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ على استحباب زيارة القبر النبوي وشد الرحل إليه، والتوسل به، وطلب الشفاعة والاستغفار منه بعد موته ﷺ.

والآية ليس فيها دلالة على شيء من ذلك، لا من قريب ولا من بعيد، وهم لم ينقلوا عن الصحابة والسلف نصاً واحداً صحيحاً يوافق ما فسروا به الآية، واكتفوا بفعل الأعرابي ومنام العتبي.

فهل يخفى على السبكي، وهو الفقيه الأصولي، فساد مثل هذا الاحتجاج ؟ وهل يخفى على مثله أصول التفسير ومراتبه، ودلالة لفظ "جاءوك" وأنه مختص بالمجيء إليه في حياته ﷺ، لا إلى قبره بعد موته ؟ وهل يخفى على الهيتمي، وهو الفقيه المشهور، حين استدل بقوله تعالى ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، أن الآية لا تعني الهجرة إلى القبر وشد الرحل إليه، وأن الهجرة المذكورة في الآية قد انقطعت في حياته ﷺ قبل موته؟

وهل يخفى على السيوطي، وهو المحدث الفقيه الأصولي، وقد ادعى الاجتهاد المطلق، وعدَّ نفسه من المجدِّدين، هل يخفى عليه فساد ما أورده في

خصائص النبي ﷺ المزعومة، ومنها: أنه ﷺ أول النبيين خلقاً، وأن له حق الإقطاع في الجنة، وغير ذلك مما لا يقبله عقل، وليس عليه شبهة دليل؟

وهل يخفى على مثل الدكتور محمد بن علوي، وهو المتخصص في علم الحديث، وله مشاركة في غيره من العلوم، فساد ما نقله عن هؤلاء وغيرهم من مخالفات وضلالات وطامات، وقد شهد مصارع بدعهم بأقلام أهل السنة ؟ مصرع الأخنائي والبكري على يد شيخ الإسلام ابن تيمية، في رده على ضلالاتهما، ومصرع السبكي على يد ابن عبد الهادي في "الصارم المنكي"، والهيتمي على يد النعمان الألوسي في "جلاء العينين"، والنبهاني على يد محمود الألوسي في "غاية الأماني"، وأحمد زيني دحلان على يد محمد السهسواني في "صيانة الإنسان"... وهلم جراً.

ومع شهوده لمصارع هؤلاء وغيرهم من المخالفين، ومصرعه هو نفسه بأقلام علماء بلده وغيرهم، وبدلاً من أن يعتبر وينزجر، سار على نفس الطريق، ومشى على نفس المنوال، بل زاد على من سبقه أضعافاً، ولسان حاله يقول:

وإني وإن كنتُ الأخير زمانه ... لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

ومع ذلك كله، فليس ببعيد على الله أن تدركه رحمته وتناله هدايته، فقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء. فإن يكن فهو و الله خير عظيم وفضل كبير، أن يرجع ويتوب إلى الله مما كتب وسطر، وله في ذلك سلف في أئمة كبار، رجعوا إلى الحق وأذعنوا إليه وأعلنوا ذلك على الملأ، وما نقص ذلك من قدرهم، بل عد في مناقبهم وفضائلهم.

فهذا الإمام أبو الحسن الأشعري قد رجع عن مذهبه الأول، الاعتزال، وأعلن على الملأ رجوعه عنه وتبرؤه منه، وانتحل مذهب الكلابية، ثم رجع عنه أخيراً إلى مذهب أهل السنة والجماعة.

ورجع الجويني والشهرستاني والرازي وأبو حامد الغزالي وغيرهم. ولم يزل الأئمة من قبل يرجعون عن أقوال لهم، إذا تبين لهم مخالفتها للحق، بل لا يكاد يعرف إمام إلا وله مقالات قد رجع عنها.

وحتى الصحابة رضوان الله عليهم، رجعوا عن بعض أقوالهم ومذاهبهم. وكل ذلك مسطر في الكتب مزبور في الدواوين، وشهرته تغني عن ذكر الأمثلة والوقائع فيه.

والمذهب الذي ندعوا المخالفين جميعاً إليه، ليس مذهباً محدثاً مخترعاً، بل هو مذهب قديم متصل بالرسول ﷺ وصحبه الكرام وتابعيهم بإحسان، وهو مذهب الأئمة الأعلام، أبي حنيفة النعمان ومالك الإمام، والشافعي وأحمد الشيباني، والأئمة الستة مصنفي السنن المشهورة، وأضرابهم من حملة السنة المطهرة.

وهو مذهب أكثر العلماء من المحدثين والمفسرين والفقهاء وغيرهم في القرون المفضلة، ومذهب كثير ممن جاء بعدهم إلى عصرنا هذا.

فنحن إذاً لا ندعوا إلى مذهب شخص بعينه، فيقال هؤلاء متعصبون لشيوخهم أو لعلماء بلدتهم أو مذهبهم، وإنما ندعوا إلى مذهب من نتفق جميعاً على إمامتهم وعظيم فضلهم وعلمهم.

وقد تبين أن المخالفين لم ينقلوا نصاً واحداً عن إمام معتبر يبيح الغلو في الرسول ﷺ ودعاءه واستغاثته بعد موته، وسؤاله الاستغفار وغيره عند قبره أو بعيداً عن قبره، ولا قال واحد من هؤلاء الأئمة المتفق عليهم إنه ﷺ يعلم الخطرات والنيات، ويعلم مفاتيح الغيب والروح، وأنه سمي من أسماء الله الحسنى سبعين اسماً، منها الأول والآخر والباطن والظاهر.

ولم يقل أحد منهم إن قبره ﷺ أفضل من العرش وجنة الفردوس، وأن الملائكة لم يسجدوا لآدم إلا من أجل سيما الرسول ﷺ حين بدا بوجه آدم وأنه غياث الخلق أجمعين.

وإنما نقل المخالفون ذلك عمن جاء بعد السلف، ممن خالف سبيلهم، ولم تتفق الأمة على إمامته، بل هناك من خالفه من الأئمة ورد عليه.

وما نقلوه في بعض المسائل المشتبهة عن بعض السلف من الصحابة وغيرهم في شد الرحال إلى القبر النبوي والتوسل بالرسول ﷺ بعد موته، لم يصح منه شيء، كما سبق بيانه، ولم يحكوا تصحيحه عن أحد من المتقدمين.

ثم نقول أيضاً، إن المذهب الذي ندعوا إليه هو الأحوط والأسلم، لأن من ترك إطراء الرسول ﷺ واكتفى بما وصف به في القرآن والسنة وعلى لسان الصحابة رضوان الله عليهم، لا يعد مقصراً في حقه ﷺ بحال.

ومن اقتصر في الزيارة والتوسل على الوجه المشروع ولم يجاوزه إلى غيره، لا يقال إنه نقص من دينه شيء، لا من الواجب ولا من المستحب، وغاية ما يقال إنه ترك أمراً جائزاً، ومثل هذا يستوي فيه الفعل والترك، لو سلمنا أنه جائز.

ومن احتاط في دينه، ولم يسأل الرسول ﷺ الشفاعة ولا الاستغفار بعد موته، واجتهد في فعل ما أُمر به من العبادات وترك ما نُهي عنه من المنكرات، ودعا الله وحده وألح في الدعاء، وتوسل إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أن يغفر له ذنوبه ويستر عيوبه، وأن يدخله الجنة ويعيذه من عذاب الآخرة، وأن يُشَفِّع فيه نبيه محمداً ﷺ، فقد أحسن كل الإحسان، وأفلح كل الفلاح، كيف وقد تشبه بفعل العلماء، واقتفى أثر الأنبياء؟ وقد شهد الرسول ﷺ لمن اقتصر على فعل الواجب من غير نقصان بالفلاح والجنة، فكيف بمن زاد على ذلك بفعل المستحبات والاجتهاد في الطاعات ؟

وكل هذا الذي ذكرته لا خلاف فيه بين سائر الطوائف المنتسبة إلى الإسلام، على اختلاف نحلهم ومذاهبهم.

وعلى ذلك تدل الآيات، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء : ٦٦-٦٨].

أما لو تعدى ذلك إلى غيره، مما يدعو إليه المخالفون، فقد عرَّض دينه للخطر وآخرته للخسران، لأنه ليس وراء المشروع إلا المخترع، ولا غير السنة إلا البدعة، وليس بعد الحق إلا الضلال.

أسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته أن يهدينا جميعاً إلى الحق وإلى صراطه المستقيم، وأن يجعلنا ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، وأن يجنبنا وسائر المسلمين الزلل والفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يرد من أخطأ وضل إلى الحق رداً جميلاً، إنه سميع قريب مجيب، والحمد لله في البدء والختام، وصلى الله وسلم وبارك على سيد الأنام، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

وكتبه سمير بن خليل المالكي الحسني المكي

١ / ٧ / ١٤١٩ هـ

الفهارس

